

نزف النخيل
قصة حياة ميثم التمار
مسلم ناصري
المعارف


بسم الله الرحمن الرحيم

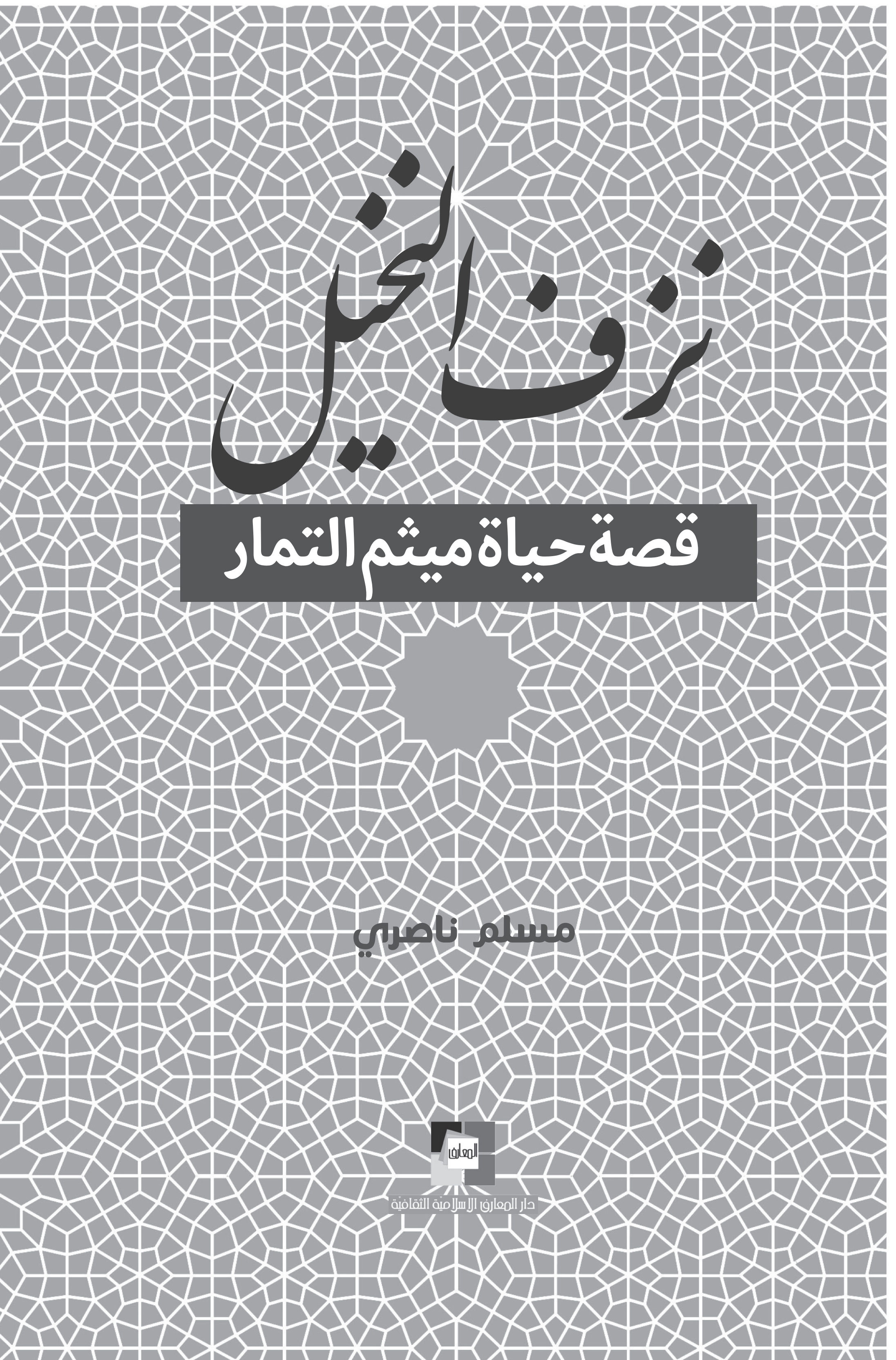


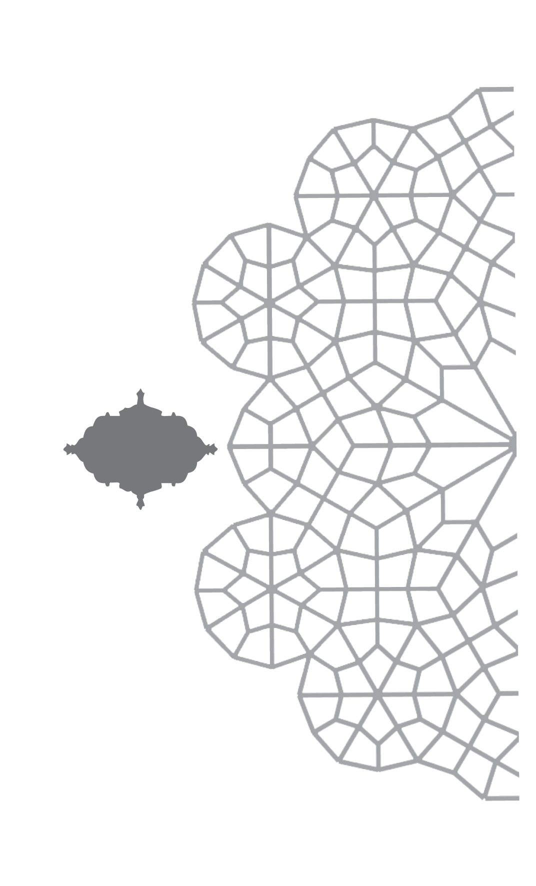
قصة حياة ميثم التمار



الكاتب: **مسلم ناصري**
ناشر النسخة الأصلية: **دارجمكران للنشر**
رسوم: **محمد صادق**
ترجمة: **أحمد عودة**
تدقيق الترجمة: **حوراء سجادي**
إعداد النسخة العربية: **مركز المعارف للترجمة**
الناشر: **دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة**
إخراج فني: **علي عليق**
الطبعة الأولى - 2020م
ISBN 978-614-467-244-0

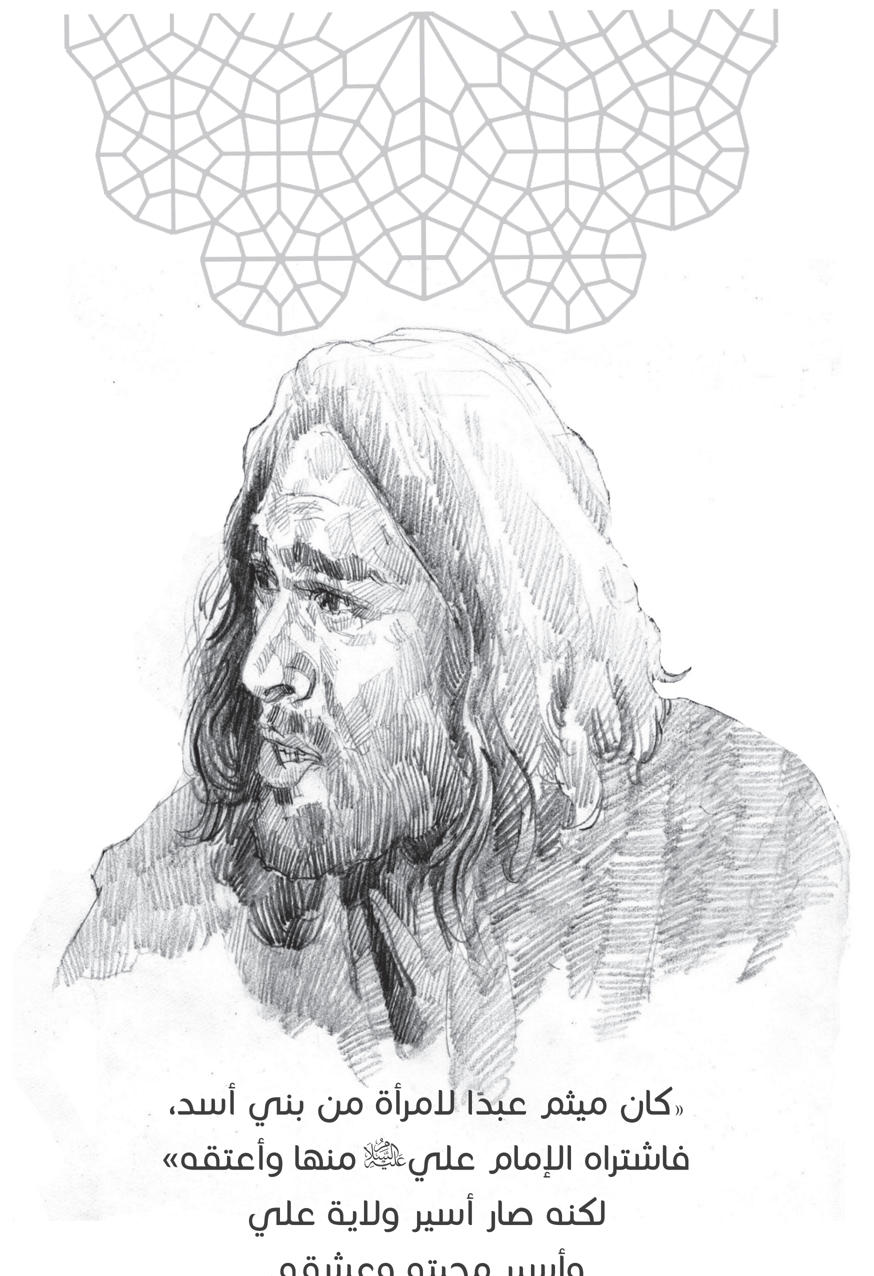
books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347


نزف النخيل
قصة حياة ميثم التمار
مسلم ناصري
المعارف
دار المعارف الإسلامية الثقافية



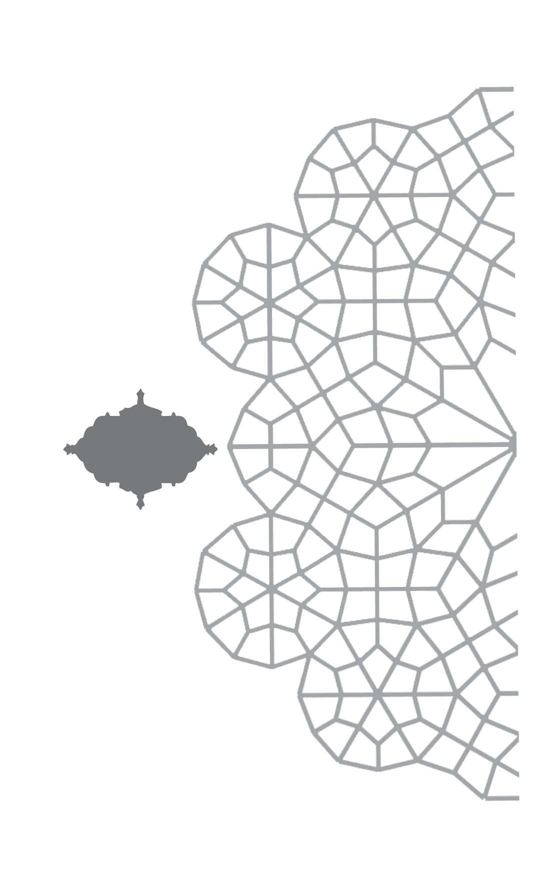


المحتويات



«كان ميثم عبدًا لامرأة من بني أسد،
فاشتراه الإمام علي عليه السلام منها وأعتقه»
لكنه صار أسير ولاية علي
وأسير محبته وعشقه.

ابن حجر العسقلاني؛ شرح نهج البلاغة؛ ابن ابي الحديد، ص 292.
رجال الكشي؛ ص 86.



إشارة

كلّما تعاظمَ الكمالُ عجزَ البيان عن وصفه، لكن ضرورة الاستفادة من الشمس، تستوجب الاقتباس من مرايا شعاعها. هكذا هو مداد الرواة عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فحين تعظم الغاية في معرفة ثراء وجوده، يستلهمُ طلاب الحقيقة تجلياتِها العلويّة في كلّ من اقترب وعشق وعرف. هذا الكتاب يسردُ محطات من حياة «ميثم التمار» الصاحبِ المخلص الذي اقترب من مولاه فعشق وعرف. قاده القدر إلى بلاد المَسلمين. نشأ مُحبًّا للخير، وكبر مُريدًا للعدالة. أدرك الكمال منجذبًا إلى هالة الأنس، وصار محلًّا للثقة. بذل كلامه وأفنى عمره في نصرةِ عليّ. جُرح وصُلب نازفًا على النخيل... لنقرأ قصّة «ميثم» حكايةَ العشق وروايةَ طلبِ الحق. ومن قصد فيوضات النور تأملَ المصابيح.

نشكر كلّ من ساهم في إعداد الكتاب وترجمته وتحريره لا سيّما الأستاذ أحمد عودة في الترجمة، السيدة حوراء سجادي في تدقيق الترجمة، السيدة نجوى الموسوي في التحرير والتقديم، الأستاذ فيصل الأشمر في التدقيق اللغوي، والمصمّم

الفنـــي الأخ علي عليــق. كما ونشكر جزيل الشكـــر الكاتب سعيد محمدي والرسام محمد صـــادق؛ ولا ننسى معدّ وناشر النسخة الأصليــة: انتشـــارات جمكـــران (دار جمكران للنشـــر)، وناشر النسخة العربية في بيروت: دار المعارف الإسلامية الثقافية.

تنويه: عنوان الكتاب الأصلـــي: باغ طوطي (روضة الببغاء)، وقد ارتأينا وضع عنوان آخر له، نزف النخيل.

مركز المعارف للترجمة

تشرين الثاني/ 2020م



كانـت النيـاق تنظر بعيونهـا الواسعـة إلى أولئـك المقيدين بالسلاسل، تحدّق بهم وهي تجرّ أفواهها على الأرض بين القمامة، وصوت السلاسل الملتفّة حول أقدام الرجال تملأ الفضاء المختنق، في ذلك الصباح الخريفي المشبع بضباب المستنقع.

كان الأسرى يجرون أرجلهم على الأرض وهم مثقلون ومتعبون، يعبرون من بين الإبل ونظراتها الحريصة، فيما أقدامهم تغوص في المستنقـع حتى الرسغ، وهم يُقـادون خلف المحاربين المنقّبين، يسيرون نحو تلك الخيام الواقعة خلف المستنقع، من دون الالتفات إلى أعواد القصب اليابسة المنتصبة الحادّة.

كانت سيـوف المحاربين المنحنية تلمع، وهـم تارة يقهقهون، وتارة أخرى يتكلمون بلغة لم يفهم الأسرى منها شيئًا، سوى كلمة واحدة، كان الرجال يكرّرونها بازدراء؛ مجوس... مجوس...

بـدت وجوه الأسـرى مقطبـة وشاحبـة، وأبدانهـم مرهقة، وهـم يتقدمون بخطوات ثقيلة؛ فطـول الطريق أنهك قواهم، ما أجبرهـم على السير ببطء شديد. لقـد غارت عيونهم من شدة التعـب، وغضِنَت جباههـم حتى ارتسمت عليهـا الخطوط، أما لحاهم الكثيفة فصارت شعثاء غبراء.



من بين الأسرى كان فتىً ذو شعر طويل أسود يميل إلى الزرقة، لم يكد يُرى من بين الرجال الغلاظ وهو يسير، وقد اعتراه خوف شديد. كانت عيناه مسمّرتين على شفرة سيف الحارس وهو يراقبه بشدة. لم يعد في ركبتيه قوة تحمله على المشي، فمسير أيام وليال عديدة ومتواصلة أفقدته القدرة والحول؛ لكنه ظلّ يجهد نفسه على السّير حتى لا يتأخر عن القافلة. فإذا حدث



وتحركت قدمه ببطء خطوة واحدة، فإن الأسير الذي يتقدمه سيسحب السلسلة التي تقيد معصميه، مما يدمي جراحه أكثر فأكثر. تلك السلسلة حول معصميه أشبه ما تكون بالمنشار، إذا تحركت احتكّت بجلده، ومزّقت لحمه، وضغطت على عظامه، فيتسلّل الألم إلى فقرات ظهره، وتجري الدموع على وجنتيه من شدة الألم.

عندما خرجوا من أوحال المستنقع، طلب منهم فارس من الأعداء أن يتوجهوا نحو كثبان من الرمال، كانت مليئة بحصى ناعمة مدوّرة وحمراء، وتكاد ظلال شجرات النخل المنتصبة في الطرف الآخر من المستنقع أن تصل إليها. هناك تحلّق الأسرى حول تلة الرمال. ارتمى بعضهم على الأرض، وعلت الآهات والأنّات. ثم راحت تعلو أصوات الهمس بين من هم أفضل حالًا. لم يكن أحدٌ يعلم أيّ مصير ينتظرهم؛ أيقتلون أم يسجنون! لكن حديث الرجال جعل الفتى يرتعد من شدّة الخوف.

- يريدون أن يسلخوا جلودنا مثل الحرباء.

- فليرحمنا الرب.

كانت النظرات متوجهة نحو شفرات السيوف. أما الجنود فراحوا يخمدون صراخ الأسرى وعويلهم.

- نحن لم نرتكب أي ذنب، كنا أناسًا مساكين نعمل ليل نهار.

- لسنا أسارى في ميدان المعركة.

- في النهاية نحن عبيد.

– لم يجلبونا من ناحية النهروان إلى هنا عبثًا، لو أرادوا قتلنا لقتلونا هناك.

طلب الجندي البدين الواقف تحت ظل نخلة، بغضب، من الأسرى أن يسكتوا؛ لكن أحدًا منهم لم يفهم شيئًا من كلامه.

– لقد جلبونا ليعلقونا فوق المشانق، حتى يرى ذلك نساؤهم وأطفالهم.

– أما أنا فأفضّل أن تقطع عنقي بحدّ السيف، على أن أشنق وأتململ فوق المشنقة.

صوت غليظ يصدره الحارس فيسكت الجميع.

كان الفتى يرمي بطرف عينيه ظل الحارس، وهو يرتعد، وقد خُطف لونه من شدة الخوف، بينما رأس السيف المعلق برقبة الحارس يميل ويستقيم مع كل حركة يأتي بها، ويلمع مثل المرآة تحت أشعة الشمس.

في الجهة المقابلة كان صوت ضجيج النساء والأطفال يعلو، لقد خرجوا من خيامهم ووقفوا يشاهدون ما يحدث... نساء ورجال عجزة يرتدون أثوابًا طويلة بيضاء وسوداء. راح الجنود يزجرون الأطفال فيبتعدون، لم يكن عددهم كبيرًا. كان أكثرهم من الفتيات الصغيرات النحيلات.

عندما علت أصوات الأولاد وضحكاتهم، شعر الفتى برغبة عارمة في اللعب معهم، لكنه لم يكن يمتلك الشجاعة على رفع رأسه والنظر إليهم. في تلك اللحظات أحس بشوق شديد يأخذه، تراءت له صورة أمه وهي واقفة عند عتبة الباب تنتظره

بصمت، كما كانت تفعل كل مرة! ذكرى جعلت دموعه تسيل على خدّيـه. أين أمه الآن؟ ماذا حـلّ بأبيه؟ لم يعلم أحد كيف تجاوز الجنـود أسوار المدينة ودخلوها. حدث ذلك في منتصف النهار. سقطت النهروان في يد فرسان من العرب كانوا يرتدون اللباس الأبيض. الجنود الملثمـون يشاهدون في كل مـكان؛ في الأسواق والأزقة. اضطربت المدينة دفعة واحدة، واختلّ أمنها، وانتشرت فيها رائحة الدمـاء والدخان، وأخذتها النـيران. كان والده قد طلـب إليه أن يعود إلى البيت ليحفـظ حياته وحياة أمه. تحرك نحو المنزل مبتعـدًا عن سوق التّمر وهو خائف، لكنه في الطريق وقـع في يد عدد من الجنود، سدّوا عليه الطريق، وأقفلوا الزقاق من الجهتين. ما هي إلا لحظات، حتى سمع صوت الوهق يدور ثم يلتف مقيدًا كتفيه بإحكام. فجأة رأى نفسه ممددًا على الأرض. راح الفتى يصرخ ويفحص بيديه ورجليه، غير أنه لم يجد أحدًا ليساعـده؛ لا والده ولا غيره. ابتلع الفتـى ريقه، ومسح أنفه بكمّ يـده الموحلة. كانت تتراءى له أمـه من خلف غشاء دموعه، وهي تنتظـره أمام الباب... ماذا حلّ بأبيه؟ أحيٌّ هو أم قتل؟ إن كان حيًـا فأين هو الآن؟ لمـاذا لم يصبح أسيرًا مثله؟ ما زالت صورة أبيـه مطبوعة في ذهنه، بتلك اللحيـة الكثيفة، والجبهة العالية، وهو ينقل سلال التمر من مكان إلى مكان، ويناديه بصوت رخيم حنـون، يطلب إليه أن يساعـده في ترتيب السلال. لقد سمع من أحدهم أن والده شوهد جريحًا قرب حائط دكانه. حرّك شفتيه ببطء وهمس قائلًا: «أبي».

عـاد إلى نفسه مع صوت رقيق. رفـع رأسه، رأى امرأة طويلة القامـة تقـف في مقابلـه؛ امرأة سمـراء تجرّ أذيـال ثوبها على الأرض، عيناها السوداوان تشبهان إلى حد بعيد عينَي «فرنگيس» زوجـة جارهـم. أدار الفتـى رأسه بانزعاج، لكـن الجندي أخذ بذقنـه ورفـع رأسه نحـو الأعلى، حتـى تتمكن المرأة مـن رؤيته بصـورة أفضـل. خلف المـرأة كانت تقف بنت صغـيرة، شعثاء، رمداء، وهي تحدق به.

«هـذا الولد جيـد لك، ماجـدة! سيقـوم بأعمالـك المنزلية ويساعدك في أشغالك، ريثما يأتيك خبر عن زوجك. لن يكلفك دنانير كثيرة».

وقع ظل المرأة على وجـه الفتى. تقدمت خطوات إلى الأمام، وضعـت يدهـا أسفـل ذقنه، فأرجـع الفتـى رأسـه إلى الخلف بانزعـاج. تبسمـت المرأة، ولم تنطـق بكلمة واحـدة، ثم راحت تحـدّق بعينيه العسليتين. ما زالت جفـون عينيه مبتلة بالدموع. انحنت قليلًا وأمسكت عضده، وبدأت تضغط عليها، كما يضغط علـى أسفل ظهر الخروف. كان والده يفعل ذلك عندما يريد أن يتفحص الخرفان، ليعرف إذا ما كانت مناسبة للذبح أم لا!.

عَـبرت المرأة بجانـب الفتى من غير أن تقـول شيئًا، وراحت تنظـر إلى الأسـرى واحـدًا تلـو الآخـر. ثم ذهبت وعـادت بعد لحظـات ووقفـت في مقابل الفتى، التفتـت إلى الحارس وقالت: «كلامـك صـواب يا سعـد! يجـب أن لا أفرط في مـالي في أيام وحدتي هذه!».

نـادى الحارس رجـلًا كان يمسك بيـده عظمة ناقـة. تقدم الرجـل البدين ببـطء شديد، حدّثـه الحارس بكلمـات، فشرع الرجل البدين الأحول يخـطّ برأس خنجره خطوطًا على عظمة الناقـة التي كانـت في يديه، ثم مال إلى الفتـى يتأمله من رأسه إلى قدميـه، بعد ذلك رفع رأسـه ولم ينطق بكلمة واحدة. تقدم الحارس، انحنـى وقطـع حبلًا مـن الليـف كان معقـودًا حول معصمي الفتـى، وفك السلسلة، ثم استـدار بنصف وجهه نحو المـرأة وقال لها: «ولـدٌ هادئ! منـذ انطلقنا من النهـروان وأنا أراقبه، إنه كثير البكاء فقط».

- هل أمه وأبوه هنا؟
- لا أظنّ ذلك، إنه مثل الحَمَلِ الضائع، يبدو وحيدًا.
- إذًا، ليس ضيق صدره وبكاؤه عبثًا.
- على كل حال يمكنُكِ أن تكوني أمًّا له.

تجهم وجه المرأة، وسألت الحارس عن اسمه.

- الأسير ليس لديه اسم، ثُم إننا لا نفهم



لغة هؤلاء. من الأفضل أن تطلقي أنت عليه اسمًا.

ثم أشار إلى الفتى أن يذهب خلف المرأة.

في وسط ذلك الضجيج الذي أحدثه الذين جاؤوا ليشتروا خدمًا لأنفسهم، عَبَرَ الفتى من بين الرجال الأشداء المرعبين، وسار خلف المرأة؛ كأنه صار منسيًا. عندما ابتعدوا قليلاً عن ضجيج الناس، رجعت المرأة إليه وأمسكت بعضده، وبدأت تتفحصه من جديد، وتدور حوله، ثم طلبت إليه أن يسير خطوات عدة ويرجع، لكن الفتى لم يفهم كلمة مما قالت، وراح ينظر إليها بدهشة وتحيّر. تقدم الجندي والغضب بادٍ عليه، أمسك الفتى وجره بقوة، وقال له ما يجب أن يفعل. طلبت المرأة منه أن يرفع يديه عاليًا. أمسك الجندي يدي الفتى وشدهما نحو الأعلى، غير أن المرأة جلست على الأرض، وبدا الانزعاج على وجهها، عندما رأت معصميه الداميين، وقد بدا بياض عظمهما.

«سوف يتحسن بعد أيام عدّة، وقد يتحسن بسرعة إذا وضعت عليها مرهما...» قال الجندي.

مع مرور الوقت، كانت حرارة الشمس ترتفع أكثر فأكثر، وكان هدير الجمال ورائحة القمامة المنتشرة قرب المستنقع يملآن الفضاء. أما الذباب فراح يتنقّل مع البعوض فوق جراحات الأسرى. بعد أن تأملت المرأة الفتى جيدًا وتفحصته، راحت تخرج بعض الدنانير من كيس بحوزتها، تعدّها واحدًا واحدًا وهي مترددة، ثم دفعتها إلى الجندي وقالت له: «إن كان

مريضًا فسوف أرجعه». بعد ذلك أمسكت بعضد الفتى، والتفتت إلى ابنتها وتابعت حديثها: «مائدة! أمسكي الحبل واجلبيه إلى الخيمة». قالت كلمتها ومضت تتقدم خطوة خطوة.

– انتبهي أثناء الليل فلا يهرب الفتى!

– إن أتى بحركة قطّعه الحارس إربًا إربا.

كانت الفتاة تمسك برأس الحبل المجدول من ليف النخيل بيدها، وهي تجرّ الفتى خلفها. عبروا من بين خيمتين، ومالوا نحو الجهة الأخرى للمستنقع. مشوا فوق روث الحيوانات المتجمّع خلف إحدى الخيام، ثم ساروا بجانب المستنقع حيث الأرض ضحلة وموحلة. بعد ذلك داروا حول شجرات النخل اليابسة، واجتازوا الخيام المنصوبة المبعثرة هنا وهناك.

شعر الفتى أنّ عيونًا تلاحقه، كانت تلمع من خلال شقوق أبواب الخيام وهي خائفة، وكأنها تنظر إلى ساق قدمه بحذر. ما إن ابتعدوا قليلًا عن الخيام، حتى خرج أصحاب تلك العيون من خيامهم ولحقوا بهم. وكان عدد من الصبية يلعبون تحت ظلال النخل، وقفوا يطاردونهم بأعينهم. تقدم صبيّ طويل القامة، ورمى الفتى بقبضة من الوحل كانت في يده، فأحنى الفتى رأسه نحو الأسفل، لكن الطين التصق برقبته؛ عندها ارتفعت ضحكات الأولاد، لكنهم ما لبثوا أن فروا جميعًا بصيحة واحدة من المرأة.

– ها ماجدة! لقد اشتريت عبدًا جيدًا. يبدو نشيطًا وقويًا مع صغره.



– أعتقد أنه سالم.

– اسمه سالم؟

– لا. لكن يمكن أن يكون اسمًا جيدًا له.

– هل يفهم لغتنا؟

– لا أعتقد، إنه مجوسي. لكن سوف أعلمه. لقد جاؤوا به من وراء الأنهار الغزيرة. ألا تريد أنت أن تشتريَ واحدًا؟

لم يجب الرجل المسنّ.

– قال سعد إنّه ولد مطيع.

– يستطيع أن يعينك في عملك حتى يأتيك خبر عن زوجك.

تأوّهت المرأة، وتابعت سيرها من دون أن تجيب. تقدمت نحو خيمة ظهر من خلفها كلب، أخذ يعوي كأنه يستقبلهم بنباحه. تمتمت المرأة بكلمات، فبدأ الكلب يدور حول ذلك الفتى الغريب ويشتمّ رائحته، ثم رجع إلى ظل الخيمة؛ صف يديه قليلًا إلى الأمام، وجلس على ذيله وهو يراقب الوافد الجديد، ثم بسط يديه إلى الأرض، ووضع رأسه بينهما متظاهرًا بالنوم. كان بين الحين والآخر يحاول طرد الذباب بفمه، وهو يغلق إحدى عينيه، بينما يراقب من تحت جفن عينه الأخرى ذلك الغريب الواقف خارج الخيمة تحت أشعة الشمس الحارقة.



– ها ماجدة! أليس هناك من خبر عن وائل؟

استدارت المرأة بوجهها، لكنّه لم يكن يُرى تحت حمل القصب الجاف على رأسها: «كلا يا أختاه». غير أن جوابها ضاع بين أعواد القصب. مرّت من بين النسوة اللاتي كنّ يجمعن القصب حزمًا حزمًا، وتابعت سيرها خلف سالم وهو يحمل فوق كتفيه حُزمة من القصب ويمضي خلف ابنتها مائدة.

كانت الخطى بطيئة، سارت ماجدة وسالمة جنبًا إلى جنب، وقد تشابكت أعقاب حُزمتيهما. قالت ماجدة وهي تجيب سالمة التي كانت تسأل عن حال زوجها: «ليس بعد» ثُم تأوهت بشدة.

– قلبي مطمئن بأنه سوف يعود؛ الأرض التي ذهب إليها واسعة وبعيدة. إن شاء اللّه سيظهر. لكن الحمد للّه أنك اشتريتِ هذا الفتى.

– إنه مسكين ومسالم. على كل حال فهو بمنزلة العصا في يدي في هذا الزمن الصعب.

تابعوا المسير وعبروا بجانب الخيم. على مسافة ليست ببعيدة، كان الرجال مشغولين بصفّ القصب يشبكونه ويجدلونه، ويعملون منه سقفًا وعرائش يستظلون بها؛ فالعيش

تحت الخيم السوداء في الطقس الحار والرطب يضيق الصدور ويخنق الأنفاس. منذ مدة والناس مشغولون بجمع أعواد القصب وصفّها ونسجها، وإقامة السقائف، لأنها ألطف هواء من الخيم. صحيح أن الأفاعي والعقارب تجد طريقها براحة أكبر إلى السقوف، لكن العيش تحت عرائش القصب أكثر راحة، وألطف هواء.

منذ أن وضع سالم قدميه في خيمة ماجدة، كانت الخيام تُزال واحدة تلو الأخرى، بينما تنتصب مكانها عرائش القصب. أما ماجدة فكانت تصبر لعل زوجها يعود. لكن وائلًا لم يكن بين الجنود الذين كانوا يعودون من المناطق البعيدة، ولم يكن لدى أحد خبر عنه، وهذا ما كان يقلق ماجدة. عندما يئست من الأمر صممت أن تنصب عريشًا من القصب مثل الآخرين، لكن بمساعدة سالم.

طرح سالم أعواد القصب التي كان يحملها فوق الحزم الأخرى، وتقدم نحو المرأة يساعدها على التخلص من الحمل الذي أحنى ظهرها، ثم اقترب من مائدة، أخذ الحزمة منها ورماها فوق كومة القصب اليابسة. تقدمت المرأة من ابنتها، وراحت تسحب أوراق القصب اليابسة والحادة من بين خصلات شعرها الطويل، بينما كان سالم ينفض قميصه الطويل العتيق، الذي خاطته له المرأة، وهو ينظر إلى حزم القصب ويبتسم.

اليوم تعبنا، لكن كان عملنا جيدًا. تعالا إلى داخل الخيمة لنأكل شيئًا.

أشـــارت المرأة إلى كأسين مليئتين بلبن الإبل، وهي تعقد رأس القربة. لم يكــن سالم يحب لبن الإبل، فهو كثير الدسم، وطعمه يعقــد اللسان. في الأيام الأولى كان لــبن الإبل ينزلق في حلقومه بصعوبــة؛ لكن المرأة كانــت تجبره على تناوله. أمــا مائدة فقد شربــت اللبن بشهية، وأدنت الكأس نحــو أمها، تطلب اللبن مرة أخرى.

كان ســالم ينظر إلى رأس أنفه الذي بدا لــه ظلًّا في بياض اللــبن. مضت شهور على وضع ســالم قدمه في خيمة المرأة؛ لكن مــع كل الأحــداث التي مضــت، لم يبق الكثــير في ذاكرته. صار يــرى أمه مكان ماجدة. كان يتصــور أحيانًا أن أمه تناديه؛ غير أن صــوت ماجدة الرفيع، لم يكــن نديًا، بل كان إلى حدّ ما جافًا وأجشّ؛ لم يكــن بلطافة صوت أمه على الإطــلاق. ففي كل مرة كانــت تناديه، كان يشعر أن تلك المرأة العربية تطلبه بنبرة غير محببة. في البداية كان الأمر كذلك، لكن رويدًا رويدًا اعتاد على صوتها. كان يعتقد أن في ذلك الغضب المختبئ في صوتها، يكمن موج متلاطم من الحزن، حتى أنه في بعض الأحيان كان يتصور أن المــرأة تحسبــه مقصرًا في [قضية] موت زوجهــا، أو سببًا في اختفائه، لذلك عندما كانت تغضب ماجدة، كان يسعى للاختباء في مكان ما، حتى ابنتها مائدة كانت تشعر بذلك، فيراها تتنحى جانبًا عن أمها، وتأخذ مسافة منها.

رفــع ســالم رأسه ونظــر بطرفه، من فــوق كأس اللبن، إلى ماجــدة. كانت في آخــر الخيمة مشغولة بإطعــام طفلها. من يرَ

هذه المـرأة كيف تطعم طفلها بهدوء وحنان، لا يتصور أنها تلك المرأة نفسها التي كانت إذا غضبت احمرّ وجهها، وبدا شعلة من نار، وارتجفت يداها، بحيث لو صودف شخص في طريقها، فلن يسلم من غضبها. ذات مرة لفّت شعر ابنتها حول رأسها بعنف، ولـولا أن دخل الجيران عليها، لكان شعـر ابنتها اقتلع من فروة رأسهـا. لكن بعد منتصف الليل ترى هذه المـرأة نفسها تداعب شعـر ابنتها، وهـي تنوح على فـراق زوجها، تمامًـا مثلما كانت تفعل أمـه كل صباح. كانت تضمّه إلى صدرهـا بقوة، وتنشد له الأغـاني. لكن أين أمـه الآن؟ لم يقدر أن يتصـور في ذهنه أنها قتلـت. في كثـير من الأيـام، كان يخرج بذرائـع مختلفة، يبحث بـين طيات الخيام، ويسـأل الأسرى الجدد عن أمـه وأبيه، لكن أحـدًا لم يكن لديه خبر عـن أيّ منهما. لقد جـاؤوا من [خلف] مـدن ومناطق بعيدة، لم يكن قد سمـع باسمها حتى. كان يفكر أحيانًـا بالهرب والرجـوع إلى النهروان، لكنـه لم يجرؤ على أن يأتي بحركة واحدة أثناء الليل، فشخير الحارس الذي كان يغطّ في النوم خارج الخيمة يرعبه.

– سالم! أين أنت؟ بماذا تفكر؟ انهض فلدينا الكثير من العمل.

بهـذه الكلمـات رجع سالم من سفر خيالـه. أدار رأسه حتى لا ترى ماجدة عينيه المغمّستين بالدموع. خرج من الخيمة وهو يمسح الدمع عن عينيه، مرّ بجانب الحارس؛ كان باسطًا ذراعيه، رابضًا في حرّ منتصف النهـار. همس الفتى بصوت خفي «حيوان مؤذ». دمدم الكلب، فخاف سالم، وأسرع في مشيته، ثم سمع صوت المرأة

وهي تقول: «مائدة! أنت أيضًا تعالي لتساعدي سالمًا».

هرعـت مائـدة إلى خارج الخيمـة، ونادتـه؛ فانتظرها! لقد اعتادت مائدة عليه في هذه الفترة، ركضت نحوه، أمسكت بيده، وانطلقا معًـا إلى حزم القصب المتراكمة خلف الخيمة. بالأمس كانـوا قد مهـدوا الأرض، فانتزعـوا الأشواك منهـا، وفرشوها بالرمـل الأحمـر الناعـم. كانـت الرمـال تصـدر حفيفًا تحت أقدامهـم. تناول سالم عصـا حادة الرأس، وحـاول أن يغرزها في الأرض، لكـن الـتراب كان صلبًـا، نظر حوله، ثـم طلب من مائدة أن تحضر له حجرًا محدد الرأس، وراح يحفر به الأرض. كان الحجـر المحـدّد يحفر الأرض كالمخلـب، ويدخل في التراب الصلـب، بينمـا راحت مائدة تأخـذ التراب مـن خلفه، تجمعه بيديها وتدفعه خارجًـا. عملوا حتى حفروا حول الرمل المفروش ثلمًا، كأنه جدول ماء. كان سالم مع كل ضربة في الأرض، يشعر بارتيـاح أكثر، فـكان يضرب الحجـر بغضب، ويتمتـم بكلمات بصـوت منخفض، لم تفهـم الفتاة منها شيئًـا؛ لكنها استمتعت بسماعها، كانت الكلمات شعرًا حفظه سالم عن أمه.

- هل تبكي يا سالم؟

رفـع سالم رأسه، مسح دموعه بكمّ يـده، ونفض رأسه نافيًا. لم يـدر لماذا الآن يتذكـر التهاويد التي كانت أمـه تغنيها لأخيه الصغـير، لم يكن يظنّ أنه يحفظهـا. كان أحيانًا يرى ضحكات أمـه من خلـف غشـاء دموعـه، وأحيانًا يـرى تذمّرهـا عندما تغضـب. كان يتحسّس وجهها الهادئ وهـم يتحلقون حول النار

عند الصباح الباكـر، حيث يُغمض والده عينيه، وينشد ترانيم، بينما هو يكررها بصوت خافت.

-ولدي! ميثم!

كانت أمـه تناديه مباشرة بعد الدعاء. هـو يعلم بأنها سوف تضـع رأسـه في حضنهـا، وتداعـب شعـره المنسـدل، وتدعو له بالسلامـة والعافيـة. كم كانت رائحة والدتـه تمنحه الطمأنينة والراحة عندما يلقي برأسه على صدرها، حينها كان يشعر بأنه طائر في سماء الصباح.

-ميثم!

رفع ميثم رأسه.

-سالم! ماذا تنشد؟

عندمـا رأى ماجدة مسح دموعه بعجلة، وعاد إلى عمله بهمّة ونشـاط. لكـن بعد لحظـات قليلة، انهـار الفتـى، لم يستطع أن يتمالـك نفسه، دوّى شهيقه في الفضاء. أمسكت ماجدة ذراعه، ورفعته إلى الأعلى. سالم يبكي بكاءً عاليًا. لقد كان الحجر أثقل مما كان يعتقد.

- ماذا جرى يا سالم؟

لم يفهم ما قالت المرأة، لكنه شعر بدفء الأمومة في صوتها. كانت ماجدة لأول مرة تناديه بتلك المحبة، خلافًا للأيام الأولى.

- مائدة! اذهبي بسرعة واجلبي قربة الماء.

سـار سالم مـع المرأة وهي تسانده، حتـى جلسا في ظلل حزم



القصب. مدت ماجدة يدها تريد أن تمسح التراب الممتزج بعرق جبينه، لكنه لم يدعها تفعل ذلك. حرّكت شفتيها، فلم يفهم الفتى شيئًا، لكن صوتها ولحن أمومتها كانا يمنحانه الطمأنينة. رجعت مائدة ومعها قربة الماء، فطلبت المرأة منه أن يتقدم ويحني رأسه قليلًا، ثم ملأت كفها ماء ورشته على وجهه، بعد ذلك ملأ سالم كفيه وراح يغسل وجهه بالماء البارد.

ثم ما لبثت ماجدة أن نهضت، وتناولت الحجر، وبدأت تحفر الأرض.

ما إن حلّ الغروب حتى انتصب عريش القصب مثل سائر العرائش. كانت ماجدة تضحك وهي تأخذ جرسًا صغيرًا بيدها، [زيّنته بالأزهار] الحمر والزرق. علّقته بخيط على مدخل العريش، حركته ثم ضحكت وقالت: «ألا تعتقدون أن عريشنا قد صار أجمل من عرائش الآخرين؟».

لمعت عينا مائدة، فقفزت في الهواء تريد تحريك الجرس، لكن يدها لم تصل إليه. في هذه الأثناء طلبت منها أمها أن تذهب وتجلب أخاها الذي كان يبكي. أما سالم، فأحسّ بأن تعب اليوم قد زال بانتهاء بناء العريش، وزال معه حزنه، فتقدم بفرحٍ، وضرب الجرس، فمال الجرس الذهبيّ الصغير يمينًا وشمالًا، وانبعث منه صوت لفّ عتمة ذلك المساء.



- سالم! هناك دكان فُتحت مؤخرًا، فيها حلوى جيدة.

- لكنّني لا أملك شيئًا.

- لا تملك شيئًا؟ وهذا الكيس المليء بالقمح على ظهرك؟

ثم تذوق شفتيه وقال: «عجبًا كم هي شهية تلك الحلوى».

- لكن هذا القمح هو مؤونة شهر كامل لماجدة وأطفالها.

- قبضة من القمح لا تنقص منه ولا تزيد فيه شيئًا.

عض على شفتيه وأكمل:

- لن تعرف هذه العجوز العربية شيئًا.

- أنا لا أفعل هذا.

- كان علي إخبارك؛ لقد اتفقنا على أن يأخذ كل منا حفنة من القمح، ولعلك تكون شريكنا.

اتّكأ سالم على نخلة، وعدل كيس القمح على ظهره.

قبضات عدة من القمح فقط؛ من سيعرف بالأمر؟

هز سالم رأسه معلنًا رفضه، ثم حبس أنفاسه في صدره وسار. كان كيس القمح أثقل مما يتصور، ترنح قليلًا، لكنه فتح ساقيه، وأحكم وقفته، وعندما تمكن من الحفاظ على توازنه، انفصل

عن أصدقائه الفرس، وتقــدم مبتعدًا عن النخلة. استدار خلف خيمة كبــيرة – كانت مستودعًا لقمح أهــل الكوفة – ثم انحرف بطريقه نحو ميدان كناسة.

كانت قبيلــة بني أسد تستقرّ في الجهــة الأخرى من الميدان، تمامًا مقابل المستنقع الذي جفّ مؤخرًا. وكانوا قد اتخذوا ممرًّا عبره، ليجعلوا طريقهم أقصر.

حل الغروب. بدت الشمس الحمراء كأنها تمتطي كيس القمح فوق ظهــره. كان سالم يتقــدم وسط المستنقع بخطــوات ثقيلة، ويجهد نفسه ليصل إلى عريش ماجدة قبل حلول الظلام.

كان نسيم الغروب يهب تــارة، فيتلاعب بشعره الطويل، وهو غارق في تفكيره؛ يتذكّــر الشهور والسنوات التي قضاها في هذه المدينــة. فالأيام الأولى كانت صعبة جــدًا بالنسبة إليه؛ كل ليلة تأتيــه أمــه في الحلم، فيستيقــظ أحيانًا في منتصــف الليل على صوتهــا، ويشعر كأنهــا تلاطف أخته الصغــيرة، وهي تنشد لها أغــاني المهد حتى تنام. لكن عندمــا كان يعود إلى نفسه، يدرك أنــه في خيمة تلك المرأة العربية، وأن الصوت صوت ماجدة التي تهدهد رضيعها البكّاء، وتنشد له كي يهدأ وينام.

لم تكــن ماجدة امرأة سيئة. صحيــح أنها لم تكن أمه، لكنها ليست سيئة. في الأيــام الأولى كانت كثيرًا ما تصرخ وتصيح في وجهه لأي سبب وذريعة، وأحيانًا تلطمه بيدها الثقيلة على رقبته. كانت تتخذ من أي سبــب ذريعة للصراخ، فيرتجف حيثما كان. لم تكن لترحم حتى ابنتها، فإذا صودفت مائدة بقربها، أمسكت

بشعرهــا، ولفته حول معصمها فيُسمــع صراخها من بعيد. لكن مع تقدم الوقت ومرور الأيام، فهم سالم أن ما تفعله إنما بسبب اختفاء زوجها وائل، وأنها تكرهه لهذا السبب أيضًا، فهي تعتقد أن شعبه هم الذين سلبوها زوجها، لأنه اختفى في بلادهم.

في الأيــام الأولى لقدومــه، لم تكـن تسمـح لـه بالنـوم قرب الخيمــة، بل كانــت تأخذه إلى قــرب الحظــيرة، وتربطه بنخلة هنــاك، وتضع بقربه كأسًــا من الماء، ثم ترمقــه بنظرات مليئة بالكــره والغضب. لكن فيما بعد تبدل سلوكهــا شيئًا فشيئًا؛ فلم تكــد تمضي شهور عدة بعد شرائه حتى سمحت له بأن يأتي إلى داخل الخيمة، ويتمدد هناك عند بابها، حيث قربة الماء وكؤوس الفخــار. في البداية كان سلوكهما يوحــي بأنهما يتبادلان الكره، في حــين أن كل واحد منهما يحتاج إلى الآخر، ويجب أن يتحملا بعضهمــا بعضًا، لكن سلــوك ماجدة قد تبــدل، وأصبحت أكثر رحمةً وعطفًــا، خصوصًا، بعد تلك الليلــة الباردة، حيث دخلت لسعة الصقيع إلى الخيمة، بينما هو نائم قرب الباب، مكوّر على نفسه، مثل الشّاة، يرتجف من شدة البرد. في تلك الليلة، أخذت ماجــدة غطاء من وبر الإبل، وضعتــه على جسد الفتى، وتمتمت بكلمــات لم يفهمهــا؛ لكن صوتها كان يوحــي بالأمومة، ما جعله يتذكــر أمه للحظات. لكن بعد ذلك اليوم أيضًا، لم تتبدل نظرة كل منهما إلى الآخر.

كان ســالم يعلم أن جهــل ماجدة بمصير زوجهــا – أحيّ هو أم ميــت– يضاعــف من قلقهــا واضطرابهــا؛ لقــد أدرك ذلك

من كلامهـا وحركاتها، خصوصًـا بعد أي شجـار أو سباب؛ إذ كانت تجلس في زاويـة الخيمة، تلطم خديها وتخدشهما، وتدعو على نفسهـا وعلى أبنائها، وتنوح وتبكي علـى مصيرها، وتشكو تشردها، وكأنها في مأتم.

بينما كان سـالم شاردًا في أفكاره، وإذا به يشمّ رائحة دخان من بعيد. وقف، قوّم ظهره، ورفع رأسه، وإذا به يرى دخانًا غليظًا يتصاعـد من حيّ بنـي أسد؛ مشهد جعله يقطّـب حاجبيه. كان لهب النار يرى عند الغروب من بين الدخان المتصاعد، وينغمس في قلب الظلام كل لحظة أكثر فأكثر. أسرع سالم الخطى. كانت الريـح تهبّ فتزيـد لهيب النـار، وتوسع من دائـرة الحريق. لم يعـرف كيف استطاع أن يخرج نفسه من المستنقع إلى البرّ. كان الضجيـج هناك يملأ حيّ بنـي أسد؛ النسـاء يصحن ويولولن، والرجـال يركضون بكل اتجاه. في وسط هذه الجلبة، رأى مائدة تركض نحوه وهي تصرخ. كان كيس القمح على ظهره يتمايل بكل اتجاه، ويشتّت تماسكه واعتداله، فيأخذه يمينًا وشمالاً.

- سالم! ساعدنا يا سالم.

شحب وجه سالم، فوجه مائدة غارق بالدموع.

- ماذا جرى؟

-النار! النار! إنه عبد الرحمن!

ركض سالم، وعبر بـين العرائش والسقائق. كان هناك رجل يحـاول أن يهدىء مـن روع حصانه الفزع. أمـا الحصان فكان واقفًا على قائمتيه الخلفيتين، يدور حول نفسه، ويصهل صهيلاً

عاليًا، بينما قائمتاه الأماميتان ترفّان مثل أجنحة الفراشة. كان صهيله مرعبًا. غير أن صوت الرجل كان يفزع الحصان أكثر.

- مائدة! ما الذي جرى؟

لم تستطع الفتاة أن تنطق بحرف، انعقد لسانها من شدة الخوف. كانت تبكي فقط، وتشير إلى النار، وتنادي باسم أخيها، عبد الرحمن!.

وضع سالم كيس القمح بجانب حجر على الأرض، وطلب من مائدة أن تجلس فوقه، ولا تتحرك حتى يرى ما الخبر.

كانت ألسنة النار تتطاول عاليًا. لقد بدا اللهب في عتمة ذلك الغروب مخيفًا، فألسنة النار المتصاعدة من أعواد القصب الجافة تلتفّ وتدور وتصعد إلى عنان السماء، وأجيج احتراق القصب يختلط مع دخان وبر الإبل الممزوج برائحة اللحم المحترق. كانت النار تتلوّى، تهبط وترتفع، وتشبّ نحو العرائش، فتصبح أعواد القصب الصفراء، في لمحة، سوداء قاتمة، ثم تنغمس في وسط الدخان، فيستعر اللهب مرة أخرى، ويتساقط العريش متداخلًا في بعضه بعضًا، ويسمع أجيج النار وهجيجها، وتعلو ألسنتها وتستعر. عرف سالم صوت ماجدة، من بين بكاء النساء، وهي تنادي طفلها. على مسافة ليست ببعيدة، بضع نساء تحلّقن في مأتم حول جنازة نصف محترقة، وهنّ يخدشن وجوههنّ، وينُحن ويصرخن. كان المشهد مزدحمًا، اختلط الرجال بالنساء، كان الجميع يهرعون يمينًا وشمالًا، لكن أحدًا منهم لم يستطع فعل أي شيء؛ فالنيران مهيبة ومرعبة وحارقة.

لم يكـن أحد ليملك الجرأة علـى الاقتراب. غير أن نواح النسوة وصراخ الرجال الذيـن راحوا يهرولون في كل اتجاه، قد زاد من خوف الأولاد.

أدار سـالم بصره، وراح ينظر يمنة ويسـرةً، فلم ير ماجدة. كان يسمـع من خلف جـدار اللهب صراخًا. لقـد التفّت النيران وأحاطـت بالعرائش مثـل الحلقـة، وراحت تلتهمهـا واحدة تلو الأخرى. كانت تلتهم كل شيء كأنها ثعبان.

– لقد علقت النساء والأطفال هناك.

– فليرحمهم الرب.

– ألا يوجد أحد يذهب فيساعدهم؟

سمـع سالم صوت ماجدة مرة أخـرى. إنه صراخ المرأة، كان يأتـي من خلف جدار اللهب. تقـدم سالم، وتخطى جموع الناس بصعوبـة. كان شديد القلـق على ماجـدة. راح يتفحص بعينيه البنيّتين الثاقبتين أطـراف أشعّة اللهب، لعلّه يرى ماجدة؛ لكنه في وسط ذلك الضجيج، لم يرها، ولم يعد يسمع صوتها.

– لو أن الماء موجود.

– ليتنا لم نجفف المستنقع.

– في الخلف، هناك، علقت امرأة وطفل في النار.

– من فعل هذا؟

– مـن يفعـل هـذا؟! إنه أحـد هـؤلاء المجوس؛ عبـدة النار، الأنجاس!



– كان يجب أن لا نسمح لهم بدخول الكوفة.

– لا تحكم بهذه السرعة يا أخي. يقولون إن النار بدأت من بيت أم خالد.

– هي لا تملك خادمًا.

–ماذا تقول؟! أنا أقول إنه من فعل هؤلاء المجوس الأنجاس. ألا ترى الحقد في أحداق عيونهم؟

لم يكن سالم يسمع شيئًا وسط هذا الضجيج. لقد هز وجوده الخوف والقلق؛ فهو ومنذ أن وضع ثوب زوج ماجدة الطويل على جسده، ما فتئ يسمع كلام الرجال العرب، ليلًا ونهارًا؛ عَبَرَ بسرعة، وتوجّه إلى الناحية الأخرى، حيث توجد نساء عدة ينتحبنَ ويبكين. هناك رأى مائدة تشير إلى النار. لقد تركت كيس القمح.

– أين أمك؟

– ذهبت لتخلص عبد الرحمن.

في هذه اللحظات، سمع سالم نباح الكلب. رأى ذلك

الحيوان يثب ويخرج من بين ألسنة النار. التفت الكلب إلى جموع الناس وراح ينبح، ثم وثب مرة أخرى ودخل في النار واختفى فيها.

– مسكينة ماجدة! في المرة الأولى زوجها، وهذه المرة هي نفسها.

اضطرب سالم وتغيّر لونه، ثم ركض في الاتجاه الذي ذهب فيه الكلب.

– أيها الفتى! لا تذهب. هناك خطر.

في تلك اللحظة، هبت ريح بغير اتجاه، فلوت ألسنة النار ودفعتها إلى تلك الجهة. كان الكلب ينبح كأنه يطلب النجدة. عندئذٍ شقّ سالم ثوبه ليتمكن من التحرك بشكل أفضل، ثم وثب فوق جدار النار، قاصدًا الجهة الأخرى، وغاب بين الدخان والنار وسط صراخ الناس وصيحاتهم، ثم توجه حيث يُسمعُ صوت نباح الكلب. كانت الريح كالمجنونة تدفع النار يمينًا وشمالاً، صعودًا وهبوطًا، بينما لهيبها يلفح وجهه، وهو يحاول صدها بساعديه، ويتترّس خلف يديه. عندما وصل، كان الكلب قرب شجرة النخيل، وهو يدور حول ماجدة. كانت المرأة تحتضن طفلها إلى صدرها بقوة، وقد احترقت يداها ورجلاها. إنه لشيء أكيد، فليس غريبًا أن تفدي طفلها بنفسها!

– هيا، قومي!

– لا أستطيع.

- سوف تستعر النار أكثر.

- أنقذ عزيزي يا ولدي!

انهار البغض الذي كان يسكن حنجرة ماجدة دفعة واحدة. فلأول مرة تناديه «يا ولدي». رفعت ماجدة بكمّيها المحترقين ولدها المذهول «عبد الرحمن» ودفعته باتجاه سالم.

- لا! سنذهب معًا.

عندما رأى سالم أن أنفاس ماجدة لا تخرج من صدرها إلاّ بصعوبة، راح يتلفت حوله بين ألسنة النار، فوقع نظره على قربة ماء. كان جلدها المبتل بالماء يلمع تحت ضوء النار، هرول إليها مسرعًا، وجدها مليئة بالماء، قطع رباطها بأسنانه، وأخذ يصّب الماء في كفه ويرش به وجه المرأة. لم تمض برهة من الزمن حتى شهقت ماجدة، وأخذت نفسًا عميقًا، وبدت كأنها استيقظت من نوم عميق. كان الخوف الشديد ظاهرًا في عينيها، بينما الكلب لا يزال يدور وينبح بقلق.

- يجب أن نذهب.

أمسك الفتى بعضد المرأة، وساعدها حتى تنهض.

- لا! اذهب أنت وخذ معك عبد الرحمن.

أخذ سالم قربة الماء، وسكبها على ماجدة وطفلها، ثم بلل ثيابه.

- إذا لم تحرقنا النار، فإن دخانها سوف يخنقنا.

تنحنح سالم، ثم أخذ عبد الرحمن، وأمسك بيد المرأة. كانت



ماجدة تمشي
وتغمز برجلها. لا
شيء يُرى من خلال
النار والدخان. كان
الكلب يتقدمهم، يسير
بين فجوات اللهب، ثم
يعود أحيانًا، فينبح ثم يرجع
ويتقدم.

كان سالم يحاول أن يتنفس
بهدوء، لكن ماجدة ذهلت وبدت
في عينيها الدهشة، وكلما تقدمت
خطوات، كانت ترجع وتنظر إلى خيمتها؛
لقد أحرقت النار كل حياتها، وأخذت منها كل
شيء. كانت جمرات النار المضيئة تشتعل بسهولة
مع وبر الإبل والسمن واللحوم المحترقة.



ما إن عبروا جدار اللهب حتى التهمت النار كل شيء. لم يبق سوى قبضة من الرماد. كانت النار تجمع نفسها، وتبتلع العرائش القريبة من خيمتهم. التفت سالم بطرفه إلى الوراء؛ لو تأخروا قليلاً عن التحرك، لقُضي عليهم. أوصل سالم المرأة إلى جهة النساء بشقّ الأنفس. كانا يسيران باتجاه الناس كأنهما ظلّان في عتمة الليل، بينما الناس ينظرون إليه بتعجب وذهول، وهو خارج من بين النار والدخان، يحمل طفل ماجدة، ويضمه إلى صدره.

ما إن رأتهما مائدة حتى ركضت إليهما، وأخذت عبد الرحمن من سالم.

مع مرور الوقت، راحت النار تبتلع ألسنتها بالسرعة نفسها التي اشتعلت فيها. كان الليل قد أُشبع برائحة سعف النخيل، ووبر الإبل والغنم، ونواح النساء. حتى تلك الساعة لم تكن ماجدة لتصدق ما جرى؛ كانت عيناها لا تزالان مسمّرتين نحو الجمرات التي تختال (متوهّجة) بفعل هبوب الريح، وهي تداعب رأس ابنتها مائدة. لم يبق لديها شيء؛ لا منزل، ولا زوج، ولا أحد يواسيها في وحدتها هذه، سوى سالم الذي أنقذ حياتها من الموت.



لولا هذا الفتـى العجميّ لما كنت أنا وطفلي في عداد الأحياء، يا أبا سعيد!

نظـر الرجـل العجوز نظـرة إعجـاب إلى سالم، الـذي كان مشغولاً في الجانـب الآخر من كومة التراب، يدقّ الطين برجله، وقد بدت فوق شفته خطوط من الشعر الناعم.

يظهر من ملامح وجهه أنه ابن عائلة كريمة.

كان الفتى الفارسي يطلب من عبد الرحمن أن لا يذرّ التراب في الهـواء، لكن عبـد الرحمـن لم يتوقف، بـل كان يعبث أكثر، فيرمي التراب عاليًا، وتأخذه الريح ناحية سالم.

– الفتى عفيف وعطوف، يا عم!

– من المؤسف أن يكون عجميًا!

هـزت ماجـدة برأسهـا ولم تقـل شيئًا. تقدمت نحـو الرجل لتناولـه وعـاء الطين الذي كان على رأسهـا، وهي تقول: « كانت علامـات النجابة ظاهرة عليـه منذ ذلك اليوم الـذي اشتريته فيه».

– لعلّـه كذلك! لكنه في النهاية عجمـيّ، لا تجري فيه الدماء العربية.

- مـا هذا الكلام أبا سعيد؟ صحيـح أننا على دين الإسلام، بينما هم على دين آخر، لكن جميعنا من البشر!.

ضحـك الرجـل العجوز وتنـاول وعاء الطين، ثـم التفت إلى شجـرات النخيل الواقعة ناحيـة المستنقع، وقال: «على كل حال، هـو أعجمي وغريـب عنا وعن ديننـا». قال ذلـك، وأخذ قبضة من الطين ومسح بهـا اللبنات الرطبة، ثم نظر إلى وجه ماجدة الأسمر المتعـب، وقد جفّت بقع الطين على أنفها وجبينها، وتابع كلامه: «صحيح أن الإسلام يقول شيئًا آخر، ويعدّ التقوى معيارًا، لكننـي عربيٌّ وأنا أفتخر بماضيّ». ثم أضاف وهو يشير بإصبعه المغطّاة بالطين إلى سالم: «كما الكره الذي يملأ عيون هؤلاء».

-لكنه يختلف عن البقية، إنه مثل الملائكة.

- عندمـا يكبر سيختلـف كل شيء. انظـري إلى ولدك كيف يلعب معـه؛ لكن عندما يدرك أن هذا المجهول غريبٌ، ويعلمُ أنه على دين آخر، سوف يتبدّل سلوكه حتمًا.

-سـالم يحب ديننا، أنا أدرك ذلـك عندما ينظر إليّ وأنا في الصلاة، حتى أنه...

-مهمـا يفعلون! إنه جنسكنَّ أنـتّن النساء، جنس أموميٌّ منذ الأزل.

انحنـى الرجـل المسـنّ، وتنـاول لبنـة وصـاح: «أيهـا الفتى الفارسي! اجلب اللبنات».

رفـع سالم رأسـه. كان مشغولًا بأخذ الطـين بكفيه وصبه في

القالب، ليصنع منه لبنات من الطين.

كان الرجل يعلم أن الفتى يصغي بأذنيه الصغيرتين الحادتين إلى كلامهما. أما ما المقدار الذي يفهمه، فهذا كلام آخر. لكنه فهم من حركاته أنه يستمع إليهما بكل جوارحه.

صاح العجوز مرة أخرى: «أيها الولد العجمي! اجلب لي أنت وعبد الرحمن بعض اللبنات الجافّة. لا أريدها رطبة مثل سابقاتها».

وقف سالم، وتوجه نحو اللبنات المصفوفة فوق بعضها بعضًا، وضع واحدة فوق عضدي عبد الرحمن، وحمل بنفسه ثلاث لبنات، وضعها فوق بعضها بعضًا. كانت اللبنات ثقيلة ولا تزال رطبة قليلًا – إنهم مجبرون على بناء مأوى لهم قبل حلول برد الشتاء. تقول ماجدة إنهم سيشعلون نارًا داخل الجدران حتى تجف بسرعة– وضع سالم لبنات الطين على الأرض، أحسّ بنظرات المسنّ الثقيلة مسلطة على كتفيه، أراد

الذهاب ليجلب حملًا آخر، فنادته ماجدة:

- تعال يا سالم! اشرب كأس الحليب هذا لتستعيد نشاطك.

قال الرجل بتهكّم: «تتصرفين وكأنه ولدك!».

- ولدي! لولاه لما كنا الآن على قيد الحياة.

مسح الطين عن لحيته الطويلة وقال: «لقد تناهى إلى مسامعي تلك الشجاعة التي ظهرت منه ذلك اليوم! لكن بكل الأحوال، مهما فعل فإنه ليس منا».

التفّ سالم حول الجدار. لاحظ أن فيه بعض الاعوجاج، وأن لبناته منحرفة قليلًا إلى الداخل والخارج. لكن في النهاية لا يوجد شخص آخر يساعدهم سوى جارهم المسنّ هذا. تقدم سالم باتجاه ماجدة، كانت تضع قربة الحليب على قدمها، وقد تمدد حليب الإبل الأبيض داخل الكأس الخشبيّة راسمًا على حوافها خطوطًا بيضاء. كانت الكأس مزينة بخطوط حمراء كالخيام، وضعتها ماجدة لتبدو جميلة. مدّ يده ليتناول كأس الحليب، لكن ماجدة قالت له ووجهها متجهم: «اغسل يديك أولًا، حتى لا يسقط الطين في الحليب».

تبسم سالم عندما رأى وجه ماجدة المتجهم قد انقلب إلى بسمة جميلة ارتسمت على شفتيها، ثم انطلق إلى حفرة كانت ناحية الجدار، أدخل يديه في مائها العكر حتى وصل الماء إلى مرفقه، غسل يديه وأزال الطين عنهما، ثم عاد. كانت ماجدة تنتظره وفي يدها كأس مليئة بالحليب. بدت قامتها طويلة ونحيلة، تمامًا مثل أمه. لكن عينيها كانتا مختلفتين، فلونهما

أكثر سـوادًا، وحدقتاهما أكثر اتساعًا. تناول سالم الحليب وهو يبتسـم. الحليب بارد وطيـب، لقد أثلج قلبه، تنـاول قليلًا منه، وبحركة من شفتيه عبّر بها أنه لذيذ. عندما تناول الحليب لأول مـرة، لم يستسغـه، لكنه فيمـا بعد اعتاد على شربـه. أما اليوم فإنـه يظـنّ أن لا شراب في الدنيـا أفضل من حليـب الإبل. لعق شفتيه وهو يفكر؛ هذا الحليب يمنحه قدرة أكبر ويمدّه بالطاقة حين يعمل. راح سالم ينظر في قعر الكأس، بدت السماء الزرقاء وغيومها الرمادية من خلال ما بقي فيها من الحليب القليل، ثم رفع الكأس وشرب ما بقي فيها دفعة واحدة.

سألتـه ماجدة: «أتريد أكثر؟ ما زال هناك المزيد منه». أشار سالم برأسه؛ لا. ثم ناولها الكأس الفارغة.

ملأت ماجدة الكأس وأعطتها لابنتها، وطلبت منها أن تشرب النصـف فقط، وتعطي نصفها الآخـر لأخيها عبد الرحمن. ثم عقدت ربـاط القربة، ووضعتهـا جانبًا. بعد ذلـك توجهت نحو الرجل العجوز، أخذت منه كأسه الفارغة وأدخلتها إلى الخيمة.

رجع سـالم إلى لبنات الطين، حمل عددًا منها، ثم توجه إلى الجدار المعوج. تناول العجوز اللبنات منه وقال: «تقول أم الفضل إنك عصاها التي تتوكأ عليها، يا ابن العجم!».

كانت الكلمة الأخيرة مزعجة، قالها بطريقة لم تعجب سالمًا، غير أنه لم ينطق بكلمة واحدة. ناوله اللبنات ورجع بهدوء. وضع الطـين الذي جهـزه مسبقًا فوق جلـد من الماعـز، وحملها فوق ظهـره، وجلبهـا إليه. تناول الرجل قبضة مـن الطين ومسح بها

الشقــوق التي كانــت تظهر بين لبنات الجدار الأعــوج، فسدّ بها فجــوة بين لبنتين. ثم التفــت إلى الفتى وقــال: «كيف دارت بك الأيام ووصلت إلى الكوفة وأنت بهذه السن؟ كنت أسيرًا؟».

رجــع الفتى لجلب اللبنــات ولم ينبس ببت شفــة، لكن المسنّ تابع كلامــه: «هل جميع العجم مغــرورون إلى هذا الحد؟!». ثم ضحك، وقــال: «لديكم الحق. فبلادكــم المترامية الأطراف قد تمزقــت تحــت سنابك خيولنا». ثــم تنحنح وتابع قائــلاً: «يقول رجل من قبيلة مُضر إن ملككم فر إلى الجبال، ولا أحد يعلم عنه شيئًا، لعله قتل أيضًا. ما كان اسمه؟ ها... تذكرت: يزدجرد».

كان الرجل يلهث وهو يضع لبنة فوق أخرى، حتى ظهر انتفاخ كبير في الجدار، وبدا أنه سينهار عمّا قريب.

لكــن المسنّ كان يتكلم، وهو يمسح أطراف الجدار بالطين: «لا يُعمــر بيت حتى يخرب بيت آخر». ثــم تابع بازدراء وقد ارتسمت علــى جبهته خطوط عدة: «لملككم اسم عجيب، لكن الأعجب منه هــو أنت». بعد ذلك انحنى وهو يقول بصوت خافت: «كيف دخلت إلى قلب هذه المرأة من قبيلة بني أسد؟ إنها تحبك أكثر من ولدها».

لمعــت عينا سالم وتلألأتا فرحًا من كلامــه، لكنه بقي صامتًا. تناول لبنة وأراد أن يفتح فمه ليقول شيئًا، لكن ماجدة وصلت فجأة وقالت: «أنت يا سالم! اذهب واصنع أحجار الطين، وأنا سأناول أبا سعيد اللبنات». ثم أدارت رأسها نحو مائدة وهي غاضبة: «مائدة! اجمعي تلك الأخشاب وضعيها بالقرب من الكلب».

كان سالم يريد أن يقول للمسنّ: إذا أكملت بناء الجدار على

هذا المنوال فسوف ينهار، لكن ماجدة طلبت منه أن يذهب، فبلع سالم ريقه، وتجمد الكلام في فمه، وعاد إلى الطين.

– هذا المخلوق عجيب؛ غلامك الذي اشتريته!

– ماذا جرى، يا أبا سعيد؟

– لا يفهم لغتنا أو أنه...

– سالم قليل الكلام.

– لكنه يتحدث جيدًّا إلى ولدك، ويضاحكه ويمازحه.

– لقد تعلم لغتنا. إنه يفهم جيدًا، غير أنه قليل الكلام. عندما نكون وحدنا فقط يتحدث عن أبيه وأمه، وعن الماضي و...

– لم يكن محاربًا، أين أُسر؟

– المسكين! كان والده بائع تمر في النهروان. إنه قلق كثيرًا على أبيه وأمه.

– أليسا أسيرَيْن؟

– لقد ذهبنا مرات إلى السوق؛ كلما جاؤوا بأسير، أو أتى أحد من بلاد بعيدة، كنا نذهب إلى السوق، لكننا لم نعثر عليهما، ولا خبر عنهما.

ثم توجهت إلى وعاء الطين، نقلته من مكانه وهي تقول: «ألا يبدو هذا الجدار مائلًا؟».

ضمّ المسنّ شفتيه ضاحكًا، وقال: «إنه أكثر استقامة من جدار الخيمة، انظري جيدًا».

– لكن هذا يختلف عن الخيمة، يا أبا سعيد!

– لا فرق بينهما، المأوى مأوى.

لم تقل ماجدة شيئًا، تأوّهت فقط، ثم تابعت حديثها عن الفتى: « كان يعيش مع أهله في النهروان، لكنه يقول إنهم ليسوا من هناك. إنه يتحدث عن بلاد عجيبة، جبالها شاهقة ومكسوة بالثلوج، والربيع فيها مفعم بالزهور والأشجار المختلفة الأشكال والألوان. هل تصدق ذلك؟

–لا بدّ أن الفتى قد رأى الجنة في منامه.

– لعله جاء من الجنة أيضًا؛ إنه طاهر مثل الملاك.

قلبت المرأة يديها وأرته الحروق الظاهرة عليهما، وقالت: «من أي مكان جاء! فهو ملاك نجاتي ونجاة ولدي».

– لكن الكلام بهذا الشكل عن عبد أعجمي ليس صحيحًا!

التفتت ماجدة إلى سالم، وراحت تنظر إلى منكبيه العريضين كيف يتحركان بقوة وهو يقلب أحجار الطين، وينقلها من مكان إلى آخر، وقالت:

– ألا تذكر الحريق الذي حدث قبل عامين؟

– يقولون إنّه من فعل هؤلاء الأعاجم.

– أنت أكثر من يعلم أن النار خرجت من تنور أم خالد.

– على كل حال هذا الفعل قد كتب في صحيفتهم.

– تلك العجوز المسكينة! هي ليست مقصّرة أيضًا، كانت تريد أن تعدّ وليمة لقدوم ولدها.

– لقد رحم الله قبيلة بني أسد، ولم يمت أحد منها.

تأوهت ماجدة ولم تقل شيئًا.

– لماذا لم تفري عندما رأيتِ النار؟

– أردت جلب بعض الأمتعة. فكرت حينها أن النار بعيدة، فأين النار من عريشنا؟ لكن الريح كانت تهب بشدة، فتجعل النار تدور كالحلقة، وتحمل معها أعواد القصب المشتعلة، فسقط بعضها في عريشنا، وما إن التفتّ إلى نفسي، حتى وجدت النار قد أحاطت بي من كل جانب كأنها الجحيم. لكن حارسنا لم يتركنا وحدنا، كان يدخل إلى وسط النار ثم يعود. الكلب هو من أخبر سالمًا بوجودنا وأرشده إلينا. كان يدور حولنا وينبح نباحًا عاليًا. لقد وصل بي الأمر أن قطعت كل أمل، لم يعد باستطاعتي أن أتنفس، حتى ظهر سالم فجأة.

تناول الرجل لبنة، وضعها فوق الجدار. كانت اللبنة ثقيلة، لم يستطع وضعها في مكانها المناسب، اهتز الجدار، فرفعها بيديه، ونظر بطرفه إلى سالم. كان يفكر بحاله (كم كان جيدًا لو أن له ولدًا أو عبدًا مثل هذا الشاب يعينه في كبره)، ثم التفت إلى ماجدة وقال لها: «لهذا السبب أنتِ تعطفين عليه إلى هذا الحدّ!».

أرادت المرأة أن تقول شيئًا، وإذ بها تصيح «انتبه يا عم! الجدار! الجدار!...». اهتز الجدار بشدة، ثم انهار إلى الأرض. أما المسنّ فلم يستطع أن يسحب نفسه إلى الخلف، وراح يتمتم ويشتم نفسه، بينما يئن ويفرك كاحله ويقول إن بناء البيوت ليس عمله.

وقف الجميع ينظرون إلى أحجار الطين المهشمة بدهشة

وتحـير. بـدا الرجـل مصدومًـا، أمسـك دشداشتـه، ورفعهـا منزعجًـا. كانت الدماء تسيل من قدميه، وهو يئن ويولول ويكيل الشتائـم للعجـم. ثم طلب مـن سالم أن يعينه حتـى يذهب إلى خيمته. توجه سالم نحو ماجدة وهو منزعج. كانت المرأة مسمرة في أرضها، وقد انقبض جلدها المتجعد من شدة الاضطراب، لم تصدق ما حدث. كان الوحيد عبد الرحمن يركض ويصيح فرحًا «لقد خرب... لقد سقط الجدار... خرب البيت». ثم ركض نحو الجدار وقد أصبح كومة من الطين المهشم، لكن ماجدة صاحت بـه أن يصمت. تقدم سالم من الرجـل، أمسك به وساعده حتى يقـف علـى قدميه، وهو يفكر ويقـول في نفسه: يجـب أن يبدأوا العمل من جديد لكن هذه المرة بأنفسهم.



رجل من العجم قتل الخليفة وفرّ هاربًا.

- منــذ اليوم الأول كنــت أقول لا يجب أن نثــق بحمر الوجوه أولاء.

- من هو الخليفة التالي يا ترى؟

- سمعت أن الخليفة عيّن قبل موته «شورى»، على أن ينتخبوا واحدًا منهم.

كان الحديث عن مقتل عمر في كل مكان؛ الخليفة الذي طعنه رجل فارسي بخنجره عند الفجر، ثم فرّ تحت جناح الظلام.

كان ســالم يسمع أحاديث النـاس، وهو يحمل سلة التمر على كتفــه، متنقــلًا يبحث عــن مشترٍ لتمــره. كان العــرب يتحدثون بأسلــوب جعــل الفتى يخــاف، ناهيك عن نظـرات عُيُونهم التي تثقـل كاهله، وهــو يرى الإحساس بالكراهيــة في عيون بعضهم. كانت خطواتــه بطيئة، يتنقل طالبًا مشتريًــا لتمره الذي أعطته إياه ماجدة ليبيعه.

- لا تَصُحْ عاليًا أيها المجوسي القبيح!

- لكني مسلم.

-هاها... مسلم! لا شك أن القاتل الظالم الذي طعن الخليفة





قــرب مسجــد النبيّ كان مسلمًــا أيضًا! هيا ارحل مــن أمام دار الإمارة.

أســرع ســالم الخطى، وعبر بالقــرب من العمــال والبنّائين؛ كانوا منهمكين ببناء سور عالٍ لدار الإمارة. أكثر العاملين كانوا مــن ذوي البشرة السوداء. كان سالم يعرف البنائين الفارسيين منهــم. كانــت مجموعــة من العمــال يدقــون الطــين بأرجلهم، وهنــاك آخــرون يحملون لبنــات الطــين الثقيلة علــى أكتافهم، والعــرق يتصبــب من جباههــم وهــم ينقلونها إلى بنّــاء ضخم الجثــة. كان البنّاء يقف على «سقالة» من الخشب، ويصيح بهم حتى لا يتكاسلوا، ويتابعوا عملهم من دون تلفّت أو لهو. مرّ سالم بالقــرب منهم، فتقــدّم عامل طويل القامــة، نحيل الجسم، مد يــده وتناول تمرة ووضعها في فمــه، فالتفت سالم على صوت فم الرجــل وهــو يمضغ حبة التمــر، ورَمقه بنظراتــه، فتقطّب وجه العامــل، ثم ضحك ضحكــة ازدراء واستهزاء، لكنــه ما لبث أن عاد إلى وسط الطين حين سمع صراخ البناء، واستأنف عمله.

أكمــل سالم طريقه، وتوجــه إلى سوق الأحذيــة. وقف يتأمل الأحذيــة الخشبيــة والجلديــة، وهــي مُعلقــة ومتدلية مــن أحد الأعمدة. أما الأحذية المصنوعة من ليف النخيل فكانت مكومة في زاوية من زوايا الدكان. نظر سالم إلى صندله القديم المتهالك؛ كان تــراب الزقاق الحــار يؤذي أصابع قدميــه الصغيرة. بينما هــو واقف أمام الأحذية، وإذ بفارســ ملثم يمتطي حصانه يمر على مرمى من بصره. مضى الفارس مسرعًا، وتوجه نحو الباب

الخشبيّ الكبير لدار الإمارة، ثم لحق به من كان في الأطراف من العرب. حتى أن بائع الأحذية مدّ عنقه ليرى ما الأمر! أما العمال فتوقفوا عن عملهم، ولم يعيروا أيّ اهتمام لصراخ البنّاء، وقفوا يريدون معرفة ما الخبر الجديد! تقدم الجنود وهم يحملون رماحًا حادّة تلمع تحت أشعة الشمس، ثم راحوا يبعدون الناس من حول الفارس. فكر سالم قليلًا وراح يحدث نفسه؛ ما الذي يربطه بمقتل الخليفة؟! لماذا يهتم للأمر؟ ثم اتخذ طريقه واتجه نحو سوق السمك. كان يفكر ويضحك.

كانت ماجدة قد تقدمت بالسّن، وأصبحت أكثر رحمة وعطفًا، خصوصًا، بعدما يئست من العثور على زوجها. يقول بعض الناس إن نهر دجيل الكبير[1] قد فاض وطغى عن حده، فأخذ معه عددًا من الناس إلى البحر. اللّه وحده يعلم إن كان زوجها من بينهم أم لا! على الرغم من ذلك، كانت ماجدة إذا حلّ الليل تنام قرب الباب، وتهرع خارج الغرفة مع كل صوت صغير.

مسح سالم العرق عن جبينه، ونقل سلّة التمر إلى كتفه الأخرى، ثم أسرع الخطى وهو يفكر؛ يجب أن يبيع التمر قبل حلول الغروب. مهما يكن، فهو ابن بائع تمر، ويعلم جيدًا ماذا عليه أن يفعل. لكن في الأيام الأخيرة التي شاع فيها أنّ رجلًا فارسيًّا يدعى «هرمز» قتل الخليفة، لم يكن أحد من العرب ليشتري منه التمر، كما أنهم صاروا ينظرون إليه بكراهية،

1- هو نهر كارون حاليًا.

ويشتمونه إذا نادى على تمره. وهذا ما كان يقلقه بشدة.

– يجب أن لا نسمح لحمر الوجوه هؤلاء بالتردد إلى أي مكان يريدون.

– أنــا قلق جدًا على زوجتي وأطفــالي؛ فهل من يقتل الخليفة يرحم عيالي؟

– الحقد ملأ قلوبهم.

– نحن المساكين! الأفعى في أكمامنا، وقد غفلنا عن لسعاتها.

– هؤلاء «العلوج»[1] إنهم وحوش تمشي على أقدام.

– مــاذا تقول يا بكــر؟ أنت أفضــل من يعلم أن عــددًا كبيرًا منهم مسلمون...

– لا قيمة لإسلام هؤلاء القباح الحمر الوجوه.

قــال رجــل متوسط العمر منهــم، وقد سطعــت الشمس على وجهــه العريض القــاتم، وبدا عليــه الغضب: «أنــا لا أفهم هذه الأشياء. لقد ظهر الرســول بيننا نحن العرب. أما هؤلاء فمهما ادعوا الآن أنهم مسلمون، بالنهاية هم من العجم وعبدة النار».

كان الرجــال العــرب يتصايحــون بــين السوقين. مــرّ سالم بجانبهــم، وأسرع إلى سوق السمــك. كان السوق الوحيد المظلّل بسقــف. مــا إن دخل الســوق حتى ارتجفــت أرنبة أنفــه، وشعر بالغثيــان؛ كانت رائحة السمك كريهة جدًا، حاول العبور بجانب

1- جمع علج وهو حمار الوحش السمين. ويقال علج لكل شديد غليظ من الرجال (المنجد).

حفرة مليئة ببقايا السمك المختلط بالماء والطين. بدت الأسماك كأنهـا تنظر إليه بعيونها المفتوحة المتلألئة، وهي تفتح بعضًا من أفواهها، فيما أذيال بعضها ما زالت تتحرك.

-أيها الشاب! أتريد السمك بدلًا من التمر؟

وقـف سالم للحظـة، ثم رجـع إلى الوراء قليـلًا، وراح ينظر إلى الرجـل صاحب المنكبين العريضـين. كان الرجل يتكئ على عمود مصنوع من جذع نخلة يابسة. اقترب من الرجل الضاحك وهـو متردد. بدا الرجل منحسر الشعر، كثيف اللحية، قد غطى الشعـرُ وجهه. امتلاء وجنتيـه وبروزهما يظهـران أنه فارسي. كان يقـف بجانب العمـود كأنه قطعة من الصخـر. إنه من أهل الديلمان المشهورين بأجسامهم الضخمة.

انحنى الرجل وأمسك بذيل سمكة، ثم رفعها عاليًا.

- إنها شهية مثل تمراتك. هذا إن كنت خبيرًا بالسمك!

ثـم أدار السمكة، فبانت على بطنها الأبيض خطوط من الماء الممـزوج بالدم، هـذا المشهد جعـل قلب سالم يتقطـع، غير أنه تبسم...

مد الرجل يده ليتناول التمر، فصاح الشاب:

- لا تفعل! سوف يختلط التمر برائحة السمك.

نظـر سالم حوله، فرأى بعضًا مـن سعف النخيل، أخذها ثم تناول قبضة من التمر ووضعها على أوراق النخل.

-هذه فقط!؟ هذه التميرات سوف تضيع في أمعائي.

قال جملته ثم علت قهقهته.

مد سالم يديه وتناول قبضتين من التمر ووضعهما فوق الأولى. عندها قبض الرجل بأصابعه على تميرات عدة، ودفعها إلى فمه مرة واحدة، ثم بدأ يخرج نواتها واحدة تلو الأخرى من زاوية بين شفتيه، وهو مقطب الحاجبين. فجأة لمعت عيناه، وهز برأسه معلنًا أنها شهية. تناول قبضة أخرى، ففرغت أوراق النخيل من التمر، ولم يبق عليها شيء، وسالم ينظر إلى فمه بتعجب. عندما رأى السؤال في نظرته، مد يده وتناول قبضات عدة من التمر، ورماها فوق سعف النخيل اليابس، حتى فرغت زاوية من السلة. قال الرجل وهو يلوك بفمه: «الآن صار الأمر مختلفًا». بعد ذلك توجه إلى لوح وضع عليه أسماكًا كبيرة، وتناول إحداها، وقال: «سوف أعطيك واحدة من الأسماك الكبيرة، إنها طازجة وشهية، تأخذها إلى سيدك، حتمًا سيسرّ بها. إنها أفضل أنواع سمك الفرات. لقد اصطدتها بنفسي».

بقي سالم متحيرًا لا يدري ماذا يفعل!

– تعال خذ السمكة.

– وماذا أفعل بها؟

– تأخذها إلى سيدك.

ضحك سالم، وقال: «ولكني إلى الآن لم أَبع نصف تمري».

– يمكنك أيضًا أن تأخذ سمكة أخرى.

حكّ سالم شحمة أذنه وضحك.

وضع الرجل السمكة في سلة كبيرة فارغة، وقال له: «هذه السمكة ملك لك، عندما تبيع تمرك، ارجع وخذها».

- هي أمانة لديك.

اندفع الرجل بصدره إلى الأمام، قائلًا: «أيها الشاب! أنا وأنت من بلاد فارس، فهل بيننا من خيانة؟!». ثم أراد أن يقول شيئًا، وإذ بامرأة قد ظهرت أمام الدكان، تريد شراء السمك.

لم ينتظر سالم، حمل سلته وانطلق.

- إياك أن تنسى سمكتك.

مضى سالم وهو يلوّح بيده، محاولًا أن لا تقع قدماه في الطين والدم الممزوج بالماء. كانت الدبابير والزراقط تحوم وتدخل في بقايا السمك والماء الملوث بالدم، وصوت طنينها يملأ فضاء السوق، كأنها لا تريد أن تفارق المكان. أما الذباب فقد ملأ السوق، حتى لا يكاد يخلو منه مكان. أطبق سالم على أنفه بإصبعيه، وعبر مسرعًا من أمام بائع يكاد سمكه أن يفسد، ثم انتهى إلى آخر السوق، حيث يوجد ميدان، اجتمع فيه عدد من الرجال. قال في نفسه: لعلي أبيع تمري هناك! ما إن أسرع الخطى حتى سمع صوت رغاء. لقد تجمع عدد من الرجال ينحرون جملًا. كان الحيوان يهدر والدم يتطاير من منحره، ويعلو في الهواء كالنافورة، ثم يعود إلى الأرض كالمطر، بينما الحيوان يحاول أن يقطع الحبل الذي يقيد قوائمه ليقف مجددًا، لكنه لم يستطع أن يحرك رقبته الطويلة، وبقي يهدر، ويفحص الأرض بقوائمه، بينما يفقد جزءًا من روحه كل لحظة. كان المشهد مريعًا. لم

يتحمّلـه سالم، فتابع سـيره وخرج من الميـدان. في آخر الميدان تجمع عدد من الأولاد. ما إن تخطاهم حتى تبعوه، وعندما أحسّ بهـم، أبطأ خطاه ثم توقـف والتفت إليهم. تقـدّم الأولاد نحوه. عبس بوجوههم، ودقّ الأرض برجله، ما جعلهم يهربون، إلا عدد منهم ظلّوا يحدقون به.

– ماذا تريدون؟

أطلت بنت صغيرة برأسها من وراء صبيّ منهم وقالت:

– ألا تعطينا بعض التمر يا عم؟

ضحك سالم من كلامها، وسرّ بندائها «يا عم».

– لفت نظركم بريق تمري. لكن ماذا ستعطونني به؟

لمعت أسنان صبيّ منهم أسود البشرة، لكنه لم ينطق بكلمة.

تابـع سالم سيره، وتقـدم إلى الأمام قليـلاً، ثم وقف في ظل جدار هناك.

– من منكم ناداني بكلمة «عم»؟

بقي الجميع صامتين، ولم ينطق أحدٌ منهم. لكن فتاة مجعدة الشعر، تراجعت قليلاً إلى الـوراء، واختبأت خلف ذلك الصبيّ الأسود البشرة.

– هذه أنت إذًا.

وضع سالم السلة على الأرض.

– أين الشبه بيني وبين «العم»؟.

ظهـر الخوف علـى عيني تلك الفتاة العسليتـين، وحاولت أن

تخفـي نفسها أكثر. تقدم سالم منها، فبدأت شفتاها ترتجفان. أما الأولاد فتسمروا في أماكنهم من شدة الخوف. استدار سالم والتفت إلى الأولاد الذين كانوا يطلّون برؤوسهم من الزقاق، ثم عاد ونظر إلى الفتاة نظرة توحي بالجدية:

- التمر حلو، أليس كذلك؟ لعله...

لم يكمـل سالم كلامـه. عاد مسرعًا إلى السلـة، حملها وملأ كفّه تمرًا، ثم قال: «أنت أيتها الفتاة المختبئة، تقدمي إلى الأمام لكي أراكِ».

عندمـا رأى سالم عينَي الفتـاة قد ترقرقتـا بالدموع، تقدم نحوهـا وقال: «افتحي فمك لأرى هل لديك أسنان حتى تناديني «يا عم»».

فتحت الفتاة فمها وهي خائفة.

-لا أعتقد أن لديك لسانًا أيضًا.

ثـم وضع تمرة في فمهـا، ووضع واحدة أخـرى في فمه، وهز برأسه.

- لا! كأنها حلوة!

بعـد ذلك تقدم مـن الأولاد، وطلب إليهـم أن يمدُّوا أيديهم، وراح يضـع في يد كل واحد منهم حبتـين من التمر. لم يكن أحد ليشـتري تمره. أما ماجدة فمن أيـن ستعلم ماذا فعل؟ هذا إذا قالت شيئًا، ولعلها لن تقول.

عندمـا شاهـد الأولاد الذيـن كانوا يختبئـون خلف منعطف

الزقــاق كرم بائع التمر المتجول، تدفقت الجرأة في قلوبهم، فلم تمض لحظات، حتى تجمع حوله عدد كبير منهم، وهم يصيحون ويطلبــون التمر مجانًا. عندها وضع سالم سلة التمر فوق رأسه، وأراد أن يتركهم ويذهب، لكن الأولاد لم يكفوا أيديهم عن السلة، فكان بعضهم يقفز في الهواء محاولًا التمسك بالسّلة، فيما تمكن آخرون من الإمساك بها، وراحوا يأخذون التمر منها.

- اتركوني!

- أنا ما أخذت تمرًا.

- أستحلفك بالله.

لم يكـن واردًا في ذهن سالم أن يقع في هذه الورطة، فنصف سلتــه أصبــح خاليًا، بينما هو عالــق لا يستطيع أن يفلت من بين أيديهم، فيخلص نفسه منهم. كان عدد الأولاد يزداد كل لحظة.

- ماذا تفعلون بهذا المسكين؟

مــا إن سمع الأولاد صــوت ذلك الرجل الذي خــرج من داره حتــى سكن صراخهم. رجـل يرتدي ثوبًا أبيضَ يخرج من باب داره، ويصيح بهم:

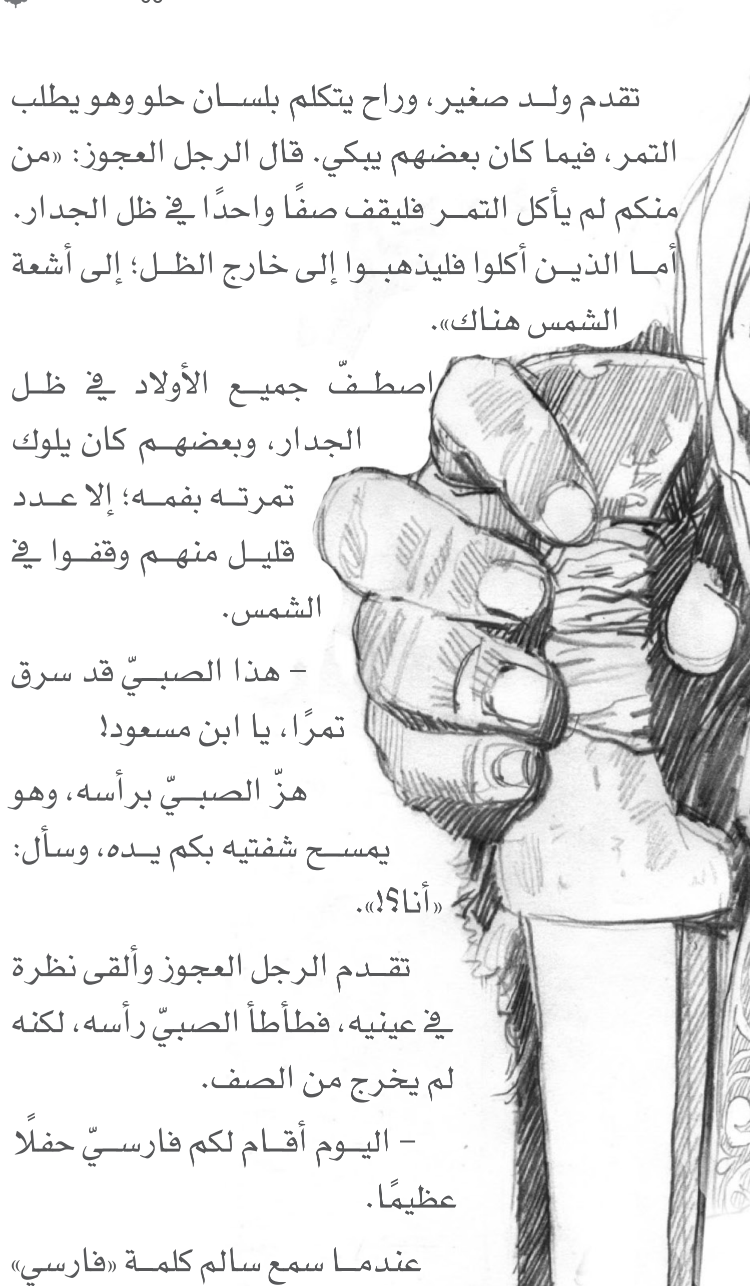
- اذهبوا إلى بيوتكم.

- الجميع قد أكلوا التمر، إلا أنا.

ابتعــد الأولاد قليلًا. كانوا ينتظرون أن يعود الرجل إلى داره، لينقضّوا مرة أخرى على السلة فيفرغونها.

- من منكم لم يأكل التمر أيضًا؟

تقدم ولــد صغير، وراح يتكلم بلســان حلو وهو يطلب التمر، فيما كان بعضهم يبكي. قال الرجل العجوز: «من منكم لم يأكل التمــر فليقف صفًا واحدًا في ظل الجدار. أمــا الذيــن أكلوا فليذهبــوا إلى خارج الظــل؛ إلى أشعة الشمس هناك».



اصطـفّ جميـع الأولاد في ظـل الجدار، وبعضهـم كان يلوك تمرتـه بفمـه؛ إلا عـدد قليـل منهـم وقفـوا في الشمس.

– هذا الصبــيّ قد سرق تمرًا، يا ابن مسعود!

هزّ الصبــيّ برأسه، وهو يمســح شفتيه بكم يــده، وسأل: «أنا؟!».

تقــدم الرجل العجوز وألقى نظرة في عينيه، فطأطأ الصبيّ رأسه، لكنه لم يخرج من الصف.

– اليــوم أقــام لكم فارســيّ حفلًا عظيمًا.

عندمــا سمع سالم كلمــة «فارسي» تذكــر قاتل الخليفة، فاضطرب وشعر

بقلق شديد.

تابع ابن مسعود كلامه: «أنا أيضًا أريد أن أشارككم في فرحتكم». ثم طلب من خادمه الذي تبعه أن يأخذ السلة من سالم، ثم أضاف: «لكني أحب أن أعمل كما كان يعمل رسول اللّه. بداية، فليقف في الأمام من لم يأكل التمر».

توجه الرجل العجوز إلى سالم، وسأله:

– ما اسمك أيها الشاب؟

– سالم، سيدي!

– مولى من أنت؟

– أنا عبد لماجدة زوجة...

– آه، أنت العبد الذي اشترتك زوجة وائل؟ أنا أعرفها. لكن ألا تعتقد أنك تتلف تمر هذه المسكينة؟

ابتلع سالم ريقه بغصّة، وقال:

– لم يشترِ أحد التمر، فأردت أن أحلّي أفواه هؤ...

– أن تفرحهم و..

هز سالم رأسه، لا سيدي!

– ليس هناك مشكلة، أنا سوف أشتري تمرك، وأشتري التمر الذي أكلوه أيضًا.

التفت ابن مسعود إلى خادمه، وطلب منه أن يدخل إلى الدار،

ويأتيـه بهميان[1] الدنانير من كوّة في الجدار، ثم تابع حديثه وهو يضع التمر في أيدي الأولاد.

- سأشتري التمر بضعف ثمنه، لكن بشرط.

نظر سالم إلى الرجل وهو مندهش.

- شرطي أن أبقى برفقتك ما لم ينته التمر من السلة.

لم يستطـع سـالم أن يقول شيئًا من شدّة الفـرح، كل ما كان يفعله تحريك جفنيه نزولًا وصعودًا. تناول ابن مسعود بعضًا من التمـر، وطلب مـن الفتاة الصغيرة التي ابتـلّ وجهها بالدمع أن تفتح فمها.

رجع الخادم يحمل كيسًا مليئًا بالدنانير، وهو ينظر إلى سيده بدهشـة. أما ابـن مسعود فكان يمسـح حبات التمـر، ويعطيها للأولاد، ويطلب إليهم أن يدعوا له وللشاب بائع التمر.

كان صـف الأولاد طويـلًا ومنحنيًا، حتى امتـد إلى منعطف الزقاق.

- لا تفتعلوا جلبة، سيصل التمر إليكم جميعًا.

انتهى الصف، وأخذ الجميع نصيبًا من التمر، وبقي في السلة شيء قليل، فقال ابن مسعود:

- أما الآن فقد وصلت النوبة إليك حتى تحلّي فمك.

ثـم التفت إلى جمـع من الرجـال كانوا قد احتشـدوا حوله، ينظـرون إلى فعله. قدم إليهم التمـر وقال: «لا يظننّ أحدكم أن

1 كيس يربط من الوسط وتوضع فيه النقود.

هذه الدنانير من بيت المـال بما أنني أتولاه في الكوفة». ثم وضع حبـة من التمر اليابس في فمه وتابع يقول: «هذه الدنانير ملكي، لذلك عمـدت إلى هذه التجارة مع الشاب». بعد ذلك توجه نحو الفتى، وضع كيس النقود في سلته، وقال له: «أراض أنت؟ لم تكن تجارة سيئة».

بقـي سالم علـى حاله لا ينطـق بكلمة. كان ينظـر فقط إلى الرجل المسنّ.

- أعتقد أنك يجب أن تذهب. أبلغ سلامي إلى أم الفضل.

ثـم استدار ومشى. لم يتقدم خطوات عدة حتى رجع، وقال:» الظهر قريب، يمكنك أن تصلي في المسجد إن شئت».

تـلألأت عينا سـالم فرحًا، ثم تنـاول كيـس الدنانير، ولحق بصاحـب بيت مال الكوفة. ما أبعـد ما حصل عن ظنه! فالوقت مـا زال متأخرًا حتى الغروب، أما التمـر فقد بيع بأسرع من كل مـرة. وسالم الآن يمكنه أن يشعر برائحة السمك المشوي، وطبخ مائدة لذيذ جدًا.



كانـت السمكة تقفز داخل السّلة، تحاول أن تثب إلى الخارج، لكن حافة السّلة العالية تمنعها من ذلك. كانت تتلوى وتفتح فمها الأبيض المائل إلى الأرجواني ثم تطبقه، ثم تعود فتضرب بذيلها الكبـير السمكات الصغـار، وهي تسعى للوصـول إلى الماء، لكن كلمـا تلوّت خمدت حركتها أكثر فأكـثر، يظهر ذلك من فلوسها التي تحـت خياشيمها؛ كانت تتحرك هبوطًـا وصعودًا ثم تهدأ. علـى الرغم من ذلك، كان سـالم يعلم أن السمكة لو توقفت عن الحركة، ما إن يمسّها المـاء، وتصبح داخل الماء الفرات البارد، حتـى تستعيد حياتها، وتنزلق بـين أصابعه مثل السهم، وتغوص في الماء، وتختفي في أعماق النهر المظلمة.

حـين هدأت السمكة الكبـيرة، حمل سالم السّلـة وانطلق. لم يكن يعتقد أن باستطاعته اصطياد أربع سمكات كبيرة وعدد من الأسماك الصغيرة والمتوسطة بهذه السهولة. لكنه الآن في طريق العودة إلى بيت ماجدة بيد مليئة، ولم يحن وقت الظهر بعد.

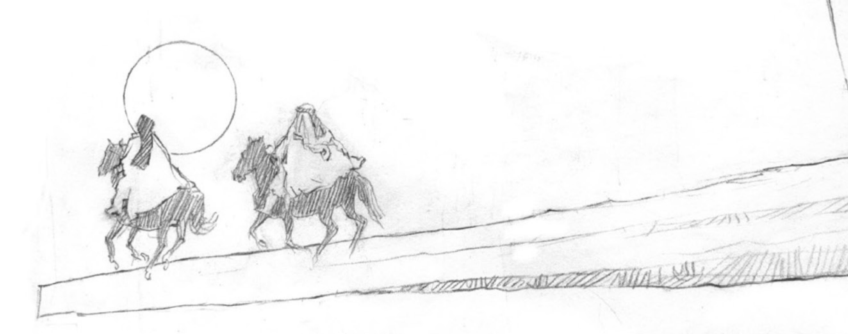
كان يسير بين حقول القصب. من هناك أصبح الطريق أبعد؛ لكنه يملك الوقت الكافي، ويمكنه أن يستمتع بأصوات الطيور.

كانـت أعواد القصب تتمايل بلطـف، فتذكره بالنهر الجاري



بالقـرب من بساتين النخيل في النهروان؛ حيث كان يذهب إليها في صغـره، ويلاحق الفراشات بين أعـواد القصب ليصطادها؛ وكلّما حاول اصطياد واحـدة منها فشل في ذلك، وكأن الفراشة تمتلـك عيونًـا خلـف رأسها، فمـا يكاد يصـل إليهـا حتى تفتح أجنحتهـا البيضـاء والملونـة، وتحـط علـى قصبـات في الجهة الأخـرى. هـذا ما كان يفعلـه في الصبا في موسـم جني التمور. لكنـه الآن هنا، يسير بين أعـواد القصب، ويتذكـر تلك الأيام، وينظر إلى العصافـير التي تحطّ على القصبات، وهي تغرّد مع صفير الرّيح. كان يشعر أن العصافير فرحة أيضًا.

لقـد كلّفته ماجدة هـذا الصباح بصيد السمـك، إذ لم يكن لديهم المال ليهيئوا الطعام للضيوف. تقول ماجدة إنّ مائدة نهر الفـرات مبسوطة للجميع. الفرات كـريم ويمنح كل إنسان رزقه بقـدر. الأمر يحتاج فقط إلى المهـارة والفطنة، وأنت يا سالم لا



تنقصـك هذه الأمور؛ كلمـات كانت كافية لإدخـال السرور إلى قلب سالم.

من المقرر أن يأتي خاطب لمائدة، لذلك تريد ماجدة أن تكون

الأمـور على أفضل حـال في غياب زوجها. لهـذا السبب أرسلت سالمًـا في الصبـاح الباكر، بعد صلاة الفجـر، إلى نهر الفرات. لم يكن نهـر الفرات العظيم نفسه، بل فـرع منه كان المزارعون يروون منه مزارع نخيلهم.

وضـع سالم السّلة على كتفه، وراح ينشد الأشعار التي تعلمها في صغـره، وهـو يتقدم بخطوات بطيئـة. كان مسرورًا، لكن من جهـة أخرى كان حزينًـا؛ لقد نشأ منذ صغره مـع مائدة، وكبرا معًـا. كان يشعـر في أعماقـه أنه يحبهـا، فرعشـات قلبه كانت تخبره بذلك حينما يراها وهي تدخل غرفته، خصوصًا، عندما كانت عينـا تلك الفتاة العربيـة تلمعان، وتظهر تلـك «الغمازة» علـى خديها. أما هو فكان حـين يراها يجهد نفسه حتى لا يتغير لون وجهـه، ولا يرتعش صوته إذا كلمها، لكن صوته كان يرتعش قليـلًا عندما يتحادثان. مع ذلـك، كان يخفض رأسه إذا التقت عيونهما، فهو يعلم جيدًا أن هذا الأمر غير ممكن على الإطلاق، فلا العربي يـزوج ابنته لرجل أعجمي، ولا الأعجمي يستطيع أن يخطـب فتـاة عربية. هـذا القانون غـير المدون اتخـذ شكله في سلـوك العـرب، وأصبح قانونًـا في حياتهم. كان سـالم يعلم أن ماجـدة تحبه مثل ولدها، لكنه في نظر جيرانها وفي نظر العرب أيضـا أقل شأنًـا، وأوضع نسبًا منهم، وهـذا الأمر يبدو مفهومًا من أسلـوب كلامهم، وواضح أيضًـا في نظراتهم؛ حتى أن والي الخليفـة كان قد أصـدر أمرًا يقول فيـه: إذا كان الأعجمي على ظهـر فرسـه ورأى أحدًا من العرب، ولـو كان طفلًا، وجب عليه

أن ينــزل من على ظهر دابتــه، وأن يفسح له الطريق حتى يعبر. كذلــك، يجب علــى الفارسي أن يبدأ العربــي بالسلام أولًا، فإن رغب العربي رد السلام. وهذا ما كان يحزن سالمًا ويؤلمه، لأنه لا فــرق بينه وبين العرب، لا بل كان يتقن عمله أكثر منهم؛ فالبيت الذي لم يستطع المسنّ العجوز بناءه، وسقط جداره على الأرض، بنــاه هو نفسه لبنةً فوق لبنة، وكان حينها لم يزل في أول شبابه، وأصبح البيت على لسان كل فرد في حي بني أسد. كذلك استطاع أن يتعلــم القراءة والكتابة، حيث كان يذهــب إلى أصحابه [من بلاده] سرًا، ويتعلم منهم. في حين أن العرب لم يكن لديهم عمل سوى المشيِ في الأزقة بتفاخر والسيوف متدلية من أعناقهم.

تنهد ســالم، ثم توقف للحظــات يتأمل أعــواد القصب وهي تتمايل بهــدوء، كأنها ترقص على نغمة الريــح. كانت تشبه إلى حــد بعيد حركة «تنورة» مائــدة الفضفاضة ذات الثنيات – كان يسمع صوتها وهي تناديه، لكنه لم يستطع العودة والنظر إليها–. وقــف ينصــت إلى أصــوات العصافــير الآتية من بعيــد. أطبق عينيــه. كان صــوت شدوها مثل المروج الخضــراء المخملية التي تداعبهــا الريــح، فتتمايل معها كيفما هبت. علــى مسافة قريبة منه علت نغمة عصفور. مدّ عنقه ليرى. إنها أنثى عصفور تحط علــى عود قصب طويــل، تطلق من فمها نغمــات متناسقة، وهي ترقّص ذيلها الأخضــر المتداخل مع الأبيض، ثــم يرتفع صوت سقسقــة من النـاحية الأخرى من القصب. بدا الأمر كأنه سباق بــين عصفورين في هذا اليوم الربيعي. بعد لحظة ظهر عصفور

رماديّ من الجهة الأخرى، حلق عاليًا في الجوّ، ثم هبط واقترب، وراح يدور حول العصفورة الملونة. لكن العصفورة أغمضت عينيها وعلا شدوها.

– افتحي عينيك، فصديقك قد ظهر.

كانت أنثى العصفور الجميلة تغرد من دون اعتناء. فكر في نفسه. هذا يعني أن الطيور أيضًا لديها غرور! كان الشاب غارقًا في مشاهدة سلوك هذين العصفورين. كان العصفور الرمادي يصفق بجناحيه بقوة، ويحلق عاليًا، ثم يعود ويقترب، ثم يرجع، والأنثى غير مهتمة. لم تكن تعتني بما يفعل. اقترب العصفور وأراد أن يحط على عود من القصب، وإذ بهما يطيران على صوت جري الخيول؛ فصوت وقع حوافرها قد أخافهما، فحلّقا بعيدًا وسط ذلك السكون وغابا عن الأنظار.

فضولية سالم دفعته كي يلاحق الفارسين بنظراته، وهما يعبران الطريق القريب من حقول القصب بسرعة، قادمين من جهة الكوفة. عرف واحدًا منهما، عرفه من حصانه «الأبلق». الكوفة كلها تعرف شهابًا بتلك القوائم الرشيقة والعنق الجميل. كانت شهرته بسبب فارسه جندب الأزدي الذي قتل الساحر اليهودي في مسجد الكوفة. قتله في حضور الوالي. لقد ضرب عنقه وهو يقول: المسجد ليس مكانًا للسحر والشعوذة. لكن الوالي أمر بحبسه، حتى أرسل الخليفة رسولًا إلى ابن أخيه الوليد[1] يأمره بأن يطلق سراحه. اختفى ذيل شهاب الأبيض

1 - والي المدينة من قبل الخليفة عثمان (الوليد بن عقبة) وهو أخو عثمان لأمه.

بين منعطفات الطريق الضيقة، ولف السكون حقول القصب من جديد. نقل سالم سلة السمك إلى يده الأخرى ومشى، لكن فكره ذهب مع جوادَي الفارسين- من المؤكد أن جنديًا فعل شيئًا حتى خرج من الكوفة مسرعًا في هذا الوقت من النهار- أسرع الخطى، وعبر طريقًا ضيقًا بين سهول القصب، ومضى باتجاه بساتين النخيل؛ حيث كانت الكوفة تقع في الجهة الأخرى. لم تكن الشمس قد وصلت إلى كبد السماء بعد. لكنه انحرف نحو السوق، ولم يذهب إلى حي بني أسد. كانت البسمة ترتسم على وجهه بين الحين والآخر. ليس عبثًا أنه استطاع أن يملأ سلته من السمك بهذه السرعة. كان فضوليًا، فإذا ما حدث شيء فإنه يدركه بسرعة. تقدم بخطوات سريعة، ومر بجانب الحقول والمزارع التي لم تعقد سنابلها بعد، ثم انحرف نحو الكناسة[1] عند التقاء طريقين، ومشى فوق جسر خشبي ضيّق بُني خصيصًا لعبور المارّة.

كانت الأسوار العالية لدار الإمارة تلوح من بعيد. كل شيء بدا هادئًا. كان سالم يصغي لعلّه يسمع صياحًا أو صراخًا، لكن السكون كان يعمّ المكان. اقترب من ميدان الكناسة. في الجهة الأخرى من الميدان، اجتمع عدد من الرجال أمام المسجد يتحدثون. ما إن وقع نظر الرجال عليه حتى خفضوا أصواتهم. حاول أن يتقدم نحوهم بهدوء، علّه يفهم شيئًا مما يقولون؛ لكن أصواتهم كانت أشبه بالهمس. دفعته الفضولية

1 أحد أحياء الكوفة.

أكثر. كان واضحًا أن العرب لا يحبون أن يطّلع غير العرب على حديثهم. غير أنه تبسم وابتعد مسرعًا، وهو يقول في نفسه: «ماذا تعتقدون؟ فكل الأخبارِ عندي». أكمل سالم طريقه إلى سوق السمك - كان السوق قد أُعيد بناؤه مؤخرًا، وفُرش رصيفه بالرمل الخشن والحصى حتى لا توحل أرضه- توجه مباشرة إلى الرجل الديلمي «بائع السمك». لقد مضت سنوات عديدة ولم تزل تجارتهما قائمة؛ سالم يبيعه التمر، والرجل الديلمي يعطيه السمك. كان الديلمي قد تقدم في السن؛ لقد غزا الشيب لحيته، وبان مفرق رأسه خاليًا من الشعر أكثر من ذي قبل. كانوا يدعونه باسم «رستم»، أما العرب فينادونه «أبو الفوارس».

- لقد جئت في الوقت المناسب. كم كنتُ أشتهي التمر!

ضحك سالم وأنزل السلة، فلما رأى رستم السمك الطازج عبس وقطب حاجبيه.

- لقد أبدلت عملك؟ أتريد أن تكسدَ تجارتي؟

رفع سالم كتفيه إلى الأعلى، جمع شفتيه وقال: «صيد جيد، أليس كذلك؟»

نظر رستم مرة أخرى داخل السلة، ثم جمع حاجبيه وقال: «في جميع الأحوال أنا لست بمشترٍ».

- وأنا لست بائعًا.

لم يقل رستم شيئًا؛ بل أشار برأسه. ماذا يعني هذا العمل؟

- لدي سؤال تجيب عنه، فأقول لك أحجيتي.

مــلأ رستم شفتيه هــواء، ثم نفخه دفعة واحــدة. كانت هذه عادته إذا تعجب:

– ماذا جرى؟

– قبل ساعة مضت، رأيت شيئًا عجبًا.

أشار رستم إلى سالم أن يدخل إلى الدكان. قال سالم بعد أن رأى الديلمــي ينتظر: «رأيت الفارس جندبًا يرافقه رجل غريب. رأيتهما ملثّمين، وقد بَدَوا كأنهما يفران من شيء ما. لقد عرفت جندبًا من فرسه شهاب».

علت قهقهة رستم، واهتز بطنه الكبير أمامه.

– أنت لم تسمع صوت طبل الفضيحة، بل رأيته.

لم يفهــم سالم شيئًا مما قــال. ارتسمت عقدة على حاجبيه؛ ماذا يعني؟: «جندب رجل مؤمن وجيد!»

– جندب رجــل مستقيم يا ولدي! وجندب هــو الضارب على طبل الفضيحة.

– تكلم بوضوح أكثر.

– تعال هنا، إلى هذه الزاوية حتى لا يسمعنا أحد.

علّق سالم سلته بعمود صغير من الخشب أمام الدكان، ودخل إلى حيــث كان الرجل الديلمي يجلس وفي يده سمكة كبيرة يعمل على تنظيفها.

قال رستم وهو يتلفت بطرفه نحو الخارج: «لقد فضح الوليد شارب الخمر».

– وهل أخو خليفة المسلمين يشرب الخمر؟

هــز رستم رأسه، وتناول سمكة أخــرى... في هذه الأثناء مر رجل عربي برفقة عبيده، ألقى نظرة داخل الدكان، ثم مدّ رأسه نحو سلة سالم ومضى في طريقه.

– مــاذا جرى؟ لقد رأيت بعض رجــال العرب مجتمعين أمام المسجد، ولما مــررت بالقرب منهم خفضوا أصواتهم، كأنهم قد رأوا جنّيًا!

– يجب أن يفعلوا ذلك؟

– رستم! تكلم. ما الذي جرى؟

– يعني أنك لم تسمع شيئًا على الإطلاق؟

توجــه سالم نحو السلة وهو يقــول: «ذهبت إلى صيد السمك قبل شروق الشمس».

– لقد فعلت ذلك كي تكسَدَ تجارتي، أنا المسكين! ليس عندي كلام أقوله لك.

– ماذا تقول يا رجل! الليلة عقد قران ابنة ماجدة.

راح رستم يمازح سالمًا ويضحك بينما ينظف السمك.

– مبــارك! لكن أين خاتم عقــد قرانك؟ لماذا لم تقل لي شيئًا حتى الآن؟ أيها المتحاذق!

احمرت وجنتا سالم قليلًا. ابتلع ريقه ولم ينطق بكلمة.

– حقًّا لقد نسيت أن العرب لا يزوجون بناتهم للأعاجم.

قال الديلمي تلك الجملة، ثم وضع سمكة فوق أخرى، وأضاف:

«هذا أفضل! أليس لدينا نحن فتيات عفيفات وجميلات؟».

ذهب سالم نحو سلّته وقال:

– ألا تريد أن تتكلم؟

– هؤلاء دينهم يقول شيئًا، بينما عملهم يقول شيئًا آخر. «إذا كان كبير القرية يقول شيئًا ويفعل شيئًا فـ..».

– لقد أوجعت قلبي يا رستم!

– هـذا لأنك احترفت صنعتي يا سالم! أنت شاب جيد لكن لا أعلم لماذا صرت عبدًا مطيعًا لامرأة عربية.

هز سالم رأسه، وأجابـه على مضض: «ماجدة امرأة جيدة، لقد اعتنت بي مثل أمي».

– والآن تريد أن تزوج ابنتها لرجل عربي!

– مائدة مثـل أختي، هذا أولًا، والأمـر الثاني: هذه عاداتهم وتقاليدهم.

– وأنـت! لمـاذا لا تتـزوج من امـرأة أعجميّة؟ لقـد تجاوزت الثلاثين من العمر.

حـين رأى رستم اضطـراب سالم وانزعاجـه، خفض صوته الغليظ، وقال: «كان يجب أن يحدث ذلك، لقد أظهر أخ الخليفة الفسـاد على المـلأ، وفضح أمـره. لا أدري كيـف يسلم الخليفة الكوفة لرجل ينادمـه مسيحي. جميع الناس يعلمون خبر الوليد مـع زبيـد المسيحـي، ويعلمـون أيضًا أنهـم اتخـذوا في حي بني الأشعـث دارًا، يقيمـون فيها مجالس اللهو وشـرب الخمر. كان

الوليـد يتخذه سـرًا، يظـن أن لا أحد يعلم به. علـى قولنا نحن الديلميين: مثل طائر الحجل حين يدخل رأسه في الثلج، يظن أن لا أحد يراه. كان الـوالي يتصرف كأن الناس لا ترى شيئًا، لكن الزمـام أفلت من يـده، وسعت به قدمه، حتـى وقع، من حيث لا يدري، في الحفرة التي حفرها بنفسه».

نهضـ سالم. حمل سلته وهو منزعج. أراد أن ينصرف؛ لكن الرجـل الديلمي أمسك ذراعه، وقال له: «لم تكن على عجلة من أمرك إلى هذا الحد. تعال. خذ بطرف هذا التخت [اللوح] حتى نضعه أمام الدكان، فبعد ساعة يبدأ المشترون بالظهور».

انحنـى رستم فوق تخـت السمك، ومال برأسـه الأصلع نحو سـالم قائـلًا: «لقد حضـر والي الكوفـة إلى المسجـد، وقام في المحراب يصلي بالناس صلاة الصبح جماعة، فصلى بهم أربع ركعات بدلًا من ركعتين[1]، وتقيّأ في المحراب. كانت رائحة الخمر تفـوح مـن فمه؛ لقد كان طـوال الليل يعاقر الخمـر، إلى حد لم يتمكـن أن يحفظ نفسه». ثم تابع رستم بصوت منخفض: «حين بـدأ الناس يلعنون الوليد ويتفلون في وجهه، استفاد جندب ومعه أبو مـورع من الفرصة، فأقدم جندب علـى سلبه خاتم الإمارة، وخرجـا مسرعـين مـن الكوفة، وتوجهـا إلى عثمـان في المدينة ليشهدا عليه، ويعطياه علامة الخلافة».

مـا إن أتمّ رستم كلامه، حتى تنفس الصعداء. كأنه قد أزاح عن صدره، بصرخة واحدة، ذلك السر الذي كان يثقله.

1 - (ثم التفت إلى الناس وقال لهم: أزيدكم!)

– لكـن قلبـي يحدثنـي أن الخليفة لـن يقدم على مـا يسيء الوليـد. في النهايـة، سيخلعـه مـن ولايـة الكوفة، ويأخـذه إلى حضنـه. ولعل الأمر يكون كما في المرّة السابقة؛ يحضرون عددًا من الشهود، فيشهدون أن الوليد ليس مذنبًا، ويضعون جندبًا في السجن مرة أخرى.

– لقد بلغ السيل الزبى!

– مهما يكن، فإن الأمر يدور بينهم، ولا يرتبط بنا إطلاقًا.

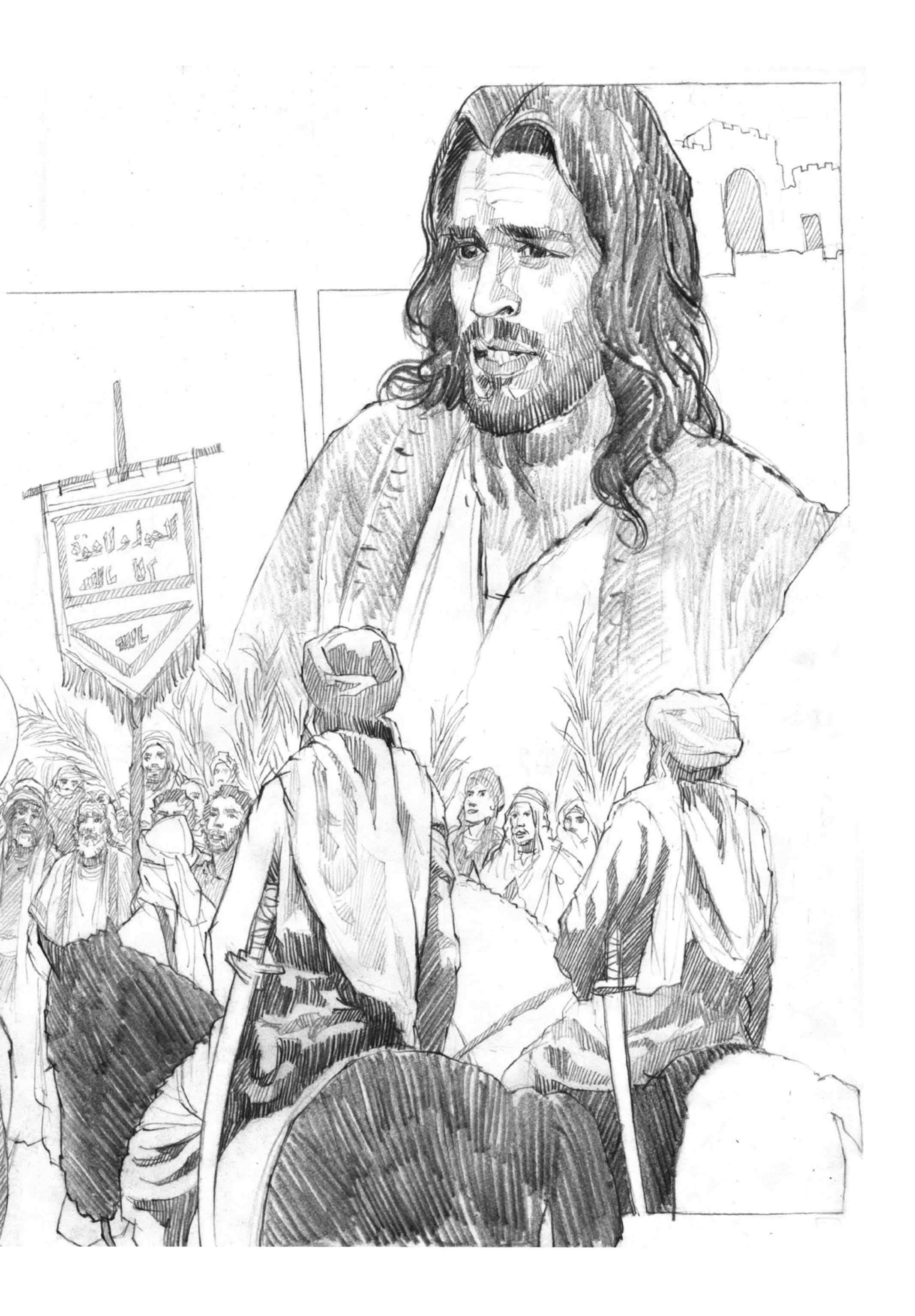
بعـد ذلك، قال رستم وهـو يرتب السمكات حتـى تلفت نظر المشتريـن: «أنـا حاضر كي أشتري منـك سمكاتك، على الرغم من أني أملك الكثير منها».

ضحك سالم، وقال: «ماذا؟».

– لقـد نسيت أنك تريـد أن تأخذ السمك لأجل طعام العشاء لمنافسك. طبعًا منافس قلبك.

ثم أخـذ سمكة ووضعها في سلة سـالم، وأضاف: «هذه لأنك ساعدتني».

أمسـك سالم بذيل السمكـة. أراد أن يرجعهـا، ويقول شيئًا؛ لكـن الرجـل الديلمي قاطعـه بحركة قـام بها؛ إذ نفـخ شدقيه العريضين، وأغمضـ عينيه، فصمت سالم ولم يتكلم، ثم مضى في طريقه.





- سالم! ما زلت جالسًا؟ ألا تعلم أن الخليفة الجديد في طريقه إلى الكوفة؟

لم يتحرك سالم.

الجميع يريدون أن يروا صهر الرسول من قريب. لماذا لا تتحرك يا سالم؟

رفع سالم كتفيه عاليًا وهو يبتسم، ثم نهض وتوجه نحو سلة التمر التي اشتراها مؤخرًا. أخذ السلة ووضعها على كرسي تحت أشعة الشمس الساطعة عند عتبة دكانه، وبدأ ينتقي التمر اليابس والمسحوق. كان يفعل ذلك باستمرار. لقد علمه والده أن التمر يجب أن يكون نظيفًا، وأن رفع التمر الفاسد واليابس يعطيه منظرًا أفضل. من جهة أخرى، فإن المشتري عندما يأخذ التمر إلى بيته لا يشعر بأنه قد غُبن، وهذا يجعله راغبًا بالعودة مرة أخرى، ليشتري من المكان نفسه؛ لذلك كان تمر سالم مشهورًا، وكان الناس يقصدون دكانه أكثر مما يقصدون غيره، مع أن جميع التمور تُجنى من بساتين نخل الكوفة، ولا يختلف بعضها عن بعضها الآخر بشيء.

كان سالم شارد الفكر، ينقّي بضاعته؛ ليس معلومًا إن كان

الخليفة الجديد يختلف عن الذي سبقه. ألم يكن الخليفة السابق صهر الرسول!؟ كانوا يسمونه «ذا النورين»، وعاش مع ابنتين من



بنات الرسول؛ لكن في النهاية، هجم الناس على داره، وسفكوا دمه بسبب إهماله وتساهله وأعماله السيئة. والآن يأتي خليفة آخر لا يعرف عنه شيئًا، سوى ما كان يسمعه من أتباعه ومحبيه. كان يرتب سلال التمر، وكلمة «الرسول» لا تفارق ذهنه.

أطل برأسه من الدكان، ونظر إلى جهة سوق التمر فرآه خاليًا؛ لقد ترك معظم الناس دكاكينهم وذهبوا. لم يبق أحد إلا هو وعدد قليل كانوا يتحضرون للذهاب أيضًا. كان يحدث نفسه: لماذا عليه أن يذهب؟ فالأمر لن يختلف بالنسبة إلينا نحن العجم مع أي شخص يأتي؛ فنحن الشعب الذي يذل ويحقّر، وقد اعتدنا على سلوك العرب، هؤلاء الذين لا يجيزون لغيرهم أن يصلّوا في مساجدهم، أو أن يتشبّهوا بهم في الملبس. لكن هذا الشوق الكبير عند الآخرين أوجد في نفسه شيئًا من الميل والهوى. فمن جهة كان قلبه يحدثه بأن الذهاب لرؤية رجل يأتي لأول مرة إلى الكوفة، بعنوان خليفة المسلمين، أمر مثير، ومن جهة أخرى، كان يشعر بالحقد في أعماق قلبه، ولا يستطيع أن يرضيَ نفسه. فلما رأى أن لا مشتري لديه، والسوق – على كبره- خالٍ حتى من الطير، نهض عن كرسيه وأخذ قطعة من القماش غطى بها سلال التمر، ثم راح يتنقل بهدوء. كان قد سمع كلامًا كثيرًا عن «علي»؛ فبعض الناس يحبونه حتى العشق، ويتحدثون عنه كأنه رسول الله، وبعضهم الآخر كانوا إذا سمعوا باسمه تقطبت وجوههم، كأنهم لا يعرفونه.

كان يشعر في أعماقه بشيء من القلق. ماذا لو أن الذي سمعه

ليس كمثل الذي سيراه، فهو لا يحب أن تتحطم الشخصية التي بناها لعلي في ذهنه. لقد عاش في بيت ماجدة بين العرب من بني أسد، وهؤلاء يجلّون عليًا ويقدرونه، خصوصًا اليمنيّين الذين يسكنون بجوارهم. كانوا مشتاقين لرؤيته، وكأنه نبيّ من الأنبياء. إنه الشخص الذي يُروى عن الرسول وصيّته بأن يكون خليفته من بعده، لكنه جلس في بيته ولم يتكلم لأسباب مجهولة حدثت في المدينة. والآن، بعد خمس وعشرين سنة، يترك المدينة ويأتي إلى الكوفة. لقد تناهى إلى مسامعه أن بعض رجال المدينة قد أثاروا الفتنة، وقدموا سرًا إلى البصرة، وأشعلوا فيها نار الفتنة وسفكوا الدماء، وأعملوا فيها الخراب. كان سالم قلقًا من أن يأتي هؤلاء المتمردون إلى الكوفة، فيحدثون فيها القلاقل والاضطرابات، ويخربون أمن المدينة وسكينتها. لكن الخليفة الجديد كان قد أسرع إلى البصرة وقمع الفتنة فيها، وهو الآن قادم إلى الكوفة، وقد أصبح عند أعتابها.

لقد حدث هذا الأمر قبل عدة أيام، حين رأى القائد الأعلى لجيش الخليفة الجديد يدخل الكوفة طلبًا للجند. لقد تذكر كلامه عندما خاطب الناس في الميدان أمام المسجد. كان كلامه مدويًا؛ جعل سالم يتوقف ويستمع إلى حديثه، بعد أن شاء العبور من دون اهتمام، حتى يصل إلى عمله.

خرج سالم من سوق التمر، وهذه الأفكار تعبر في خاطره. ثم عرّج بسوق السمك، حتى يرى ماذا يقول رستم؛ لكنه لم يجد الرجل. قال في نفسه: «هذا العمل لا يليق بمن هو في مثل عمرك

أيها المسنّ!». لم يكن يرغب بالمرور في سوق الأحذية؛ لكن فضوله دفعه إلى هناك. لم يكن في السوق سوى عدد قليل من العرب، كانوا يجلسون في ظل جدار هناك، يتجاذبون أطراف الحديث. لقد عرفهم سالم. كانوا من كبار السن في الكوفة، يرتدون أثوابًا جديدة وأنيقة، ويضعون في أيديهم خواتم ذات فصوص كبيرة، تبدو واسعة في أصابعهم التي استحالت عظامًا. مرّ سالم من أمامهم، ألقى عليهم التحية، وهم يتحدثون بصوت خافت.

في الناحية الأخرى من السوق، تجمع عدد كبير من الناس أمام دار الإمارة، وقد أحدثوا جلبة وضجيجًا عاليًا. كان بعضهم يحمل سعف النخيل الأخضر. وكان هناك أيضًا عدد من الجنود يحاولون فتح الطريق بإبعاد الناس إلى الخلف، ويطلبون من الأولاد أن يتنحوا جانبًا. احتشد الناس في المكان، فلم يبق سوى طريق ضيق يصل إلى الباب الخشبي الكبير لدار الإمارة الذي بقي مفتوحًا على شكل ممر، ليدخل الخليفة الجديد إلى قصره من دون صعوبة.

أغمض سالم عينيه، وراح يتصور دار الإمارة من الداخل: «إنه بناء ضخم، وفيه عدد كبير من الغرف، وصحنه الواسع مليء بأشجار النخيل الباسقة والمتوسطة الطول أيضًا. لقد دخل إليه مرات عدة بصفته كبير باعة التمر في السوق. كان القصر جميلاً، لكنه لم يعجب به كثيرًا».

على مسافة من جموع الناس، وقف سالم قرب جدار منخفض من [الطين]. كان بجانب الجدار كومة من التراب؛ بحيث يمكنه

الوقـوف فوقها وأن يرى كل شـيء. بالقرب من دار الإمارة أقيم بناء بسيط. يقولون إنّه بيت ابن أخت الخليفة الجديد «جعدة»؛ لم يكن أكثر من كوخ في مقابل قصر الخليفة. وقف سالم فوق تلة التراب. يمكنه بكل سهولة أن يرى من فوق رؤوس الناس، كل من يأتـي، وكيف سيصل الخليفة الجديد على فرسه ومعه الحراس والجنود، وكيف سيدخل إلى الميدان بكل عظمة وجلال.

تلاشى ضجيج الناس فجأة، وهدأت الأصوات على صوت «الله أكبر». وصل عدد من الفرسـان، فتنحى الناس جانبًا، وفسحوا لهـم الطريق أكـثر فأكثر. تقدم الحراس وهـم يمسكون بأيدي بعضهـم بعضًا، ولم يسمحوا لأحد بالاقتراب. في هذه اللحظات كانـت أعناق الناس تلتـف وتتطاول عاليًا. توجـه نظر سالم مع انعطافة الأعناق، فوقع بصره على رجل يركب على بغلة شهباء، ليس على ظهرها سـرج. رفع كتفيه عاليًا؛ من هذا الرجل؟ أين الخليفـة يا تـرى!؟ عندمـا رأى الفرسان قد ترجلـوا، وأحاطوا بالبغلة من كل جانب، قال في نفسه: «أي استقبال هذا!». لكن ما إن فهـم أن الرجل الراكب على ظهر البغلة هو الخليفة الجديد، حتى شهق شهقة طويلة، وتقطّب وجهه. ماذا كان يعتقد؟ وماذا يـرى الآن؟ لقـد سمع أن الخليفـة كان في المدينة يعيش في ترف ووفور نعمة، وحياته تشبه حياة الملوك والسلاطين؛ أما الآن فهو لا يصـدق ما يرى! الخليفـة الجديد بثوبه البسيـط يركب على بغلة غطاؤها (رحلها) خرقة قديمة من القماش.

كان باب القصر مفتوحًا، ويستطيع سالم، من حيث يقف، أن

يرى جانبًا منه. لكن الخليفة ما زال واقفًا، ولم يحرك ساكنًا. ما الذي يجري؟ هل حدثت مشكلة؟ ليته يتقدم أكثر ليسمع ما يجري من حديث هناك. كان بعضهم يتحدث بصوت مرتفع، فيما بدا آخرون كأنهم يصرون على شيء ما. أما سائر الناس فقد عمّهم الصمت والسكون، وكانوا يحاولون معرفة ماذا يجري. وحدهم الأطفال الفضوليون كانوا يحدثون جلبة، ويحاولون التقدم إلى الأمام من خلال الفجوات بين أرجل الناس.

أنصت سالم جيدًا. هناك رجل طويل القامة يتحدث؛ يقول إن دار الإمارة قد هيئت للقدوم الميمون لصهر الرسول ليستريح فيها. رفع الخليفة يده عاليًا، وهو راكب على ظهر بغلته، أشار إلى الناس أن يسكتوا. كان صوته مسموعًا وهو يتحدث بصوت عال ونبرة حازمة: «قصر الخبال هذا لا تنزلوه». عندما سمع سالم هذا الكلام، رفع رأسه وتطاول بعنقه، علّه يسمع كلام الخليفة بشكل أفضل، خصوصًا عندما رأى صديقه رستم قد شبك يديه القويتين، ووضعهما أمام الناس ليوقف اندفاعهم... ثم علا صوت أسكتَ جميع الناس.

- أيها الناس! اذهبوا إلى المسجد، إنّ أمير المؤمنين يريد أن يخطب في الناس قبل صلاة الظهر، وإن الخليفة سيتخذ من دار ابن أخته «جعدة» محلًّا لسكنه.

أراد سالم أن يتقدم إلى الأمام؛ لكنه أحسّ بضعف في قدميه، فابتلع ريق فمه. لم يكن قادرًا على التحرك مع وجود ذلك السيل الجارف من الناس الذين اندفعوا جميعهم إلى دار «جعدة»، ما

أحدث جلبة وأصواتًا عالية.

– هذا يعني أن دار الإمارة يجب أن تبقى خالية.

– لماذا لا يريد الخليفة أن ينزل في القصر؟

– افتحوا الطريق... اذهبوا إلى المسجد.

– سوف يأتي أمير المؤمنين إلى المسجد بعد أن يأخذ قسطًا من الراحة.

لم تمضِ لحظات طويلة، حتى شعر سالم بوقع أقدام تمشي نحوه ببطء. وقعت عيناه على نعله الخصيف الباليً. توقف هنيهة. كان سالم مضطربًا. خفض بصره؛ لكنه أحس أن الخليفة ينظر إليه. رفع بصره، فوقعت عيناه على عيني الخليفة. أحس برعشة تجتاح جسده كلّه. تسمّرت عيناه في نظرات الخليفة، وشعر بشرارة تخرج من عينيه وتهزه هزًا. احتُبست أنفاسه داخل صدره، وإذ به يعود إلى نفسه على صوت امرأة عجوز.

كانت العجوز تطلب منه أن يتنحّى جانبًا، لتكنس الأرض أمام باب دارها، بينما سالم مسمّر في مكانه. لم يكن يتوقع أن يرى الخليفة من هذا القرب، أو تلتقي عيناه بعينيه. لقد رأى بسمة لطيفة ترتسم على وجه الخليفة، وشعر أنه قد رآه في مكان ما من قبل؛ لعله رآه في حلمه، حتى أن عطره لم يكن غريبًا. لكن أين يا ترى؟! لم يكن يعرف. بينما كان سالم غارقًا في فكره، يفكر كيف حدث ذلك؛ وإذ به يرجع إلى نفسه على صوت رستم:

– لقد ذهب الجميع، تحرك يا سالم.

دخـل شاب يحمل خرجًا إلى دار منــزل جعدة. كانت أنفاس سالم محتبسة في صدره، ولم يكن قادرًا على التحرك من مكانه. كانت نظرة الخليفة وعينــاه اللامعتان تريد أن تقول شيئًا؛ كأن الخليفة كان يعرفه من قبل. توكّأ سالم على الجدار كي يسترجع طاقتــه، وتمسك به حتى لا يسحق تحــت أقدام الجموع المندفعة بقوة.

– ماذا جرى يا سالم؟

– كان يعرفني.

– من هو؟

– الخليفة.

أمســك رستــم ذراعه وقــال: «أذهبت مع خيالــك!؟ أو لعلك تعرضت لصدمة؟».

أخــرج سالم نفَسه دفعة واحدة. إنه شعور غريب. شيء يثقل صــدره. يود لو أنه يتحدث إلى شخص ما. غير أن جموع الناس جذبته إليها.

– إن رؤية الخليفة على هذه الحال تصيب الجميع بالرهبة.

– أقسم أنه يعرفني.

– الأفضــل أن تستمع إلى كلامــه في المسجد، من أن تفكر في أوهامك!

وسط هذا السيل من النـاس، اندفع سالم نحو المسجد...

- ما اسمك أيها الشاب؟

كان الخليفة يقف أمام دكانه. لم يمتلك سالم الجرأة على رفع رأسه؛ فنظرة ذلك اليوم أجبرته على التفكير. نظرة جعلته يبحث عن دليل لما أحسّ به. لماذا كان مألوفًا وكأنه يعرفه منذ زمن؟!

- سالم سيدي!

- سالم؟

تقدم الخليفة خطوة إلى الأمام، مرّ بين سلال التمر، وضع قدمه داخل الدكان، ونظر إلى السلال. كانت مرتبة ونظيفة ومصفوفة بشكل جيد -كان الخليفة معتادًا أن يخرج كل يوم قبل صلاة الظهر إلى السوق ليتفقده، ويسأل عن مشاكل الناس، وأحوال التجار- ثم رجع ووقف أمام الباب تحت أشعة الشمس.

لكني سمعت من رسول الله أن اسمك الحقيقي هو «ميثم».

رفع سالم رأسه، ونظر في وجه الخليفة، وقد بدت عليه الدهشة. لم يكن ليصدق ذلك. لقد نسيَ الاسم الذي كان يحمله، ونسيَ أن أمه كانت تناديه «ميثم» لكثرة ما تكرر اسم سالم. في هذه اللحظات أحس أن أمه تناديه من بعيد؛ ميثم.. ميثم..

كلمة ميثم هزت وجوده من الأعماق، وراحت تفور في دمه، وتجري في شرايين جسده؛ فصدى صوت الخليفة كان يعبق في دكانه. لم يكن أحد يعلم بهذا الاسم. لقد ابتاعوه منذ زمن

واختــاروا له اسمًا جديدًا. والآن بعد هــذه السنين يأتي شخص مجهول؛ هو الخليفة، ليناديه باسمه الحقيقي!

– أحب أن يدعوك الناس باسمك الحقيقي.

اختنــق سالم بعبرته، وترقرقت عينــاه بالدموع؛ فكلمة ميثم ذكرتــه بأبيــه، ذكرتــه بأخته الصغيرة حــين كانت تتــودد إليه وتناديــه بلسانها العذب «عزيزي ميثم»، وتطلب منه أن يأخذها معــه إلى السوق، حيث والدهما يعمل هنــاك. كلمة ميثم أخذته إلى أمــه الحنونــة التي كانت تلاطفــه عند الفجــر. حملته إلى أيــام الطفولة. تسمّر في مكانه، ولم يستطع أن يتحرك. ذكريات الماضــي تفجرت في ذهنــه دفعة واحدة، وجــفّ الريق في حلقه، وبدأت الدموع تتفجر من عينيه بصمت، وتنزل على وجنتيه، ثم تغور في لحيته الكثيفة.

– لماذا البكاء؟ أولست سعيدًا؟

– أنا لا أبكي.

انحنــى على يد الخليفة يريد تقبيلها؛ لكــن الخليفة رفع يده ووضعها على كتف ميثم.

– أنا وأنت بشر، ولا فرق بيني وبينك.

انفجر ميثــم بالبكاء، وجثا على ركبتيه؛ حتــى دوّى بكاؤه في أرجــاء الدكان، فأمسكه علي بذراعيــه، ورفعه إلى الأعلى. كان ميثــم بأشد الحاجة إلى أن يضع رأســه على كتف أحد ما، حين أخذه علي وضمه إلى صدره. ارتفع شهيق ميثم بكاءً عاليًا. كانت

كتفاه تهتزان من شدة الشهيق. انفجر قهر كل تلك السنين التي مرت وعذاباتها بكاءً. ربّت علي مرة بعد أخرى على كتفه بلطف، كأنه يلاطفه ويهدّئ من روعه. أحسّ ميثم أن أثقال كل الآلام التي تراكمت في قلبه قد زالت بلحظة واحدة، وخفّت أحمال قهر السنين. غير أنه كان يشعر بالخجل. حاول أن يمسك نفسه عن البكاء، فلم يستطع. بدا كأنه ولد صغير رأى والده بعد سفر طويل، وهو قادم نحوه يناديه باسمه «ميثم». لم يعد ميثم قادرًا على الوقوف، إذ نفدت طاقته، وتلاشت قوته المعهودة، فانهار مرة أخرى، وسقط على الأرض جاثيًا على ركبتيه؛ لكن الخليفة ساعده على النهوض، وأجلسه على الكرسي الذي اعتاد أن يجلس عليه.

– أودّ أن أراك حرًا يا ميثم!

كانت دموع ميثم لا تنفك تجري على خديه؛ حتى تركت خطوطًا على وجهه. في هذه الأثناء، كان بائعو التمر يتجمعون أمام دكانه، وينظرون بتعجب وذهول إلى سلوك الخليفة المفعم باللطف والمحبة مع رجل أعجمي ما زال عبدًا لامرأة عربية؛ كانت قد اشترته بدنانير معدودة.

لم تنقطع دموع ميثم. كان مثل الطفل الذي أضاع أمه؛ بينما راح «علي» يمسح بيده على كتفه ريثما يهدأ. مرت لحظات جعلت ميثمًا يهدأ قليلًا. كان ينظر إلى وجه الخليفة من خلف دموعه التي أسدلت حجابًا على عينيه. تبسم الخليفة بلطف وقال: «يجب أن نذهب إلى حي بني أسد».

ملأ صوت همهمة الناس المجتمعين خارج الدكان السوق:

– أمير المؤمنين «علي» يريد أن يشتري ميثمًا ويحرره.

– لا أعلم من أين يعرفه!

– هـذا غير ممكـن. لم يمضِ على وجـود الخليفة في الكوفة سوى أيام معدودة. كيف ذلك، وهذا عجمي والخليفة عربي؟!

– كان فعلـه مع ميثم يوحي أنهما يعرفان بعضهما بعضًا منذ زمن. حتى اسمه الحقيقي، لا أعلم من أين كان يعرفه.

– يقول: أحب أن اسمع اسم «ميثم» لا «سالم».

انتشر الخـبر في السوق والأرصفة مثل النار في الهشيم. لقد غـيّر الخليفة اسم سالم العجمـي، وقال إن رسول الله أخبره أن اسمـه الحقيقي «ميثم». حـين وصل الخـبر إلى رستم، لم يكن ليصدق ما سمع. ناول امرأة سوداء البشرة سمكة كبيرة، وخرج من دكانه مسرعًا.

– الثمن سيدي!

– هنيئًا لأسيادك...

لم يـدرِ رستـم كيف عـبر سوق الخضـار، ووصـل إلى دكان صديقه بأنفاس مضطربة متلاحقة، كان صدره يضيق بها؛ لكنه لم يجد أحدًا هناك.

لقد ذهبوا جميعًا إلى دار ماجدة.

أسرع رستم نحو حيّ بنـي أسد. كانت جثته الضخمة تتمايل يمينًـا وشمالًا؛ حتى أن كل من التقاه لم يقـدر أن يتمالك نفسه

فضحــك مــن منظره. «لم يكـد الخليفة يصـل إلى الكوفة حتى أصبح صديقه الشاب رفيقًا له. كان أصغر خبر في الكوفة يخرج بدايــة من دكان رستــم؛ والآن لا علم له بواقعــة كبيرة مثل التي حدثت! وقد حدثت قاب قوسين أو أدنى منه.

عندما وصــل رستم، كانت ماجدة تبكــي وفي يدها كيس من النقود وهي تقول: «سيدي! لم يكن سالم عبدًا لي، بل كان ولدي. إنه رجل البيت. هو أخ لابنتي مائدة. لقد كنت له أمًا. صحيح هو ليس من العرب؛ لكنه شاب عفيف وطيب».

– أمير المؤمنين يرغب في أن يكون ميثم حُرًّا، يا أمّاه!

– أنا الذي اشتريته؛ لكني لم أنظر إليه يومًا على أنه عبد.

نظــر علي إلى العجــوز ماجدة نظرة ملؤهــا اللطف والمحبة، ثم التفت إلى ميثم؛ لم تزل قطرات من الدمع على خديه، وعبد الرحمن ممسك بيده، وعيناه طافحتان بالدموع هو الآخر.

– ما زلتم عائلة واحدة.

كانــت ماجدة تصرّ على إرجاع المــال، فهي لا تحتاجه مقابل تحرير ميثم؛ لكــن صاحب الخليفة قال لها: «هذه النقود ليست ثمنًا لميثم، إنها عون لك من أمير المؤمنين».



– أنا أيضًا سآتي إلى النخيلة لأنصر أمير المؤمنين.

– مــاذا تقــول يا ميثــم؟ أتريــد أن تترك زوجتــك «شيرين» وحيدة في هذه الحال؟

ثــم أشار رستــم إلى ابنته الواقفة بصمــت عند عتبة الباب، وهي تحدق بهما بعينين لامعتين.

– أما أنا فيجب أن...

– إذا علم أمــير المؤمنين فسوف يعذرك. صحيح أنه يحبك، وأنه لا طاقة لك على فراقه؛ ولكن انظر إلى زوجتك. فكر بطفلك الــذي سيأتــي إلى الدنيا قريبًــا. إذا ذهبتَ فمــن يساعدها إن أصابهــا مكروه في منتصف الليل «لا سمح اللّه»، وأنا أيضًا لست موجودًا. أما أمها العجــوز، فأنت ترى حالها؛ امرأة ضعيفة، لم يبــق منها سوى العظام الرقيقة، تقضــي وقتها جالسة في زاوية الغرفة، وليس بيدها حيلة.

كان ميثــم يقــف تحت ظل النخلــة؛ بينما رستــم يكلمه، وهو يرتدي لامة حربه، ولم يمنحه الفرصة ليتكلم: «يكفي أن يذهب مــن كل أسرة شخص واحد. أنــا سأحارب نيابة عنك» ثم تقدم إليــه وهو يضحك. وضــع يده على كتف صهــره، وقال: «ما زلت





أملك قدرًا كافيًا من القوة في ساعديّ، وأستطيع أن أضرب رؤوس أعداء مولانا أمير المؤمنين بالصولجان نيابة عنك». لكن ميثمًا لم يكن راضيًا: «كل فرد يجب أن يحارب عن نفسه...».

قطع رستم كلامه، وقال منزعجًا: «أنا المسكين الذي كنت أظن أني أعطيتك ابنةً كالزهرة، حتى تكون سعيدة؛ ولكني لم أكن أعتقد...».

- ماذا تقول يا رجل! أنا أحب شيرين...

- إن كنت تحبها، فكيف يطاوعك قلبك أن تتركها وحيدة وهي في الشهر التاسع، بينما تذهب...

التفت ميثم إلى زوجته. كانت تضع يدها على خصرها، وتنظر إلى الأرض شاردة الفكر. لم تنطق بكلمة. لم تكن شيرين واقفة في مقابله وجهًا لوجه؛ لذا لم يظهر بطنها المنتفخ جيدًا.

كان ميثم قد تحدث بالأمر مع زوجته في الليلة الماضية، وهي لم تقل شيئًا. إنها فرصة جيدة ليكون إلى جانب مولاه أمير المؤمنين؛ غير أن الحياة والزوجة جعلتاه مكبلًا.

- ألم يقل أمير المؤمنين في المسجد «إن من سعى على عياله من حلّه فهو كالمجاهد في سبيل الله»؟

- لكن أنت والد شيرين، ومن الأفضل...

- ما هذا الكلام! شيرين كانت ابنتي في بيتي قبل سنين؛ أما الآن فهي زوجتك. لقد استودعتها أمانة لديك.

كلمة أمانة نُقشت في ذهن ميثم. نظر إلى زوجته الشابة مرة

أخـرى؛ إنها الابنة الوحيدة لرستم، ويعلـم أن أباها يحبها حبًا جمًـا، وهو حاضر أن يفديها بروحه. هو أيضًا يحب شيرين، ولا يقبل أن يصيبها أي أذى، فكيف إذا...

ليسـ هنـاك مشكلة، فالأعـداء كثر، وسوف تكـون في الأيام المقبلـة حروب كثـيرة. ابقَ هذه المرة، وفي المـرة المقبلة أبقى أنا وأهتم بحفيدي.

نـزل كلام رستم علـى قلب ميثم كالمـاء البـارد، فلم يستطع أن يجيبـه بشيء. ارتسمت على شفتـي شيرين بسمة خجولة، ثمّ اختفت في عتمة الغرفة. لم يكن ممكنًا رؤية الغرفة من خلال النور الضعيف؛ لكنه يعلم أن شيرين تقف خلف الباب، وتضع يديها على الجدار، وتضغط على أسنانها من شدة الألم. لقد مضت أيام عدة وهي تشتكي مـن الألم. لم تكن تستطيع النوم. كانت تقضي الليل وهي تعدّ لحظاتـه بخطواتها. أما في النهار فكانت تشتكي أحيانًا من ألم شديد، لذلك لم تقدر على إخفاء دموعها.

– هل وافقت؟ قريبًا ستضع شيرين مولودها. من الأفضل أن يكون أبوه بجانبه بدلًا من جده.

تـأوه ميثم قائلًا: «سوف يذهب الجميـع إلى النخيلة، أما أنا فيجب أن أبقى وأتجول في الدار والسوق. ما هذه العدالة!»

– وهـل يرضى أمير المؤمنين أن تـترك زوجتك وهي في هذه الحال يا ولدي؟ إنه لفخر عظيم أن يأتي خليفة المسلمين، وسط كل هذه الجموع في السوق، ويجلس على كرسيّك. ألا يكفيك هذا فخـرًا. ألا تعتقـد أن الآخرين يتمنـون أن يصبحوا جلساء أمير

المؤمنــين؟ وهؤلاء العرب، ذوو البطون الكبيرة الذين كانوا حتى الأمسـ القريـب لا يرون لك قدرًا، هل يتمنّــون لو أنّ لهم لحظة من لحظات حياتك؟

- لأجل ذلك أقول لك ابقَ حتى أذهب أنا.

هــز رستم رأسه منزعجًا، ثم مسح بيده على لحيته الطويلة: «لقد عدتَ إلى المربع الأول! أقول لك ليس هناك من ضرع فتقول لي احلبه».

- أنت نفسك...

- لقد تحدثت إلى علي بما فيه الكفاية. الآن جاء دور ساعدي.

وضـع ميثم درعـه الذي اشــتراه مؤخرًا قرب الجـدار، وهو يشعر بضيق شديد، ثم ذهب ناحية نافذة الجدار.

- هذا هو العمل الصحيح. الآن أصبحت صهرًا مطيعًا!

لكــن ميثمًا كان شــارد الفكر؛ ليته لم يتــزوج. لم يفهم كيف استطاع رستم أن يقنعه بلسانه الناعم ونظراته الحادة، ويجعله مثل الحمل الوديع. لقد جاءه يومًا وقال له: أما الآن وقد أصبحت حرًا، وها أنت تمتلك دكانًــا أيضا، فلماذا لا يكون لديك عائلة؟ حينهــا سكت ميثم، فأمسك رستــم بيده وأخذه إلى داره، ونادى ابنته. عندمــا رآها خفقَ قلبه و...ولما علــم أمير المؤمنين بذلك تبســم أيضًــا. غير أنه لم يفكـر في هذه اللحظــة، حيث سيكون مقيــدًا. لم يكن معترضًا علــى الأمر؛ لكنه صار مقيدًا ولا يمكنه التحرك، ويجب عليه أن يهتم لشأن امرأتين؛ زوجة رستم المقعدة

التـي تعاني من صعوبة في النطق، وهي تجرّ نصف جسدها على الأرض بصعوبة، وزوجته شيرين.

توجه رستـم إلى الإصطبل. أمسك بزمام حصانه، وأخرجه إلى جانـب النخلة. وقف الحصان وراح يحفـر الأرض بسنابك حوافـره، ثـم طـوى أذنيـه الحادتـين إلى الأمـام تحـت أشعة الشمـس؛ كأن صـوت حوافره وهي تضـرب الأرض قد نزل على رأسـه. انحنـى رستم وأحكم حـزام سرج حصانـه جيدًا. لكن الجـواد لحسـ رأسه الأصلـع، فضحك ميثم. تفاجـأ رستم من فعلة الجـواد فوثب من مكانه. صهل الحصان وضحكت شيرين التي كانت تقف خلف النافذة، ثم استدارت بوجهها حتى لا يرى والدها ضحكتها من إطار النافذة؛ لكن صوتها ملأ الدار.

- هذا الحيوان يمازحنا أيضًا.

ابتلع ميثم ضحكته وقال: «لعله يقول...».

- لا حاجة لأن تقول شيئًا على لسان حصاني.

أكمـل رستم ترتيـب سرج حصانـه، ومسح علـى شعر رقبته الأسـود، وتابع حديثـه: «أنا أفهم لغـة جوادي أفضـل منك». ثم أعطـى رسن الحصان إلى ميثم، ودخل غرفة زوجته العجوز التي كانت تناديه وهي تنوح وتبكي. بعد لحظات خرج من الغرفة، أخذ الرسن من ميثم، وقال: «لا أريد أن أوصيكم بعد. يجب أن أسرع. لقد مضت أيام والناس يتجمعون في النخيلة». ثم تقدم نحو ميثم، ضمـه إلى صدره، وعانقه بشدة، ثم التفت إلى النافذة. كان يعلم أن شيرين تقف خلفها، وتمسح الدموع عن وجهها.

– استودعتك شيرين!

ثم قال بصوت مرتفع: «عزيزتي شيرين! انتبهي إلى والدتك أكثر».

وضع رجله في الركاب، وانطلق مسرعًا. ما إن عبر الممر الضيق، ودخل في الزقاق، حتى سمع خلفه صوت نضيض الماء[1]؛ لكنه لم يلتفت إلى الوراء، ومضى مستويًا فوق صهوة جواده الذي كان يتمايل بهدوء تحت هيكله الضخم كأنه جبل، وهو يبتعد أكثر فأكثر.

كانت شيرين تحدق في الأرض وهي خجلة تنتظر أن يقول ميثم شيئًا. فهي تعتقد أنها مقصرة في عدم ذهاب زوجها إلى الحرب؛ لكن ميثمًا أمسك يدها بصمت، وأدخلها إلى الغرفة بهدوء.

حين غادر رستم، أحسوا بالفراغ الذي تركه في البيت. كان البيت مؤلفًا من غرفتين فقط؛ غرفة له ولزوجته، والغرفة الأخرى لرستم. لقد بنيت الغرفتان وكانت تفصل بينهما مسافة، في حين كان يصل بينهما جدار الإصطبل؛ لأن الإصطبل يقع خلفهما تمامًا. وكانت شجرة النخيل تقع في الوسط بين الغرفتين. ولأنّ رستم لم يكن يرغب بقطع الشجرة؛ لذلك بنوا غرفة ميثم على مسافة منها.

حمل ميثم درعه المتوهج، وعلقه بالجدار إلى جانب الترس.

1 - سكب الماء خلف المسافر عادة [قديمة] للتفاؤل ودفع الشر.

كان الصمت يملأ المكان. كل شيء في الدار ساكن، إلا صوت بعض طيور الدجاج التي كانت تلاحق الحبوب داخل الإصطبل، وصوت أنين والدة شيرين، الذي كان يسمع بين الحين والآخر. جلس ميثم في الغرفة لبعض الوقت، أحس بضيق في صدره، لم يمض وقت طويل حتى تملّكه شوق شديد. شعر أن لا طاقة له على التحمل، وأمير المؤمنين خارج الكوفة. عندما لا يكون علي في الكوفة، فإنها تفقد بعضًا منها. هذا الشعور كان يتملكه بقوة، ولربما كان يشعر بالوحدة أيضًا. تمامًا كما كان في الزمن الماضي، عندما جاؤوا به إلى هذه الأرض مقيد اليدين. في ذلك الوقت، لم يكن وجود لمدينة أو دار. لم يكن سوى خيام سوداء منتصبة بعضها إلى جانب بعض. بعد ذلك أقيمت عرائش القصب. أما الآن، فقد بنيت البيوت الصغيرة والكبيرة. لقد كبر ميثم مع مدينة الكوفة. في الماضي، عندما أطلقت ماجدة عليه اسم «سالم»، كان يشعر بأن نصف وجوده يجيب فقط إذا ما نادوه بهذا الاسم، وعندما يسمع اسم سالم يحس في أعماقه بضيق وخواء، علمًا أنه كان يعتقد أن اسمه جميل. بقي الأمر كذلك، حتى جاء أمير المؤمنين إلى الكوفة، ووضع قدمه في دكانه، وذكره باسمه الذي نسيه، وكان أبوه يناديه به. عندما نطق علي بهذا الاسم، منحه الحياة مرة أخرى. حينها لم يقدر على التحمل، فانفجر باكيًا من أعماقه، وتذكر ماضيه المنسيّ، وذكرياته الصغيرة والكبيرة؛ حتى ملاطفة أمه، وضحكة أخته التي لا يعلم عنها شيئًا. تذكّر كل شيء،

وأُفعم وجوده بالإحساس دفعة واحدة، فلم يستطع إظهار كل ذلك سوى بالبكاء. حينها طفحت عيناه بالدموع، ولم يتمكن من إمساك نفسه عن الإجهاش بالبكاء. ثم شعر برائحة عطر بدن الخليفة، ولم يكن ليصدق أن يومًا ما سيمد رجل عربي يده ليصافحه؛ لكن الخليفة بنفسه ضمّه إلى صدره، وراح يلاطفه، ويهدّئ من روعه واضطرابه. تمامًا كما يفعل الوالد مع ولده. لم يكن يعلم حينها كيف تجرأ وأظهر ذلك الفعل. بالتأكيد لم تكن جسارة منه، فعلي أمير المؤمنين هو الذي أمسك ذراعه، ورفعه إلى الأعلى. حينئذ كان مثل ولد صغير ضائع، يبحث عن شيء يستند إليه، وفجأة أحس برأسه يتكئ على ذراع مولى المسلمين. أما علي فقد تحمله بأبوة، من دون أدنى غرور أو تكبر. بعد تلك الحادثة أصبحت علاقتهما علاقة المريد والمراد، ولم يعد يطيق بُعد الخليفة وعدم رؤية وجهه؛ فإذا مر يوم ولم يره، فكأنما فقد شيئًا. كان يجلس كل يوم في دكانه، وعيناه مسمّرتان نحو باب السوق، حيث مسجد الكوفة الكبير يقع في ذلك الاتجاه، لأنه يعلم أن عليًا إذا أراد أن يأتي إلى السوق، فإنه سيأتي من جهة المسجد. كانت عادة الخليفة أن يأتي دائمًا إلى السوق، فيجول فيه، ويتحدث إلى التجار، ويسأل عن أحوالهم ويعظهم:

- أيها الناس اتقوا الله، وأوفوا المكيال والميزان. معاشر التجار خذوا الحق وأعطوا الحق تسلموا، لا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره.

كان ميثم يعرف أن أمير المؤمنين في طريقه إلى السوق،

إذ كان يشم رائحة عطره، قبل أن يراه، وقبل أن يسمع صوت وقع قدميه. كان يشعر بوقع خطاه، وهو يمشي ببطء، منتعلاً ذاك الحذاء البسيط المخصوف. حتى لو أن مئة شخص كانوا يسيرون مع أمير المؤمنين، لاستطاع تشخيص خطواته ومتى يرفع علي قدمًا ويضع أخرى. لقد اعتراه هذا الشعور بعد ملاقاته صهر الرسول.

في الأيام الأولى، عندما كان علي يمر من أمام دكانه، كان ميثم يراه، للحظات، أينما نظر. كان يملك حسًا عجيبًا؛ لكنه لم يستطع وصف ذلك الشعور، حتى قال له علي يومًا «هذه العلاقة ذات طرفين» [محبة متبادلة] لكن أين هو، وأين خليفة المسلمين؟ وهو العبد المحرر الذي عطف عليه الخليفة وأحبه. كان إذا رأى أمير المؤمنين نظر إليه بتلك النظرة المختلفة، وطأطأ رأسه. وحين يدخل علي إلى دكانه، يفقد توازنه، ويسرع إلى كرسي قد وضع عليه شيئًا من القماش القديم ليصبح أكثر نعومة، فلا تؤذيه حدبته حين يجلس عليه، فيقدمه ويضعه في مكان مناسب حتى يستطيع الآخرون رؤية وجه صهر النبيّ، ويسمعوا حديثه. بعد ذلك كان يدعوه بإطراء ليتناول من التمر الموضوع جانبًا، فيضحك علي ويقول له: «لا فرق بيني وبين سائر الناس والمشترين، سوى أن حملي أثقل وتكليفي أكبر». بعد ساعة من الوقت كان أصحاب علي يدركون أن عليهم أن يذهبوا، ويتركوه وحده مع ذلك الشاب الفارسي. كان ميثم يعشق تلك الكلمات التي تخرج من فم علي، بينما أمير المؤمنين يحدثه بكلام

يصعب تصديقه؛ يحدثه عن أشياء حدثت في الماضي البعيد، إلى حوادث ستقع في الآتي من الأيام. كان يظهر له أشياء يهتز لها بدن ميثم؛ فكان يحدث أن يمرّ أحدهم من أمام الدكان فيخبره الإمام بما سيفعله هذا الشخص في المستقبل؛ أشخاص لم يكن ميثم ليتقبّل أنهم يقدمون على أعمال خطيرة كهذه. لكن عندما كان أمير المؤمنين يرى أن حديثه قد حير الشاب الفارسي، وجعله مضطربًا، عندئذٍ يغير حديثه، ويسأله عن أصناف التمور وأسمائها.

- سيدي! هذا النوع من التمر اسمه «برني»، ونحن العجم نقول له «برنامك». وهذا التمر الذهبي يقال له «المشان». وهذا عند العرب «أم حرذان».

ثم يضحك ميثم ويتابع «لست أعلم ما الشيء المشترك بيننا وبين الفئران، فنحن البشر نحب التمر، والفئران تحبه أيضًا».

ثم يقدم سلة في قعرها قبضة من التمر الجاف، ويتابع حديثه: «هذا أيضًا تمر يدعى السابري، إنه أبيض ولذيذ؛ عيبه أنه سمج إلى حد ما ويلتصق بالأسنان».

ثم يتناول السلة التي دعاه بداية ليأكل منها، من تحت أشعة الشمس، فتمرها من أجود التمور، وحباتها كبيرة، ولونها أحمر يميل إلى الزرقة، تلمع مثل الياقوت.



– مـولاي! هـذا النـوع لا كلام عليه، حلو وطيـب، ويذوب في الفم مثـل الزبدة، وفيه شفاء مثل العسل. هـذا في لغتنا نسميه «نرسيان»، لكن لا أعلم ماذا يسميه أهل هذه المنطقة.

وحـين كان عليّ يمسك بيـده، كان ميثم يعلم أن موعد صلاة الظهـر قد اقـترب، عندها يحنـي رأسه إلى الأرض احترامًا، ولا يـدري ماذا يقول من فرط الشوق. ثـم ينهض أمير المؤمنين ويسـير بهدوء مبتعدًا عـن الدكان. أما ميثـم فيتابعه بنظراته، وهـو متوجه برفق ووقار نحـو الضوء، حيث ينتهـي السوق. وما إن تمضـي لحظات حتى يمتلأ دكانه بالنـاس، يحدوهم الشوق لمعرفـة «ما كان يريد منه الخليفة، وماذا قـال له». كانوا يودّون سماع كلام الخليفـة، خصوصًا، بائعو التمر الأعاجم، والموالين الآخرين الذيـن تغيّرت أحوالهم مع قدوم الخليفة الجديد. لقد اختلفت أوضاعهم «كاختلاف الأرض عن السماء»؛ فلم يعد أحد



ينظر إليهم بازدراء واستخفـاف. لقد قال علي خليفة المسلمين أن لا فـرق بينه وبين خادمـه، فكيف مع الآخريـن، وهم جميعًا أبنـاء آدم وحـواء؛ متسـاوون ولا فـرق بينهم. منذ اليـوم الأول سـاوى بـين الجميع في قسمة بيـت المال، ولم يفـرق في العطاء. وعندمـا اعترض بعض كبار العرب، وقف على مرتقى أمام بيت المـال وقال: «لا فرق بـين عربي وعجمي ولا بـين أبيض وأسود»، ثم قـال: «الجميع لهم الحق نفسه وبالتسـاوي». ولو أن الخليفة أعطاهـم أقل من ذلك لما اعترضـوا؛ فقوله «لا فرق بين الناس» كان بالنسبـة إليهم كافيًا. ناهيك عن أن الخليفة بدل أن يجلس مـع الأشراف من العـرب - كما كان يفعل الخلفـاء السابقون- يأتـي إلى دكان صغيرة لشاب غير عربـيّ، ويجلس على كرسيه

ويحدثه. وأحيانًا يجتمع الناس فيكلّمهم ويتحدث إليهم. كان احتجاج الأعيان والسادة المليء بالكنايات يزعجهم:

– لقد وصلت الحال بنا، ونحن القوم الذين اختارنا اللّه، لأن يجلس الخليفة على كرسي رجل أعجمي.

– الأسوأ من ذلك أنه يجلس على كرسيه، بينما يرسله لينجز أعمالًا هامة.

– هل يعني ذلك أن العربي الذي نزل كلام اللّه في بيته، يساوي الإنسان الذي ولد من أب كان يعبد النار؟

– أنا قلق من هذه الحال. فإذا بقيت الأمور تسير على هذا النحو، فلن يطول الأمر حتى نرى هؤلاء الأعاجم، الذي لا أصل لهم ولا نسب، يمتطون ظهورنا.

– في الأساس، لماذا لا يسير علي على سنة الخلفاء السابقين؟

– ها ها ها! ألم تسمعوا مواعظه التي يرددها على مسامعنا ليلًا نهارًا؟

تابع الرجل ذو البطن الكبير كلامه وهو يتحدث بحقد وكراهية:

– يريد أن يعمل بسنة رسول اللّه، وبكتاب اللّه. كتاب اللّه فيه آيات كثيرة معطلة؛ إنها كثيرة إلى حد أنه لا يستطيع الوصول إليها جميعًا، يا أبا زائد!

– سمعت أنه يقول: لا فرق بيني وبين خادمي، وأنه لا يضع على سفرة طعامه سوى لون واحد من الطعام. إذا كان الأمر كذلك، فلأجل من خلق اللّه كل هذا الطعام الحلال والطيب؟

لأجل شخص يعبد النار، أو...

– لا. ليس هذا هو النهج ولا نهج الخلفاء السابقين. برأيي يجب أن يتعامل مع كل إنسان بحسب شأنه ومنزلته.

– يقول إنّه يريد أن يعيش مثل أفقر إنسان في مملكته.

– هذا ينقضي. فليفعل علي ما بدا له.

– ماذا تقول أبا زائد! حتى ينقضي هذا، فلن تبقى أنت ولا أنا. على كل حال، أنا قلت: يجب أن نفعل شيئًا. إذا استمر هؤلاء المشردون الأعاجم في الحصول على القوة بهذه الصورة، ففي النهاية ستحل الكارثة علينا، وسيكونون هم السبب في ذلك.

– لا أعتقد أن ذلك اليوم سيأتي. فعن قريب سوف تنقلب الأمور، وسوف نضع الأَعنّة في أعناق هؤلاء الحُمر الوحشية البوادن[1]، ونحزمها بشدة أكثر من ذي قبل. عندها سنجرهم من أعناقهم بقوة، بحيث يتمنون الموت.

كان العبيد والخدم يخبرون ميثمًا بأحاديث أسيادهم؛ فيضحك ميثم ويقول: «أمير المؤمنين يعلم كل ذلك، ولا يخفى عليه شيء. إنه يعلم ما يقول كل شخص منهم، وماذا يدور في خلده حتى لو كان في ركن بيته».

وقف ميثم عند عتبة السوق. لم تطاوعه قدماه على السير باتجاه دكانه. بينما هو كذلك، إذا بفارس يعبر مسرعًا، وعليه مدرعة براقة، وفي يده تخفق راية بيضاء. توجه إلى المسجد. لم

1- الوحشيّين البدينين.

تمض لحظات حتـى صدح صوته قائلًا: «يا أهـل الكوفة! قريبًا سيصدر أمـير المؤمنين أمر التحرك. غـدًا ستُجمع الخيام من النخيلـة، وعند الفجر ننطلق نحو الشام. أيهـا النـاس! انتبهوا، مـن بقـي منكـم وأراد الالتحاق بأمـير المؤمنـين، ومرافقته في الحرب، فـالآن وقته؛ فليلبسـ درعه، وليحمل سيفـه، وليتجهز للحـرب. يا أهل الكوفة! يـا من ترغبون في النصـرة، لقد حان الوقـت كي تجعلوا صدوركم دروعًا، وأرجلكم أوتادًا، وأن تثبتوا، حتـى نتوجه جميعًا إلى الشـام، ونسحق رأسـ الأفعى؛ ابن أبي سفيان، ونزيل وصمة العار هذه من على وجه الأرض».

- يـا أهـل الكوفـة! يـا جنـود الإسلام! يـا من تفـدون عليًا بأرواحكـم. أيهـا النـاس، يا مـن لا تزال قلوبكـم متعلقة بالدور والبنين! لم يبق من فرصة أخرى. يا من رهنتم قلوبكم لعلي! ألم يحـن الوقت كي تمتشقوا سيوفكـم من أغمدتها لتكون مع سيف ذي الفقار، فتخضع أهل الكذب والخداع؟

كانـت كلمات مالك الأشتر تهـوي على ميثم كالمطرقة، بينما هـو حائر لا يدري ماذا يفعل. فمن جهـة كان يتحرق من الشوق ليكـون مع صهر النبي في تلك الحرب، ومـن جهة أخرى، كانت رعاية المرأتين بعهدته؛ تلكما المرأتان اللتان لا تعرفان أحدًا، وهو



أعطى عهدًا بأن يعتني بهما. ذلك العهد الذي أعطاه لرستم كان يمزقه من الداخل. اختنق ميثم بعبرته، ولم يقدر على البكاء. كان يقبض على يديه، ويتمنى لو يضرب الجدار برأسه.

بعدما أنهى مالك الأشتر كلامه، غادر ميثم عتبة السوق عائدًا، ثم انحرف بطريقه، والحيرة تأخذ منه مأخذًا؛ لكنه لا يدري أين يذهب. فلا دكانه تُسكن حيرته وتشتّته، ولا داره أيضًا، فكلاهما مثل الأفعى، كأنهما يريدان ابتلاعه. ماذا يمكنه أن يفعل؟ وأين يجب أن يذهب؟. سار نحو المسجد ببطء. كانت قدماه تخطان الأرض، وتدوسان على الرمال الحمراء والملونة، وهو يحاول أن يستسلم لصوت الحصى الناعمة، فلا يريد أن يسمع إلا صوتها. بدا صحن المسجد الكبير خاليًا يلفّه السكون. لم ير أحدًا هناك. تقدم أكثر حتى وصل إلى المكان الذي لطالما وقف فيه أمير المؤمنين للصلاة. فحتى في الليالي التي كان يخرج فيها ميثم برفقة علي إلى بساتين النخيل - تلك الليالي التي كانا يقضيانها معًا حتى السحر، يخطّان الأرض بأرجلهما، وعلي يحدثه ويجيب عن أسئلته- كانا يرجعان عند الفجر إلى المسجد، حيث يقف علي للصلاة. تأوه ميثم بحرارة. لا شيء يمكن أن يسكن قلبه سوى الصلاة. كانت عيناه تطفحان بالدموع. كيف يستطيع أن يكمل حياته إذا لم يعد أمير المؤمنين من هذه الحرب حيًّا.

اللّه أكبر...



كان صـوت صـراخ شيريـن يخرج من بـين أسنانهـا، فيلفّ العتمـة، ويكسـر صمـت ذلك الليـل المهيب. كان ميثـم يعلم أن زوجتـه الشابة تضع قطعة قماش في فمها، حتى لا يسمع صوتها أحد. صـراخ شيرين جعله يرتجف، ويشعـر بقلق شديد في برد ذلـك الخريف اللاسع. فالليل قد انتصـف، وميثم لا يدري إلى مـن يلتجئ. أما والدة شيرين التـي لا تستطيع التحرك، فكانت تحـاول بغصّـة أن تقول شيئًـا؛ غـير أن كلماتها لم تكـن تُسمع بوضوح، إذ بدا صوتها مضطربًا وقد اعتراه قلق شديد.

أمسكت شيريـن ذراع زوجها، فكانت تضغط عليه بأظفارها الحـادة بقوة، مـا جعله يدرك شـدة معاناتها، ويـدرك كم هي تتـألم! أحيانًا، عندما كان الألم يشتد عليهـا، وتشعر كأنه أفعى تتلـوى داخل عظامهـا، تترك زوجهـا، وتذهب ناحيـة الجدار، فكانـت تدخل رأسها في كوة فيه، وتقبـض بأسنانها على وسادة كانـت في تلك الكوّة، ثم تعود بعـد أن يهدأ الألم قليلًا. حين رأى ميثـم على ضوء الشمع دمـوع زوجته، وهي تنظـر إليه بتضرع، قال: «ماذا عليّ أن أفعل يا عزيزتي»؟.

وضعت شيرين يدها على بطنها، وجلست عند زاوية الجدار.

قالت المرأة العجوز بعد أن تمكنت من النهوض بنفسها قليلًا:

- اذهب وأخبر أحدًا.

- أنا لا أعرف أحدًا، والجميع في منتصف هذا الليل نائمون.

توجه ميثم إلى زوجته، وساعدها على الوقوف. كانت تتألم بشدة. وضعت فمها على ذراع زوجها، وضغطت عليه بأسنانها حتى لا يخرج صراخها، فاختنق صوتها في حنجرتها.

- إذا لم تسرع فسوف تموت.

نظر ميثم من النافذة؛ العتمة في الخارج تلف المكان. من يستطيع أن يساعدهم في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ كم كان جيدًا لو أن رستم هنا الآن! إنه صديق كثير من الناس.

- قابلة!

تمهل ميثم قليلًا ريثما تهدأ شيرين. بعد ذلك توجه نحو الباب، لكن قلبه لا يطيعه أن يترك زوجته وحيدة في هذه الحال. ليت «سودابة» لم تكن مريضة، ولم يصبها داء الفالج.

نهضت شيرين وأمسكت خاصرتها، ثم ألقت برأسها على الجدار ووجهها مقطب؛ ونادت «يا الله».

- اذهب يا ميثم، اذهب وافعل شيئًا.

وضع ميثم قدمه في عتمة الزقاق، وانطلق وهو متوجس. كان يتقدم بضع خطوات، ثم يتوقف ليرى إن كان صوت زوجته يُسمع أو ... ثم ينطلق مجددًا. كان الزقاق خاليًا وساكنًا. لم يكن يضيئه مصباح واحد. تابع سيره حتى وصل إلى الجسر

الخشبـي. أراد أن يضع قدمه فوق الجسـر، حينها أدرك أنه لم ينتعـل حذاءه؛ لكنه أكمل طريقـه. أيّ باب يجب أن يطرق؟ كان عليـه أن يفكر في أول الليـل، وليس الآن وقد انتصف، وقد نامت العيون ولا أصوات سوى عواء بنات آوى، ونباح الكلاب. لكن من أين كان يعلم أن طفله سيأتي إلى الدنيا في منتصف الليل؟

توجـه ميثم نحـو دار الإمارة وهـو حائر. لعله يـرى شخصًا هنـاك، أو لعـلّ جنديًـا يراه، فيسألـه ماذا يفعل وحـده في هذا الليل. لكن محيط القصر كان خاليًا ومخيفًا؛ فبابه لم يفتح منذ



أن قـال أمير المؤمنـين: «لا تدخلوني قصر الخبال هذا»، ناهيك عـن خلوّه من الحراس والجنود! لقد تحول إلى مخزن وإصطبل للخيول.

كانت لسعات الصقيع تهبّ من جهة الفرات، فتخبر أن فصل الشتـاء قـادم. أساسًا، لماذا لـوى طريقه نحـو دار الإمارة؟ مرّ بجانـب دار الخبال الفـارغ، وتوجه إلى المسجد. مـاذا يقول إن استوقفه أحدهم؟

- إلهي أغثني!

أبطـأ الخطى قرب دار جعدة. السكون سيد الموقف ولا صوت مـن هناك؛ فأمـير المؤمنين وجميع أبنائـه في الحرب. لم يسمع سـوى صوت بضع إوزات قلقـة كانت تثير جلبة. وقف لحظة، ثم ما لبث أن مضى.

بعد كل تلك السنين التي عاشها ميثم في الكوفة، هو الآن يشعر بالغربـة والوحشة. شعور يقول له: «كم هي غامضة هذه المدينة! عندمـا تحتاجها تتركك وحيدًا». وصل إلى المسجد. وقف أمامه للحظـات عله يرى أحدًا. كان في آخـر المسجد عدد من الرجال الطاعنـين في السن، كانوا بين راكـع وساجد. ماذا عن النساء؟ أفي هـذه الليلة الباردة؟! ضحك من نفسه على هذه الأفكار، ثم نظـر إلى السماء الصافية، فكلما صفت أكـثر، اشتدت لسعات بردهـا أكثر. في تلـك اللحظات مرّ رجل مسـنّ يضرب بعصاه، ودخل المسجد وهو يهمهم.

- إلهي أرسل لي شخصًا واحدًا!

لم يقر لـه قرار. تحرك نحو السوق. لمـاذا لا يوجد أصوات؟ أليس هناك مـن طفل يبكـي، فتستيقظ أمه علـى صوت بكائه لتهدئـه. لعله حينهـا يستطيع أن يـدق بابًا. لم يـدرِ كيف أخذه الطريـق إلى سـوق السمك. وقف أمـام دكان رستم الفارغة. لا بـاب لها، كانت عبـارة عن أربعة جدران، وستـار معلّق أمامها. لكن رستم ليس موجودًا الآن. كان ميثم طوال تلك السنوات التي مضـت كلّما شعر أنه بحاجة إلى أن يتحـدث إلى شخص، وجد الطريـق قد انتهى بـه إلى دكان رستم. لكنه ماذا يفعل هنا الآن في هذه الليلـة الباردة؟ فرستم تركه منذ مدة، وذهب مع جيش أمير المؤمنين إلى صفين. وحتى الآن، لا خبر عن الحرب، ولا عن أي شـيء آخر. يقول الرسل الذيـن كانوا يأتون من جهة الشام، إن أمـير المؤمنين يسعى جاهدًا ليعيـد معاوية إلى طريق الرشد والعقل، علّه بذلك يحقن دماء المسلمين، فلا تقع الحرب.

كان ميثم يرتجف؛ لكن من البرد يا ترى، أم من شدة القلق؟ كانـت قدماه العاريتـان تغرقان حتى الرسـغ في نهر صغير يمر وسـط الزقـاق. لم يتوقف. مضـى وهو ينظـر إلى السماء. كأن القمـر راح يبتسم بوجهه الدائـري الكبير؛ لعله يريد أن يتباهى بعظمتـه. وقف ميثـم هنيهة يصغي؛ لا صـوت، ولا حركة. وكأن ذلك كان مقدرًا؛ فهو يعاني هنا، وشيرين في البيت تتألم وتعاني أيضا. كانت الأفكار المشتتة تشوش فكره من كل اتجاه.

- أسرع يا ميثم، فالطفل يختنق.

- ماذا لو أصاب شيرين مكروهٌ ولم تنجُ من هذا الأمر؟

وضع كفيه على الجدار، وراح يتضرع بألم وحزن.

- إلهي... يا إلهي الواحد...

كان ميثم شارد الفكر. أي امتحان هذا؟ كان حائرًا في تلك المدينة. راح يمشي في كل اتجاه. بدت الكوفة مدينة أرواح، وكأن الجميع قد ماتوا. لم يكن يسمع غير صهيل الخيول، وصوت اجترار الإبل من خلف الجدران. كان يسير في كل اتجاه، عله يرى أحدًا. لم يكن في ميدان الكناسة سوى بضعة كلاب، تنطلق خلف بعضها بعضًا في قطيع، وتلتفّ حول أكوام القمامة مطلقة أصوات عوائها.

في تلك الناحية من ميدان الكناسة، كانت تنتصب بضعة بيوت غير مكتملة البناء، وقد تُرك بعضها في منتصف العمل. لقد ذهب أصحابها مع جيش أمير المؤمنين إلى الحرب. لكن بعضا الآخر - كبيت ابن حريث- كان دارًا مؤلفة من طبقتين. لم يكن ابن حريث قد أتى بعدُ للعيش فيها. توجه ميثم إلى نخلة منتصبة أمام دار عمرو بن حريث. طاف حولها، ثم أمسك بجذعها، ونظر إلى السماء، فلاح له قرص القمر. كان القمر يرتجف بين أغصان النخلة وأوراقها؛ كأنه يريد أن يُشعره بأنه مضطرب مثله. لماذا لا أحد يفكر بحاله؟

- إلهي...

في تلك اللحظة تدافعت الذكريات في ذهنه وتزاحمت؛ ذكريات من زمن بعيد بعيد، حين أخذوه أسيرًا من النهروان، وجلبوه إلى الكوفة. لقد جمعوا الأسرى حول هذه النخلة.

تلك الذكريات جعلته يرتعش وينتفض، ويصيح لا شعوريًا: «ماجدة»... ركض مسرعًا لا يلوي على شيء. لماذا لم يتذكر ماجدة في أول الليل؟ لماذا لم تخطر ماجدة في ذهنه؟ مضى نحو حي بني أسد. هناك منزل في طور البناء قد سدّ الطريق إلى قبيلة بني أسد. توجه نحو ذلك المنزل، ومشى فوق الأتربة والركام، ثم مضى مسرعًا من غير أن يلتفت إلى الجروح والآلام. قفز فوق الجدار، وعبر بين القمامة... اختفت الكلاب المذعورة في العتمة، ولم يبق لها أثر إلا النباح. كان أحيانًا يلتفّ حول الدور والأبنية التي لم تكتمل بعد...

لم يدر كيف أوصل نفسه إلى بيت ماجدة. استقبله الكلب بالنباح؛ كانت عادته كلما رآه يدفع الهواء في حلقه ويبدأ بالهرير.

- ماذا تفعل هنا في منتصف الليل يا سالم؟

رأى ميثم العجوز ماجدة واقفة بباب دارها، ممسكة بإطاره الخشبي.

- ساعديني يا أماه!

- ماذا جرى؟

تابع ميثم وهو يلهث: «زوجتي»

خرجت المرأة العجوز من الدار.

- هل حل بها مكروه؟

- ولدي!

دخلت ماجدة إلى الدار ثم عادت وعلى رأسها ملحفة بيضاء.

- أستحلفك باللّه يا أمي أن تفعلي شيئًا! إنها تتألم كثيرًا.

- اصبر قليلًا يا ولدي.

دخلت ماجدة إلى غرفة أخرى، انتعلت حذاء من ليف النخيل كانت قد صنعته بنفسها.

- أين مصباحك؟

- أسأل اللّه أن تبقى حية.

- لا تكن عجولًا إلى هذا الحد يا بنيّ! فعيناي لم تعودا كما في الماضي. ولم تجلب معك مصباحًا أيضًا.

- لم أكن أعلم ماذا يجب أن أفعل.

تباطأ ميثم ريثما تصل إليه ماجدة.

- اللّه كريم. لا تقلق كثيرًا.

أمسك ميثم بذراعها.

- لم تنسني إذًا؟

- لقد كنت لي أمًّا جيدة يا ماجدة!

- وأنت أيضًا يا سالم! كنت فتى لطيفًا.

تنحنحت ماجدة واتكأت على الجدار لتستريح قليلًا.

- سمعت أن الخليفة قد أبدل اسمك.

- لقد أعاد إليّ اسمي الحقيقي، ميثم.

- وحررك أيضًا. قليل من الناس ينالون حظوة التحرر على يد صهر الرسول.

لم يجب ميثـم. بل صبر حتى استعادت العجوز أنفاسها، ثم انطلقـا في وسـط ذلك السكـوت. غير أن ماجـدة لم تقدر على البقاء ساكتة.

- حسنًا فعلت أنك زرت هذه المرأة العجوز.

- اعذرينـي يا أمـاه أن جئت في منتصف هذا الليل؛ ولحاجة أيضًا...

- ماذا تقول يا بني؟ لقد كنت رجل بيتي.

أعانهـا ميثم حتـى عبرت الجسـر الخشبي براحـة. عندما وصـلا حاول ميثم أن يصغـي جيدًا؛ لكنه لم يسمـع صوت أنين شيرين، فأغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا.

- ما زلت شابًا يا ميثم! أما أنا العجوز فقد قطعت أنفاسي.

فتح ميثم الباب. كانت الشمعة قد بلغت نهايتها، وما بقي من فتيلتها ضارب إلى الحمرة. وقفت ماجدة عند عتبة الباب. كان بكاء شيرين وأنينها المختنق يأتي من جهة زاوية الغرفة.

- أسرع ! هات المصباح وسخن قليلًا من الماء. أسرع.

تقدمـت المرأة العجوز وأمسكت بـذراع شيرين، وطلبت منها أن تقف، لكن المرأة الشابة لم تتحرك، فصرخت العجوز بغضب وأمرتها بالوقوف.

-أسرع يا ولدي! سخن الماء.

جلب ميثـم شمعة جديدة، ووضعها في كوة الجدار، ثم ذهب مباشرة إلى الخـارج، جمع بعضًا من الحطـب وسعف النخيل،

وألقاها فوق الجمر الذي كان لا يزال تحت الرماد، وأشعل النار. ثم وضع فوقها قِدرًا ملأه ماء، وراح يلقي بأوراق النخيل اليابسة في النار، حتى تستعر أكثر فأكثر.

كانت ألسنة النار تخرج من الجهات الأربعة تحت القدر النحاسي، وترتفع عاليًا، وتصدر أجيجًا، بينما ميثم يوجه أذنيه نحو النافذة؛ حيث ماجدة تطلب من زوجته أن تمشي ولا تتوقف.

-ألم يسخن الماء؟

-حالًا...حالًا...



أمسك ميثم بحوافي القدر، ورفعه عن النار. كان القدر ساخنًا إلى درجة كانت كافية لأن تحرق جلد يديه؛ لكنه بقي ممسكًا به ولم يتركه، حتى أوصله إلى خلف الباب. وضعه وقال: «الماء». ثم رجع إلى

الخـارج، حيث ألقى برأسه على جـدار الإصطبل. لم يستطع أن يمسك دموعه، فانهمرت على خديه دفعة واحدة وهو يردد خلف شفتيه الصامتتين: يا رب...يا رب...

لم يكـن ميثم في هـذه اللحظات يسمع صـوت شيرين. أحسّ بغصـة في حلقه، وتلاشى القمر أمام عينيـه وصار مظلمًا. راح يتمشـى في العتمة وهو خائف متردد. استدار برأسه إلى الوراء؛ نظـر إلى توهج جمر الموقـد. كانت الريح تهب فيتـلألأ وميضه أكـثر، لكن مـا إن تهـدأ الريح ، حتـى تغطيه طبقـة رقيقة من الرمـاد. ارتفع أنين شيرين فتأوه هـو أيضًا، ثم دوى صوت بكاء المولود الجديد في الدار.

- اجلب وعاء الماء يا ولدي!

- إنه خلف الباب.

- تعال! اجلبه بنفسك إلى الداخل؛ فلا يوجد أحد ليساعدني.

شـق ميثـم البـاب إلى النصـف، وأدخل قدر المـاء، ثم رجع ووقف قرب النخلة، وراح يتأمل القمر. كانت هذه الليلة بالنسبة إليه بمنزلة عمر مضى؛ ولعلها كانت بطول تاريخ كامل. مرت في ذهنه ذكريات. ذكريات بـكاء، وضحك؛ ضحكة شيرين عندما كانـت تراه من النافذة، فتركض إليـه مسرعة، وتناديه باسمه، وتجلب له الماء حتى يغسل يديه... هل ما زالت على قيد الحياة؟ أغمضـ ميثم عينيه. بماذا يجيب رستم إن هي خسرت حياتها؟ لقـد قال لي هاتـان المرأتـان أمانة في عنقك. ليتـه ذهب وبقي رستـم مكانه. لمـاذا لا يسمع صـوت شيرين؟ حبسـ أنفاسه في

صدره. لماذا لا تقول ماجدة شيئًا؟ ما هذه الليلة التي لا تنتهي؟!

ارتفع صوت الأذان من بعيد.

- قولي شيئًا يا ماجدة؛ أيتها المرأة الحنونة!

كانت عينا ميثم مسمرتين نحو الباب، وأذناه مصغيتين باتجاه النافذة. كان يمشي حتى باب الغرفة ثم يعود. لماذا لا يقول أحد شيئًا؟ إنه عمل النساء، ويعلم أنّ عليه الانتظار. لكن ماذا لو أن شيرين... لم يستطع حتى أن يتخيل ذلك. كان لصوت الأذان في تلك الليلة رونق مختلف. فجأة سمع صريرًا. ركض نحو الباب.

- شيرين؟

- لا تقلق. لو تأخرنا قليلًا لفقدناهما معًا.

انفجر بالبكاء من شدة التأثر.

مبارك...

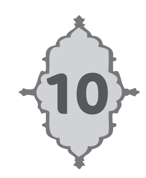
علا صوت بكاء المولود الجديد، فتغير وجه ميثم على شعاع النار الموقدة، وارتسمت البسمة على شفتيه.

- لقد أغمي على زوجتك، لكنها الآن بخير. اسأل اللّه أن يجعله ولدًا صالحًا.

ارتفع صوت بكاء الطفل أكثر.

- تعال إلى الداخل.

وضعت ماجدة المولود الجديد المقمط بملحفتها البيضاء بين ذراعي والده.



– السذاجـة والجهل هما السبـب في ضياع كل شيء يا ميثم! كان الأمر فظيعًا.

– يعني أن معاوية قد هرب بهذه السهولة؟

– لـولا سذاجـة بعض أهل الظاهـر لشهدنا أمـرًا آخر. ليت ذلك الماكر فرّ وحسب. لقد مزق صفوف أهل الكوفة بمعونة ابن العاص.

– يعني أصـاب هدفين بسهم واحد. لقـد أحدث تصدعًا في صفوف أهل الكوفة، وفرّ من المعركة[1] أيضًا.

لم يكـن رستم ذلك الرجل الذي يلقبه العرب بأبي الفوارس، ولم يكـن ذلك الشخـص الذي خرج من الكوفة مـع جيش أمير المؤمنين مفعمًا بالشوق والحماسة؛ بل كان كئيبًا وحزينًا.

كان «صالـح» حفيد رستم الذي بلـغ سنته الأولى يجلس على ركبتـي جـده، وكان يستديـر أحيانًا ويعبث بلحية جـده الطويلة البيضـاء، بينما رستم يمسح بيده العريضة، التي تشبه الكأس، علـى شعر حفيده الأشقـر الناعم، فتحيط برأسـه مثل القبعة. لقـد مضى أكثر مـن عام حتى تمكن الرجـال الذين ذهبوا إلى

1- مركة صفّين.



الشـام من العودة إلى الكوفة؛ لكن بـأي حال عادوا! فالكوفة لم تعـد كما في السابق، وهذا ما يعرفه الجميع. كان ميثم أكثر من شعر بهذا الأمـر، فهو تاجر ويتعامل مع الناس في السوق؛ كانت مشاعر ممزوجة بالكراهيـة والاستياء، ولربما شعور بالخديعة وتحطيـم الكبرياء. فجنود معاويـة استطاعوا أن ينجحوا بالمكر والحيلـة، وتمكنوا من خداع أهل الكوفة برفعهم المصاحف على رؤوس الرمـاح. ثم جـاءت قضيـة التحكيم؛ حيث خـدع ممثلُ معاويـة الحكـمَ الذي عينـه الكوفيـون، ونصب معاويـة خليفة



للمسلمين. تلك الحيلة فرقت جموع الكوفيين، وجعلتهم يشعرون بالخيبة واليأس.

كان ميثم إذا ذهب إلى السوق، تحسّر بشدة على غياب أصدقائه وأصحابه. لقد تركوا خلفهم فراغًا كبيرًا. أين هاشم المرقال الذي كان يرافقه في حراسة أحياء الكوفة وأزقتها؟! كان شابًا بارعًا ورشيقًا على الرغم من صغر سنه، وجرحه الذي أصاب يده. كان الجميع ينادونه «عقابًا»؛ فهو يملك يدين قويتين، وساقين صلبتين تشبهان الأعمدة القوية. كان إذا عانقه سُمع صوت عظام ترقوته، فيضحك ويقول: يجب أن نتصارع يومًا ما لنرى من فينا هو الأقوى. أما الآن فلا هو موجود ولا صوت ضحكاته. وعمار أيضًا لم يكن موجودًا، لقد رحل ورحلت معه تلك النظرات التي كانت تمنح السكون والطمأنينة. كان ذلك العجوز إذا رآه ضحك وقال: «سلمان آخر من أبناء فارس». كان يضحك حتى تظهر أسنانه التي ضمرت حتى لصقت بلثته. عندما كان ميثم يذهب إلى أمير المؤمنين، يرى دائمًا ذلك الرجل المسنّ «عمار بن ياسر» واقفًا بجانب الباب، وكأنه ينتظره. فكان عمار يمسك يده بلطف، إذا دخل الدار، ويستوقفه، فلا ينزع يده من يد ميثم حتى ينزعها ميثم أولًا. وكان يعانقه ويقول: «أتعلم يا ميثم بمن تذكرني؟» فيضحك ميثم ويجيب: « ليس من العرب» فيقول عمار: «لا فرق بين عربي وعجمي يا أخي! لقد سمعت ذلك من رسول الله» ثم يلبث قليلًا ويقول: «عيناك الثاقبتان الحزينتان تذكرانني بأخي سلمان».

«لقد سمع ميثم باسم سلمان، لأول مرة، على لسان عمار بن ياسر. سلمان الذي طوى طرقات طويلة وصعبة حتى وجد ضالته. فقد ابتلي باللصوص، ثم بيع عبدًا، ثم سجن فترة من الزمن، حتى انتهى به المطاف في المدينة. هو أيضًا كان عبدًا لامرأة؛ لكن الفارق بينهما، أن سلمان كان عبدًا عند امرأة يهودية، إلى أن مرّ الرسول يومًا، فرآه يعمل في بستان نخيل، فاشتراه وحرره، وصار من آل الرسول. لقد عدّه الرسول من أهل بيته. ما أشبه قصة حياتَيهما! ميثم أيضًا اشتراه علي أمير المؤمنين، وصار صاحب الخليفة في الكوفة، وأمين أسراره».

– كان سلمان رجلًا عفيفًا وتقيًا يا ميثم! مثلك تمامًا. أحبّه رسول الله حبًّا جمًّا، كما يفعل أمير المؤمنين. إن عليًّا يحبّك ويقدّرك.

– ماذا تقول يا رجل! أين أنا بائع التمر وابن بائع التمر، وأين أمير المؤمنين! ما إن قال ميثم ذلك حتى طفحت عيناه بالدموع. عند ذلك ضمه عمار مرة أخرى إلى صدره، وهمس في أذنه: «لا تقلّل من شأنك يا أخا الفُرس، فأنت تعلم أن عليًا يحبك كثيرًا».

كانا عندما ينتهي حديثهما يدخلان إلى الدار، ويعبران بالقرب من بئر كان أمير المؤمنين قد حفرها بنفسه؛ بئر لا يوجد في المحيط نظيرٌ لها في عذوبة مائها. ثم يتوجهان إلى الغرفة التي يجلس فيها أمير المؤمنين وحيدًا.

مر ميثم بجانب دار جعدة وهو يتأوه ويتحسر. كان يشعر بخلو مكان عمار، وكان يشعر كأن ثقل امتداد نظراته ما زال جاثمًا

على كاهله. أكمل مسـيره، ومضى من أمام مسجد الكوفة. لقد اشتاق إلى تلك المرأة العجوز؛ صوت ماجدة كان يمنحه السكون والطمأنينة. تلك المرأة العربية كانت تعرف الجميع جيدًا، وتعلم مـا يدور في رأس كل قبيلة. قالت يومًا: لـو يعلم هؤلاء الكِنْديّون الذيـن هـم مع علي اليـوم، أن السلطـة ستعشش في وكرٍ آخر، لانقلبـوا على أعقابهـم، ولسلّوا سيوفهم لهـدف آخر. فالقبائل التـي اجتمعت في الكوفة كانت مختلفة الأفكار. كانوا جميعًا من العـرب، وكان العجم والفرس بينهم مثل الطين الذي يوضع بين لبنات الجدار فتجمعها وتلصقها بعضها إلى بعض. لكن العرب أنفسهم لم يكونوا على قلب واحد على الرغم من تجمعهم. هذا الأمر كان يقلقه كثيرًا؛ حتى أنه قال لأمير المؤمنين ذات مرة: إن قومك على لسان واحد ولون واحد، لكنّ في قلوبهم أفكارًا شتى. عندهـا أمسك أمـير المؤمنين معصمه بلطـف، ونظر في وجهه؛ فقـرأ ميثم في عينيه! إني أعلم منك بهـذه المدينة المتقلبة بألف صورة ووجه.

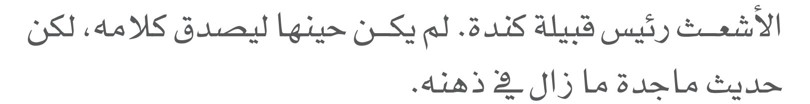
انعطـف ميثم نحـو دار ابن حريث التي سُكنـت مؤخرًا. كان عـدد كبير من الرجال قد تجمعوا قـرب النخلة، ينحرون جملاً عنـد زاوية ميـدان الكناسـة. كان الخنجر لا يـزال منغمسًا في لبّـة البعير، بينما الحيوان الضخـم والقوي يهدر ويقاوم بشدة، ويحـاول أن يستعصي على الرقود. أمـا الرجال فكانوا يمسكون بالحبـل في عنقه، ويشدّونه إلى الأسفل، حتى يجثو على الأرض. كانـت الدماء تفـور إلى السماء عند كل هـدرة يطلقها الجمل،

حتــى صبغت جدار بيت عمرو بــن حريث. في نهاية الأمر، شخر البعــير شخرة قويــة محاولاً أن يحرر نفسه، لكــن الرجال كانوا أقــوى منه، واستطاعوا أن يثبتوه بقوة. مع مرور اللحظات نزفت دماؤه أكثر فأكثر، فضعف الحيوان وسقط إلى الأرض.

لم يستطع ميثم تحمل ذلك المشهد، فتجاوز الرجال ومضى. كان يفكــر في نفسه؛ إنه مجروح مثل هــذا البعير، إلاّ أنّ جرحه مــن دون شاهد أو علامــة. ودّ في تلك اللحظات لــو أنه يتحدث إلى أحــد مــا. لكن لم يجد أحدًا ليكلمه. أيــن يذهب؟ توجه إلى ســوق السمك، يعــرف أن رستم ليس هنــاك، فدكانه صار مثل خرابــة من غير صاحب. لقد انهار سقفه، وخرّ سعف نخيله إلى الأرضــ. لم يعد سوق السمك برونق الماضي في غياب صياح أبي الفوارس.

- ما خبر رستم؟

كان مــزاج ميثــم فاترًا، فلم يجب الفتــى الجالس على حافة تخــت السمك ينتظر المشتريــن. ابتعد عنه بهــدوء، ثم انعطف خلف محلات بائعــي القماش، وتابع سيره علــى الرغم من بُعد الطريــق. كان قلبه مليئًا بالحزن والأسى، وصدره مثقلاً بالألم. كان يــود لــو يتحدث إلى أحدهــم، لكن مع من يتحــدث؟ فأمير المؤمنين مشغول هذه الأيام بالإعداد لحرب أخرى. أما أصحابه الدائمون [الثابتون معــه] فلم يعودوا موجودين. وصل إلى نهاية سوق القماش المتصل بحي بني كنــدة. كانت الأصوات متعالية؛ صراخ من هنا وصراخ من هناك. تذكر ميثم ما قاله رستم عن



الأشعـث رئيس قبيلة كندة. لم يكـن حينها ليصدق كلامه، لكن حديث ماجدة ما زال في ذهنه.

– لقد سللنا سيوفنـا، وحاربنا بشجاعة، وسقطت منا دماء؛ والآن يطلبوننا كأننا مدينون لهم! هل هذا جزاء بعدنا عن ديارنا سنة كاملة، وتحمل المشقة والعيش في الحر والقر؟.

– الآن لم يحدث شيء!

– مـاذا كنتم تريدون أن يحـدث؟ أهناك عار أكثر من اتهام كندة بالخيانة؟ لمـاذا لا تدركون ذلك؟ لقد رفعوا القرآن «كلام الله» عاليًا، وجعلوه حكمًا. نحن لا يمكننا أن نسل سيوفنا في وجه القرآن!

–كان من الأفضل أن تستمعوا إلى كلام مالك الأشتر، أو...

– مـن أيـن كنّـا نعلـم أي حيلة يخبّـئ لنا ذلـك الماكر. على كل حـال، لم يفـت الأوان بعد، نستطيع أن نلحـق بهم، ونضرب رؤوسهم بسيوفنا.

– الحـرب مرة أخرى! مـاذا تقول يا رجل؟ لقـد خلت بيوت الكوفيـين من الرجال. أما الذين عـادوا أحياء، فعادوا مثخنين بالجـراح. تجَوّلْ عند منتصف الليـل في أزقة الكوفة، واسمعْ أيّ أنين لجرحى صفين، وأيّ ضجيج لهم.

لم يتوقـف ميثـم ليستمع أكـثر إلى هذه الأحاديـث؛ فرستم كان قد حدثه كيـف مكر معاوية في آخر لحظات الحرب، وكيف استطـاع أن يخدع أهل الكوفة السذّج، بـأن رفع المصاحف فوق

رؤوس الرماح. ولربما حرّض حلفاءه المندسين خفية في جيش علي حتى يجدوا ذريعة مقنعة، وبذلك يضعون سيوفهم في أغمدتها، ويتوقفون عن القتال. حتى أن رستمَ قال بوضوح: «إذا لم أكن مخطئًا، فإن الأشعث قد قبض رشوة، وتآمر مع الشاميين». خصوصًا أنه خالف أمير المؤمنين، وشوهد وهو يدخل الخيمة على عليّ سالا سيفه، وهدده بالقتل إن لم يصدر الأمر بوقف القتال.

لم يكن ميثم يطيق صوت الأشعث الناشز الأجش، ولا سلوكه المتكبر، حتى من قبل أن يأتي أمير المؤمنين إلى الكوفة؛ لا سيما عندما كان يضع قدمه في السوق، وهو يرتدي لباسه الفاخر، ويطلب أفخر أنواع التمر البرني. كانت تفوح من ضحكاته وكلماته، الحادة كالخنجر، رائحة الاستهزاء والتحقير. كان يدعوه بميثم العجمي، وابن العجمي، ويرمقه بتلك النظرات المعهودة، ثم ينتقي حبات التمر بيده، ويضعها في فمه؛ وكأن يد ميثم نجسة.

عاد ميثم أدراجه، وشق طريقه عبر سوق صناعة السيوف، وتوجه نحو دكانه. كان يحدوه الأمل أن يأتي أمير المؤمنين إلى السوق عند اقتراب موعد صلاة الظهر. رفع قطعة القماش عن سلال التمر، وأخذ كرسيه ووضعه في الخارج قرب الباب. كان مشتاقًا لعطر صهر النبيّ؛ فهو يعشق المكان الذي يضع فيه أمير المؤمنين قدميه. مضت أيام وعلي لم يأت إلى السوق إلا قليلًا.

– أخيرًا، ظهرت يا رجل! أين كنت منذ الصباح؟

رفع ميثم رأسه. إنه شاهين، العبد الذي يدعوه سيده بعبد الرحمن. أقبل بذلك الوجه المستطيل، وتلك العينين الغائرتين، وهو يرتدي لباسًا عربيًا مخططًا بالأزرق والبنيّ، لم يكن اللباس لائقًا على جسده.

- هذه الدشداشة لا تناسبك.

- أنا مجبور على لبسها، فسيدي لا يحب اللباس العجمي.

- سمعت أنه يعتزم الخروج من الكوفة.

- جئت لهذا الأمر. أريد أن أشتري التمر ليأخذه معه في سفره.

- لأجل ذلك كنت تنتظرني؟

وقف عبد الرحمن وهو يقدّم رجلًا ويؤخر أخرى، ثم قال: «جئت منذ الصباح وعدت مرات عديدة. في النهاية لا يمكنني أن أشتري التمر من مكان آخر؛ لأنه سوف يختلق الذرائع. أما التمر لديك فنظيف، وعلى نسقٍ واحد. هذا التمر البرني لا كلام عليه.

- جميع التمر جنى نخيل الكوفة.

- ربما. لكن سيدي يقول إنّ تمر ذلك العجمي ذي العينين السوداوين، شيء آخر. ثم ضحك ومد يده وتناول حبة من التمر، من غير أن يستأذن أحدًا، ثم نظر حوله، وحين لم ير أحدًا، ألقاها في فمه، وراح يمضغها. بعد ذلك لحس شفتيه وقال: «إنها تذوب داخل الفم مثل الزبدة، وطعمها كالعسل».

تبسم ميثم، وسأله: «لم تقل لي، إلى أين يذهب سيدك؟».

مدّ عبد الرحمن رأسه إلى الأمام، وقال بصوت خافت: «إنه غاضب من علي»، ثم تابع كلامه بهدوء أكثر: «أنت صاحب الخليفة، فلا تأخذ بهذا الكلام. إنه يعدّ أمير المؤمنين كافرًا، ويقول: «يجب أن يتوب»».

عبس ميثم وقطب وجهه.

- ماذا؟

- يقول: «ما كان يجب على الخليفة أن يصالح معاوية، وأن يستمع إلى كلامه».

- يقول رستم إن ابن وهب وأصحابه هم الذين أجبروا الخليفة على هذا العمل. الآن صار صهر النبي مذنبًا ويجب أن يتوب؟

رفع عبد الرحمن كتفيه، وقال: «أعتقد أنه قد جنّ. يقول إنه وأصحابه قد أعلنوا التوبة، والآن نوبة علي؛ عليه أن يظهر ندمه. لهذا السبب قرر أن يخرج من المدينة مع أصحابه. يريد أن يذهب إلى أناس لم يضعوا أقدامهم في الكوفة قط. لقد سمعت أنهم نصبوا خيمة بالقرب من مكان مولدك.

-أين؟

- النهروان.

- ولكن أنا...

- أنا أرى أنه الوقت المناسب كي تزور بلد آبائك وأجدادك؛

لعلك تجد خبرًا عن أمك وأبيك، لعلهما ما زالا حيَّيْن.

أطبق ميثم عينيه.

- أسرع، هيا املأ سلتي بالتمر، وإلا سيعاقبني سيدي وهو بهذا المزاج الحاد.

- أنا لا أبيع التمر إلى عدو أمير المؤمنين.

- ماذا؟ لا تفعل بي هذا يا ميثم. سيقتلني.

- أمامك كل هذا التمر. اذهب واشتر ما شئت من مكان آخر.

تغير لون وجه عبد الرحمن، وصار طعم حبة التمر التي تناولها مرًّا في فمه. نظر إلى ميثم نظرة التماس ومد يده وقال: «يا ابن يحيى! أنا وأنت من القوم أنفسهم، وصداقتنا أهم من كل شيء. لا تجعلني عرضة للسان هذا الرجل السليط».

- لقد قلت كلمتي. أنا لا أبيع التمر للخائنين.

مشى عبد الرحمن قليلًا وهو يلوم نفسه. وصل إلى باب الدكان ثم عاد ليقول شيئًا، غير أن ميثمًا أسكته بحركة من يده.

- لماذا لا أستطيع أن أصون لساني الطويل؟

خرج عبد الرحمن من الدكان وهو يتمتم: «لعنه الله. سأقول له كانت دكانه مقفلة». ثم ما لبث أن عاد وقال: «لكن أين حقّي؟»

تبسم ميثم، وقبض قبضة من التمر، ثم وضعها في سلة عبد الرحمن. كانت أكثر من كل مرة، ثم قال: «أما أمرك فمختلف».



كانت حبّات الماء تقطر من لحيته الطويلة، فيموج وجه القمر داخل البركة، ويتراقص على وقع تلك القطرات، ويمتلئ بالثنايا. برودة الماء كانت تنعش قلب ميثم وتدخل السلوى إليه. أخذ نفسًا عميقًا، ثم دفع الهواء الساخن من صدره، ونظر إلى البركة. أهدابه المبللة قطّعت صورة القمر في البركة إلى أبراج متساوية.

توكأ على ركبتيه، ثم استوى واقفًا وهو يزفر آهات مشبعة بالحزن والأسى. بدت أطراف البركة مظلمة وصامتة، إلا من أصوات الصرير التي كانت تسمع، فتوحي بأن صراصير الليل التي أقلقت زفرات ميثم سكونها قد استفاقت... كان المحيط باردًا وغامضًا، مثل مدينة الكوفة في هذه الليالي المخيفة. تحرك بهدوء، وعبر الجسر الخشبي الذي أبدل مؤخرًا، فصار أكثر سعةً من السابق، حتى يستطيع الراكب عبوره من دون خوف.

دخل ميثم إلى داره. وقف بجانب النخلة وسط فناء الدار، وراح يتأمل لعب الريح والأوراق مع القمر، فيتصور أن القمر يلعب معه، لا مع الريح والأوراق التي صارت تقطّع بحركتها وجهه[1]

1- وجه القمر.

إلى قطع. مرّ بجانب النافذة. كان صالح ممددًا في الغرفة تحت ضوء القمر، وشيرين في الجهة الأخرى، تضم طفلها شعيبًا إلى صدرها، بينما كانت شفتاه الصغيرتان تتحركان وهو يرضع اللبن. كانت شيرين تتنفس بهدوء واطمئنان، كأن لا خبر يشغل بالها. للحظات، تمنى لو كان مثلها فارغ البال. لم يكن بوسعه إلا أن يقلق؛ خصوصًا، مع تلك الشائعات التي كان يسمعها من هذا وذاك في الأزقة والأسواق.

– لقد أرسل معاوية بعض الرجال لقتل أمير المؤمنين.

– ذلك الثعلب، انهزم في ميدان الحرب، والآن يشرع بالقتل والنهب، ويرسل فرسانه إلى أطراف الكوفة ومدنها لقتل النساء والأطفال، ويوظف أجراء قتلة أيضًا.

– ماذا تقول يا رجل؟ لا حاجة إلى معاوية؛ فأشراف القبائل ورؤساؤها متعطشون لدماء علي.

– يجب أن يغضبوا. فمتى كنت أنت وعبدك سواسية؟ أوَرأيت رجلًا عجميًا يصبح جليس الخليفة، ويكون كلامه مسموعًا أكثر من كلامك؟!

تلك الهمهمات التي كان يسمعها ميثم في الآونة الأخيرة، جعلته يتألم ويكابد. وعندما كان يبث حزنه وألمه إلى أمير المؤمنين، كان علي يبتسم ابتسامة هادئة، ويقول له إنه يعلم لماذا تبدل هذه الأفاعي جلودها الناعمة المرقطة، وإن هؤلاء عبيد الدنيا، ودنياهم أصبحت في خطر. كان ميثم يلجأ إلى أصدقائه، فيظهر لهم قلقه؛ لكن أحدًا منهم لم يكن ليقنعه،

فهم أيضًا كانوا قلقين مثله.

- ألا تسمع فحيح الأفاعي يا أخي؟

- نعم يا صديقي! لقد اضطربت الدبابير.

- الأسوأ من ذلك كله، تلك الشائعات التي يهتز لها الإنسان، وتسرق النوم من الجفون.

- يجب أن نراقب تحركات الغرباء. أرى أشخاصًا هذه الأيام لم أكن أراهم سابقًا في الكوفة، خصوصًا حي بني كندة؛ لقد أصبح عشًّا للدبابير.

- لعل هذا هو السبب الذي جعل الأشعث قليلًا ما يخرج إلى الضوء.

كان ميثم يتأوه، ويفكر في أمانيه؛ ماذا كان يعتقد، وماذا يرى؟ كان كلام جندب مثل الخنجر، يجرح قلبه، ويقطع كبده إلى قطع:

- قلنا ما إن يأتي أمير المؤمنين إلى الكوفة، حتى يذهب الحقد والبغض؛ ولكن...

كان ميثم يتذكر الأحاديث التي سمعها هنا وهناك.

- عليّ هو المقصر، فلو سار على سيرة الخلفاء السابقين، لما وصل الأمر إلى هنا. عندما لا يفرق عليّ بين العرب وهؤلاء العجم، ويساوي في العطاء بين عبدي وبيني - أنا الذي أضاء مصباح الإسلام في بيتي- عندها ستكون النتيجة هي هذه. إن الله بذاته قد جعل بيننا فرقًا؛ وإلا فلماذا خلقنا نحن العرب



أقوياء وذوي جمال وحسن، بينما خلقهم ضعفاء وقبيحين؟

-أجل لقد اختير الرسول منا نحن العرب. القرآن أيضًا نزل بلغتنا. إن الكلب العربي أشرف من الآخرين.

- ليس عبثًا أن يقال لهم «العلوج».

- هؤلاء العلوج قد امتطوا ظهورنا.

- أنا أعتقد أن الوقت ما زال متاحًا؛ يجب أن يبدل علي سيرته.

- لا أعتقد ذلك، فالسيل قد بدأ، والدماء التي سفكت في صفين والنهروان قد جعلت الحقد أكثر من ذي قبل؛ ففي كل بيت في الكوفة مأتم، سواء أولئك الذين نزفت جراحاتهم في صفين، أو أولئك الذين لم ينجوا من شفرات سيوف علي وأصحابه في سهل الحمراء.

- يجب الاحتراز من هذه الأفاعي الجريحة.

كانت الأحاديث التي يسمعها ميثم بعد حرب النهروان تقلقه أكثر. فبعد تلك الحرب لم يعد أحد يتورع عن قول ما يريد، وصار الناس قليلًا ما يأتون إلى المسجد. أما من يأتي منهم فكان يتجاسر ويتحدث بوقاحة وصلافة؛ ولولا حرمة سفك دمائهم في المسجد، لسلّ خنجره وأرداهم بنفسه. كان ميثم شاردًا في تفكيره، لكن سعال رستم أرجعه إلى نفسه. لقد جرح رستم في معركة صفين، ولم يكن يعتقد أنه سينجو من ذلك الجرح؛ لكنه أصبح مقعدًا ومتبرمًا، خصوصًا، بعدما فقد زوجته. لم يعد

السعــال يفارقه، ولا حتى الأنين، فهما رفيقاه من أول الليل حتى الفجـر، إذ لم يكن يوافيه النوم سوى لحظــات قليلة قبل صلاة الفجر.

مشــى ميثم علــى رأس قدميه. أراد أن يعــبر بهدوء من أمام الغرفة كي لا يقلق راحته، فلا يضطرب سكونه، وإذ...

- إلى أين يا ميثم؟

توقــف ميثم هنيهــة...لم يكن يعتقــد أن رستم يــدرك ماذا يجري في الكوفة.

- أنا ذاهب إلى المسجد.

- انتبه إلى نفسك! فالخطر داهم. اصبر حتى يمضي قسط من منتصف الليل، وتذهب العتمة، ويستنير الجو أكثر.

- إن أرواح العباد بيد الله.

عــاد السعــال إلى رستــم مرة أخــرى. أما ميثــم فتوجه إلى النافــذة الخشبية، وقد أزاحــت الريح الستار الــذي كان معلقًا فوقها.

- سمعــت أن الرجــال الملثمين قد ازداد عددهــم، وأن رجالًا يظهرون بلباس النساء في الكوفة...

ضحك ميثم وقال: «الشائعات كثيرة يا عم! ولا يمكن التخلي عن الحياة بسبب حفنة من الأراجيف و...».

- على كل حال أنا قلق، وشيرين و.....

- مــا هذا الحديث يا أبــا الفوارس؟! إن مدينة الكوفة ليست

صغـيرة، وأصحاب علي مـا زالوا أحياء، ولا أحـد يجرؤ ما دام علي في الكوفة...

– ماذا أقول؟ ما زلت شابًا يا ميثم!

تـوكّأ رستـم على الجدار، وتنـاول عصاه الخشبيـة يريد أن يقـف؛ لكـن السعال قطـع عليه همتـه وأضعف قوتـه. بصعوبة شديـدة استطاع أن يوصل نفسـه إلى النافذة. بدا وجهه، تحت ضوء القمـر، أكثر شحوبًـا وإرهاقًا، أما ذلـك الجسم الضخم فقد صار في خبر كان؛ لقد ذاب ونحل.

–أنا أشتمّ رائحة سمكة نتنة؛ رائحة العفونة قد ملأت أرجاء الكوفة يا ميثم! ليتك كنت بائع سمك.

حاول ميثم أن يساعده على الوقوف.

– من الأفضل أن تستريح مع هذا الجسد النحيل. إن الصيام في هذا الشهر الحار قد أضعفك أكثر.

– يعني أنا أهذي؟

– متى قلت هذا الكلام؟

لم يكن رستم يملـك القدرة على الوقوف. ساعده ميثم حتى أجلسه على بساط من الحصير، وألقى فوق قدميه لحافًا قديمًا ملونًـا. تأوه رستـم وقال: «صحيح أني لم أعـد أستطيع الذهاب إلى سوق الكوفة مثل السابق؛ لكني أشمّ رائحة المؤامرة يا ميثم. لقد أدركت ذلك منذ اليوم الذي عدت فيه من صفين».

سكـت رستم لحظـة ثم تابع والحـزن باد عليـه: «عمل علي

أصبح صعبًا للغاية».

وضع ميثم متّكأً خلف ظهر رستم، وساعده حتى اضطجع على الأرض.

- بارك الله فيك. ساعدني حتى أتيمم، فأنا لا أستطيع الوضوء مع هذه اليد المليئة بالجراحات.

أنهى تيمّمه ثم قال بحسرة: «كنت أود مثلك أن أكون في المسجد قبل أذان الصبح، لكن من المؤسف...».

- أجرك ليس أقلّ من أجر الأشخاص الذين في المسجد...

- ماذا تقول؟ أنا مشتاق لرؤية وجه علي وضحكاته؛ هذا إن



كانت الضحكات ما زالت تُرى على وجهه هذه الأيام!

قال تلك الجملة واختنق بعبرته.

لم يُردف ميثم شيئًا. توجه نحو الباب. وقف عند العتبة.

- أنا لا أقول لك لا تذهب، ولكن تذكر أولادك. تذكر أن شيرين ليس لها أحدٌ غيرك.

كان ميثم يشعر بغصة رستم، ويعلم كم أصبح رقيق القلب هذه الأيام. كانت الدموع تترقرق في عينيه عند أدنى ذريعة. وضع ميثم قدمه في العتمة ومشى من غير أن يجيب. عند نهاية الزقاق الضيق، توقف هنيهة؛ لقد هزه بكاء رستم. لم يكن قد رآه يبكي حتى الآن. أراد أن يرجع؛ لكنه انعطف بطريقه، وذهب في جهة أخرى.

كان ظلّ الجسر الخشبي يُرى في ماء النهر. لكن ميثمًا لم يعبر الجسر؛ بل تابع سيره بجانب النهر، وانغمس في العتمة وحثّ الخطى. إلى أين يذهب؟. هو نفسه لا يعلم. ما يعلمه فقط، أنه ينبغي أن يمشي. لم يقر له قرار، فبكاء رستم قد أشعل النار في قلبه. كان يعلم أنّ الليل وحده يمنحه السكينة؛ خصوصًا، إذا كان القمر ينير كل مكان. كان يرغب فقط في المشي حتى أذان الصبح؛ يطوف في الأزقة، ويجول من حي إلى حيّ، ولعله يزور دار أمير المؤمنين أيضًا، أو يذهب إلى السوق، وهناك، يستمهل نفسه لحظات أمام كل دكان حتى يطلع الفجر. لكن قدميه لم تطيعاه. فجأة، رجع إلى ذاته، فوجد نفسه في حي بني أسد. كان السكون يغمر المكان، لم يكن يسمع أي صوت. توجه إلى ميدان

الكناسة. وقف في وسط الميدان؛ المكان الذي أحزنه وأفرحه، فهو المكان الذي بيع فيه مقيد اليدين والرجلين وهو فتى، والمكان الذي تذكر فيه ماجدة عندما ولد طفله صالح، وكان سببًا في بقاء ولده وزوجته على قيد الحياة. وفي هذا المكان نفسه قال له علي ذلك السرّ العظيم، في تلك الليلة المظلمة، السر الذي لا يعلمه إلا هو وأمير المؤمنين فقط، السرّ الذي بدل حياته. لم يصدق ميثم في البداية. كان ميثم قد سأل أمير المؤمنين:

- أيحدث ذلك قبل رحيلك من الدنيا أو بعده؟

حينها تبسم علي فقط، وأفهمه أنه سيصل إلى ذلك مع الصبر. وهو الآن ينتظر. كانت أيامه السعيدة تمضي، وستأتي الأيام التي تجرعه المرارة. لم يكن يعتقد أبدًا أن الزمان سيتغير بهذه السرعة. ولعلّه هو أيضًا قد تغير. لقد أصبح يشار إليه بالبنان؛ فالقاصي والداني يعرف علاقته بعلي، وقربه منه. كان بعضهم ينظرون إليه بتحسر، وآخرون ينظرون بكره كأنه فرض نفسه على عليّ. كل شيء قد حدث فجأة. هو الذي وجد عليًا، أو خليفة المسلمين وجده! كانت علاقته بأمير المؤمنين إلى حدّ أنه لم يعد يطيق فراقه؛ ففي حرب صفين، مرت سنة ولم يكن يعلم شيئًا عنه، وهذا ما جعله يتألم كثيرًا، لذلك أقسم أنه لن يفارقه، وسيرافقه في كل حرب يذهب إليها، أو سفر يقصده، مهما حدث. أما الآن فهو مضطرب جدًا، وقلق على علي إن أصابه مكروه؛ فسيموت أو يصبح مثل رستم.

لم تكن الأفكار المضطربة تدعه يرتاح. مشى ببطء، وتوجّه

نحـو نخلـة كانت تبـدو، في ظل نـور القمر، أكبر ممـا هي عليه واقعًـا. كان يشعـر دائمًا، منذ أن سمع ذلـك السر من علي، أن تلـك النخلـة أكبر مما تبدو عليـه، مع أنهـا في الحقيقة أقصر مـن جميع النخلات مـن حولها. اقترب من النخلـة، مسح بيده على جذعها، وعانقها بحنان طفولي، ثم وضع خده على قشرها الخشن، وبكـى. كان جذعها السميك يدل على عمرها الطويل، وكانـت أغصانهـا وأوراقها اليابسة تقـول إنّ عمرها قد أشرف على النهاية؛ لكن لا أحد كان يهتم لأمرها.

– قف مكانك لأرى!

رفع ميثم رأسه، فـرأى شخصًا متشحًا بالسواد يعبر راكضًا من أمـام دار ابن حريث. تسلق الرجل الجـدار، واختفى داخل الخربـة. ثـم بعد ذلـك شاهد جنديًـا يقف وسط الميـدان. بدا الجنـدي متحيرًا، لا يعلم إلى أين فر ذلـك الرجل. عرفه ميثم لكن لم يكلّمه.

عندمـا ذهـب الجنـدي، وقف ميثـم قـرب النخلـة، وصلّى ركعتـين، ثم نهض ودار حولهـا، وقال بصوت خافـت: « لم أكن صديقًـا سيئًا لك. هل كنتُ كذلك؟». ثم مسح دموعه؛ لكن قلبه لم يهـدأ بعـد. تابع حديثـه : «أنت بنفسك سمعـت حديث أمير المؤمنـين في تلك الليلة. أعلم أنك مشتاقـة لتلك اللحظة أيضًا. أنـا أكثر منـك اشتياقًـا. إذًا نحن الاثنان ما علينـا إلا الصبر. لكن ليتنا كنا نعلم متى ستحدث تلك الواقعة». ثم مسح يده على جذعهـا بحنان، وعانقها مثل المفتون، وقبّلها. لو رآه أحدٌ لاعتقد

أن الرجل الفارسي قد جنّ.

بعـد ذلـك، جلس ميثم علـى الأرض، وراح يزيـل بكف يده الأشـواك والحشائش مـن حولها، ثم وقف مـرة ثانية للصلاة. كان القمر يلاعبه من خلال سعف النخلة اليابس، بينما هو يركع ويسجـد. عندما أتمّ صلاته، شمّ جذعهـا، وقال: «لا يوجد أحد لأتحدث إليه، لكنك أنت هنا. فهل تصدقيني؟ بالتأكيد يجب أن تصدقـي. فهـل حدث إلى الآن أن تكلم علـيّ كلامًا ولم يحدث؟ وهذا أيضًا صحيح يا صديقتي، سوف يحدث!». ثم تبسم وعيناه غارقتان بالدموع، وقال: «يجب أن نصبر».

كانت السماء صافية، والنجوم في كبدها تموج وتتلألأ، بينما ميثـم لا يخلع قلبه من النخلـة؛ عانقها مرة أخرى بعشق، وقال: «أمـا أنا فقلق جدًا. أتسمعيننـي؟ قولي شيئًا. إنها كلمات رهيبة يرتعشـ لهـا قلـب كل سامع». ثم تابـع والغصـة في حلقه: «لقد حدثني عليّ بعاقبتي؛ لكنه لم يقل شيئًا عن نفسه. تحركي! قولي شيئًا. إني أعلم أن بينك وبين علي أسرارًا».

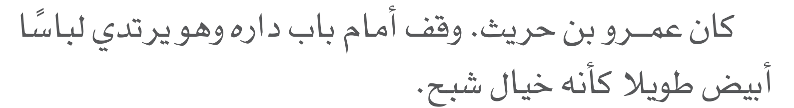
كانت أوراق النخلة الجافة ترتعش مع هبوب الريح، والدموع تجري من عينَيّ ميثم، وتبلّل خدّيه.

– تالله إني لا أطيق فراق علي أمير المؤمنين.

علا شهيقه في العتمة.

لم تمضِ لحظات حتى سُمع صوت صرير، وإذ بباب يفتح.

– هذا المجنون مرة أخرى. ماذا تريد أيها العلج أمام بيت داري؟



كان عمـرو بن حريث. وقف أمام باب داره وهو يرتدي لباسًا أبيض طويلا كأنه خيال شبح.

– لمـاذا تقلق راحتي أثناء الليل؟ سوف أشتكيك إلى الخليفة. بالطبـع، عندمـا يصبح صديـق الخليفة رجل عجمـي، تصبح راحتنا بهذه الحال.

كان ظـل ابن حريث الطويل ممتـدًا على جدار بيته، بخلاف شجرة النخيل.

– غـدًا سأقطـع هذه النخلـة، حتى لا أرى بعـد ذلك هيئتك المشؤومة.

– لن تفعل! أنت حقير يا ابن حريث!

كان ميثم شارد الذهن. نهض ومشى بهدوء. كان يشعر بلسعة الـبرد أكثر وثوبه ملتصق بجسـده. مشى إلى الطرف الآخر من الميدان، ثـم توقف، ورجع مرة أخرى باتجـاه النخلة. أيمكن أن يقطع ابن حريث شجـرة النخيل؟ لكن ماذا سيحل بالسر الذي ذكـره صهر النبيّ؟ لم يكن ليصـدق أن شخصًا يمكنه أن يقتلع أنيسه. إنه يؤمن بعليّ.



– انظر إليه! إنه محزون. يندب كمن فقد أمه.

– المسكين! لقد جنّ.

لو وجد شخص مكانه، لكان لديه النهاية نفسها.

– قليــلاً ما كان يهذي في زمن علــيّ. البائس إنه مريض، ولا ينفك يخبر عن مصير الآخرين.

– لعل عليًا علمه شيئًا من السّحر.

– على كل حال، فإن كثيرًا مما قاله كان صحيحًا حتى الآن.

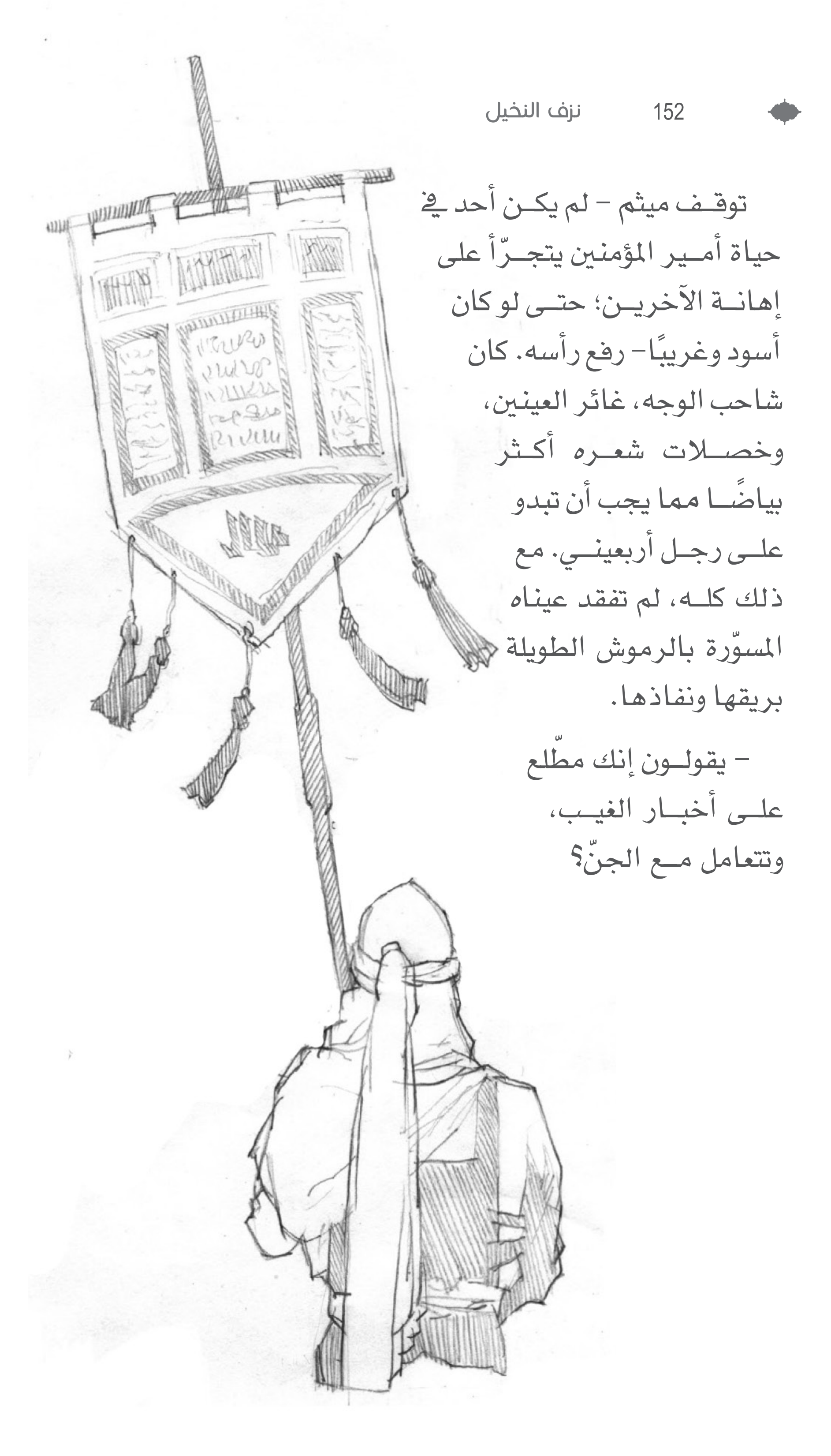
– كـم أنتــم بسطاء. هذا من علوج الســوق. إنه يأخذ الكلام الــذي يسمعه منكــم، فيفصّله وينمّقــه، ثم يرجعــه إليكم، هل تريدون أن أمتحنه؟

– لا. لا يمكن أن ننكر هذا. لقد علمه علي بعض الأسرار.

– إذًا لهذا السبب يقولون له: «مستودع أسرار علي».

ضحــك رجــل منهم وعلت قهقهتــه، ثم أشــار إلى ميثم وهو يقترب كالهيمان.

– تعال إلى هنا يا ابن الأعاجم!



توقف ميثم - لم يكن أحد في حياة أمير المؤمنين يتجرّأ على إهانة الآخرين؛ حتى لو كان أسود وغريبًا- رفع رأسه. كان شاحب الوجه، غائر العينين، وخصلات شعره أكثر بياضًا مما يجب أن تبدو على رجل أربعيني. مع ذلك كله، لم تفقد عيناه المسوّرة بالرموش الطويلة بريقها ونفاذها.

- يقولون إنك مطّلع على أخبار الغيب، وتتعامل مع الجنّ؟

تكلم. هل علمك علي هذه الأمور، أم هي من عندك؟

كان الرجل يتحدث عن صهر الرسول بحقد دفين. غير أن ميثمًا انحرف بطريقه ولم يجب. ثم تقدم رجل آخر في منتصف العمر. بدت لحيته شحيحة، ليس فيها سوى بعض خصلات مبعثرة من الشعر. أمسك بيد الرجل الحقود، وأخذه إلى جانب جدار دار الإمارة، وقال: جميعنا مستاؤون من فعلة ذلك الخبيث الذي شجّ رأس علي؛ لكن من باب المصلحة...

– أي مصلحة يا عمرو! أربع سنوات مضت من حكم علي، مرت علينا كأنها دهر. كانت كلها حروبًا وسفكَ دماء، وخيولاً وسيوفًا ونحيبَ نساء وأطفال. أنتم قولوا؛ مَنْ مِن أهل الكوفة عاش هانئًا مرتاحًا...

– أنت كنت جالسًا في دارك و....

– أنا أقول هذا من أجلكم. فأنا منذ اليوم الأول لعلي تنحيت جانبًا، واتخذت لنفسي طريقًا مغايرًا؛ لأني كنت أرى أن أحداثًا سوف تقع . كنت أرى عويل النساء، ومقاتل الشباب، وأرى المعدمات الأرامل، والجرحى الذين يئنون طوال الليل.

– لم يبق إلا أن تكون دائنًا أيضًا.

تبسم الرجل باستهزاء وقال: «أنا لا أحب قتل الأخوة، وما كنت لأرغب بسل السيف في وجه أخي المسلم».

– أيّة ذريعة جيدة هذه! يأتون ثم يغيرون على دارك

ويهدمونها، بينما تقف أنت مستسلمًا لأنهم مسلمون. من المؤكد أن بعض غارات معاوية... من أجل ذلك وضعت يدك في يده، وها أنت تعتقل مخالفيه وتقيدهم بالسلاسل، وتجرهم إلى السجون.

جمع ابن النمير شفتيه وقال: «صحيح أني لم أشارك في الحرب؛ لكن هؤلاء متمردون، والكوفة بحاجة إلى الأمن والهدوء».

ضحك الرجل ولم يقل شيئًا.

ثم أشار الحصين بن النمير إلى ميثم وقال: «لكن لماذا سلّط هؤلاء الأعاجم علينا؟»

– هذا كلام آخر. على كل حال ما مضى فقد مضى، وأمير المؤمنين أصبح تحت التراب مع حسناته وسيئاته.

تقدم رجل يلبس عباءة مطرزة. كان حتى اللحظة ما زال ساكتًا. قال ضاحكًا: «كنا نريد أن نسمع شيئًا فرأينا شيئًا آخر. ألم يكن من المفترض أن نستمع إلى حديث سالم...».

– ميثم بالنسبة إليّ هو«سالم». فاسم سالم أفضل. ماذا يعني ميثم؟ اسم بدون مسمّى ولا معنى. ثم تابع باستهزاء: «الضارب!»[1].

نظر ميثم إلى الرجل بغضب. كان يرى الحقد في ثنايا وجهه،

1- شديد الوطء واثق الخطى.

وفي خطوط جبهته. أراد ميثم أن يقول شيئًا؛ لكن المسنّ سبقه إلى الكلام: «لم أكن أقصد التطاول على الخليفة الشهيد، سواء ميثم أو سالم». ثم أشار بإصبعه السوداء الطويلة إلى الجماعة الواقفين في ظل جدار دار الإمارة، وراح يشير إليهم واحدًا واحدًا، وقال: «لم يكن عليّ يأخذهم بالحسبان، لكنهم يحبّون أن يعرفوا ماذا كان يعتقد بهم». ثم قطب حاجبيه والتفت إلى الرجال الذين كانوا ينتظرون باهتمام، وقال: «جميعنا نعلم الماضي. لكنهم يقولون إنك تخبر عن المستقبل. ألا تحبون أن تعلموا ماذا سيحل في الآتي؟ لعل أحدكم يصبح حاكمًا، أو لعل...». بعد ذلك تقدم من الشمر، ووقف في مقابله. وقال: «هذا ابن ذي الجوشن، على سبيل المثال. أنت يا ابن ذي الجوشن معلم قرآن، وتعلّم أولاد كبار أهل الكوفة كلام اللّه، وتتباحث معهم من الصباح حتى الغروب ليتعلموا كلمة. ألا تحب أن تعلم أي غرفة أعدوها لك في الجنة؟».

تبسم ميثم باستهزاء، ولم ينطق بكلمة.

– لعلي قلت كلامًا سيئًا حتى ضحكت؟

نظر ميثم إلى جدار منزل جعدة بتأسف. كان قسمٌ من الجدار قد انهدم إلى الأرض، فأصحاب معاوية هدموه بعدما تسلّط على مدينة الكوفة.

– لماذا أنت ساكت؟ ألم يقل صهر النبي لك شيئًا فيما يخصّ هذا الرجل المستقيم صاحب اللسان الفصيح والمعبر؟

ارتجفـت شفتـا ميثم. نظـر إلى الشمر بغضـب، ثم تنحنح. تطـاول الشمر بعنقه، ومد صدره إلى الأمام، ثم مسح بيده على لحيتـه الطويلة التـي صُبغت حديثًـا بالخضـاب، ليسمع صوت ميثم.

- احترس يا رجل من يوم تقطع فيه رأس ابن رسول اللّه من القفا.

عندمـا سمع الشمـر كلام ميثـم، تقدم خطـوة إلى الإمام، وقبض على يديه، وقال مزمجرًا: «مجنون».

- مـاذا تقول أيها الخبيث الفارسي؟ ابن ذي الجوشن معلم قرآن.

- أحيانًـا نقرأ القرآن، وأحيانًا نضعه فـوق الرماح، وأحيانًا أخرى نقتل نبيًا بحكم كتاب اللّه.

حديث ميثم جعل الصمت القاتل يسود المكان.

كان الرجـال يريـدون أن يسألوا؛ لكنهم تأخـروا إلى الوراء خوفًا من أن يحدّث ميثم عن أعمالهم الخفية. فكلام ميثم كان مفاجئًا إلى حد كبير، أذهل الجميع وجعلهم في حيرة. جرّ ميثم حـذاءه القديم علـى الأرض، وسار مبتعدًا عـن القوم، فيما ظل كبار رجال الكوفة في حيرة من أمرهم. ماذا يقولون!.

- ألم أقل لكم لا تمازحوا هذا المجنون؟ إنه يهذي.

- لا ملامـة عليـه إن كان كذلـك. فعليّ ليـس هنا حتى يمشي

إلى جانبــه بغــرور، ويعبر السوق معــه كتفًا إلى كتــف، ويكون في الليــل حارسًا من شرطة الخميس، ومن خاصة وكلائه. لا تعلمون كــم كنت أرتعد، ويقشعر بدني عندما كنــت أرى عليًّا يجلس على الكرسي في دكان هذا الفارسي، عابد النار، ويبيع التمر بدلًا منه.



– عندمـا كنا لائقـين بالقيام بأعمال أهـل الكوفة، كان علي يكلـف رجـلاً فارسيًا بالأعمـال الهامـة. أليس هذا عـارًا على العرب؟

– هذا المجنون يريد أن يسوّق لكلامه بالكذب.

– هذا العلج ينتقم منا لسكوتنا، وعدم دفاعنا عن علي. يريد أن يعذبنـا ويؤذينـا، خصوصًا، بعد تحذيره ابـن عباس حتى لا يخدعه معاوية، ولا ينشق عن الحسن بن علي.

– لكـن هل كان كلامـه كاذبًا؟ فابن عباس قـد غرته دنانير معاويـة. لقد انشق عن الإمام الحسـن والتحق هو ومن معه من الجنـود بمعاوية؛ وبذلك فرق جمعنا. نحن أهل الكوفة لم يسبق لنا أن تعرضنا في الماضي إلى هذا القدر من الإذلال. أنتم قولوا. من منكم لا يشعر كل ليلة أن سكّين معاوية مغروس في حلقه؟

–أنا لا أعلم. لكني أفهم أن الجميع قد تعبوا وكلّوا من الحرب، والنـاس تريد الراحة والهـدوء، سواء أكان علـي أم الحسن أم معاويـة. أما الآن وقـد قضي الأمر، فمن الأفضـل أن نسلك مع الآخرين ونسير مع الجماعة.

نهض رجل مسـنّ كان يجلس في زاوية يتثـاءب. هز برأسه، ومشـى وهو يضرب بعصـاه الأرض، ويتوكأ عليهـا، تاركًا خلفه القيل والقال، وضجيج الرجال، فكل واحد منهم يقول شيئًا...



جلس صالح على كرسي صغير. كانت أشعة الشمس تسطع بشكل ملائم على التمر البرسي، فيزداد بريقه الذهبي لمعانًا. عندما رأى والده يجلس على الكرسي ساكتًا، غارقًا في تفكيره، كسر جدار الصمت قائلًا:

–لماذا يتحدث الناس بهذا الكلام يا أبي؟

– وماذا يقولون؟

ابتلع صالح ريقه، والغصّة في حلقه. رفع ميثم رأسه، ثم تبسم معقّبًا: «أني مجنون».

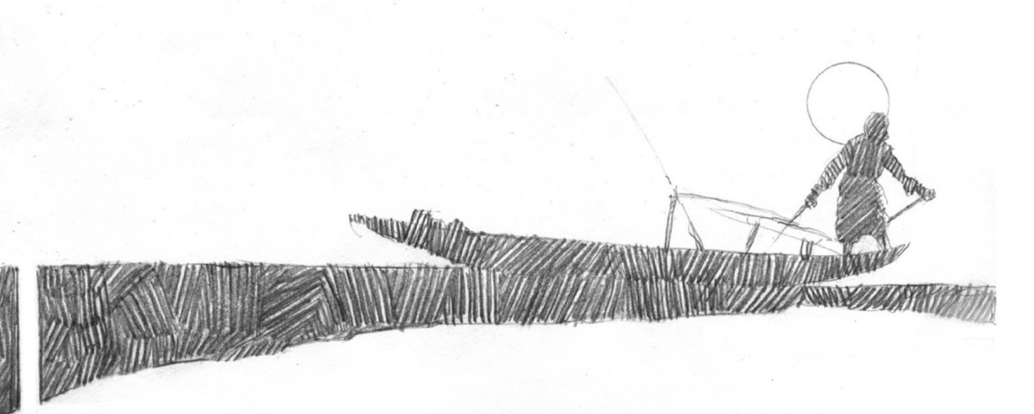
احمر وجه صالح

– ليس هذا ما قصدت.

– أنت لا تظنني مجنونًا، أليس كذلك؟

– أبي!

تلاقت عيون الأب والابن، وتسمّرت نظرات أحدهما بنظرات الآخر. كان ميثم يرى الحزن في عيني ولده العسليتين، وهما مغرورقتان بالدموع، وأيضًا يعلم أن تلك الغصّة منذ شهور وهي في حلق ولده الشاب. تبسم ميثم، وانفجر صالح بالبكاء؛ حتى ملأ بكاؤه أرجاء الدكان. عندئذ نهض ميثم واحتضنه، وراح



يداعب شعره ويلاطفه. كانـت الشهور تأتي، والسنوات تمضي، وصالـح يكبر ويـزداد طـولًا وشبهًا بأبيـه. بينمـا كان يحتضن ولـده، ويمسـح على كتفـه، ويطلب منـه أن يبعد الحـزن والغم عـن نفسه حتى يهدأ ويرتـاح، راح يحدثه عـن ماضيه. في تلك اللحظـات أحسّ ميثـم أن ولده يشعر بنفس ذلـك الشعور الذي كان لديـه، عندما دخل الكوفة وهو صغـير. تمامًا كالحالة التي كان يحسّ بها وهو تحت تلـك النخلة. حينها كان قلقًا، ولم يكن يعلـم شيئًا عـن أمه وأبيه. والآن أيضًا، صالـح يشعر بالقلق من تلـك الأحاديث التي تجري على ألسنة العرب في ظهر أبيه. فهم ينعتونه بالمجنون. كم تشبه الأيام بعضها بعضًا! كأن ذلك حدث بالأمس؛ حين كان يمشي خائفًا خلف ماجدة، عندما لحقه ذلك الولـد العربي وضربه بقبضة من الطين، فالتصقت على رقبته. لقـد كبر نظـير ذلك الولـد، ولم يزل يذكـر عليًّا بالسـوء. لقد أرجعـه ولده إلى الماضـي البعيد، إلى الأيام الغابـرة. تأوه ميثم بحسـرة وتابع حديثه بصوت خافـت. حدّثه عن تلك الأيام منذ



أن عــرف عليًا، وكم كان الأمر عجيبًا، إلى أن فقده، وكان الأمر أعجب ولا يصدّق. لم يكن يفكر بهذه الأيام مطلقًا. لم يكن عبثًا أن عليًا كان يواسيه، ويطلب منه أن يصبر. لقد فكر في كل شيء إلا في البعد عن علي. لم يكن يتصور أن يومًا سيأتي ويفترق عن علي، أو أن تبدل الكوفة جلدها بهذه الصورة مرة واحدة. حدثه عــن صفــين، وكيف لم يكن بمقــدوره أن يرافــق عليًّا في الحرب لأجلــه ولأجل جدّته العجوز. تحدث عن حسرة جده رستم، وعن النهروان، وكيف ذهب مع علي ولم تكن حربًا؛ بل كانت مناوشات خفيفة وانتهت. ثم عادوا إلى الكوفة للاستعداد للحرب الكبرى؛ حرب تعيين المصير، وبناء المستقبل، لكن فجأة انقلب كل شيء. من أين ظهر ابن ملجم في سحر تلك الليلة في شهر رمضان؟! لم يكــن يصدق أن أحدًا يجرؤ على أن يضرب عليًّا ويشج رأسه. لم يكــن ليصدق لولا أن رآه بعينه. عندما وصل إلى علي، وسط كل ذلك الضجيج، رآه غارقًا في دمه، وعلى جبهته الدامية الحمراء عصابــة صفراء، وهو متكئ على ولديه الحسن والحسين، بينما هما ممسكان بذراعه. حينها أحسّ بأن العالم قد خرّ على رأسه وانهــدم. لقد أخبره أمــير المؤمنين أن لحيتــه ستخضب من دم رأسه؛ لكنه لم يقل أين سيحدث ذلك.

كان ميثم دائم القلــق من أن يفقد أمير المؤمنين في الحرب، ولكن... ثم شهق بالبكاء.

– أتبكي يا أبي؟ كان ميثم يرى ولده من خلف غشاء دموعه.

استدار بوجهه، وهز رأسه؛ لكن كتفيه كانتا ترتعشان...

علا بكاؤه مرة أخرى. لكن في هذه المرة طلب من ولده أن يذهب إلى البيت، ويتركه وحيدًا لبعض الوقت.

كانت عادته كلما فكر بعلي، أو سمع عنه شيئًا جرت دموعه على خدّيه. لطالما خرج من داره في الليالي حافي القدمين، يمشي في الأزقة كالمتحيّر. كان الجميع يعرفون أن الرجل الفارسي يتجول في الكوفة حائرًا. لم يكن بعضهم يلومه؛ بل كانوا يتأسفون ويدعون له بالسلامة والعافية. أما بعضهم الآخر فكانوا يرمونه بالحجارة ويطردونه من أمام بيوتهم. ومع ذلك، كان ميثم هادئًا ووديعًا مثل الحمل. كان يروح ويجيء، ويتأمل الجدران أحيانًا، يحدق بها بألم وحزن، وأحيانًا أخرى يكلّم العابرين، فيهزّون رؤوسهم متأسّفين، ويستمعون متعجبين إلى حديثه إذ لم يفهموا غايته. على الرغم من ذلك، كان الجميع في السوق يقدرونه ويحترمونه، ويعدّونه كبيرهم، كما دأبهم في السابق، فإذا ما حدثت مشكلة بين أهل السوق، ذهبوا إليه واستمعوا إلى حكمه ويقبلونه.

كانت الأيام تمرّ صعبة وشديدة، خصوصًا على العجم والعبيد. لقد عاد العرب مرة أخرى يأخذون سهمًا أكبر من بيت المال، ولم يكونوا يسمحون لغير العرب بالدخول إلى مساجدهم؛ لقد أمر الخليفة بذلك. حتى وصل الأمر إلى أنهم فرضوا عليهم لباسًا خاصًا، حتى يميزوهم عن العرب، لباس من خيش الكرباس[1] الذي لا لون له.

1 نوع من اللباس الخشن يصنع من القطن أو الخيش.

كان الأمــر صعبًا على ميثم أن يــرى كل ذلك القهر والإذلال الــذي يتعرض لــه الفُرس، ولا سيما بعــد أن منحهم علي منزلة وقيمــة محقّة. لذلك، عندما كان يشعر بالضيق أحيانًا، إلى حد لا يستطيع أن يتحمله، يخرج من الكوفة ويذهب إلى نهر الفرات، ليجلــس عند شاطئه، ويتأمــل تلاعب ظلال قصبات الناي وهي تتمايل في المــاء المتلاطم. وأحيانًا، يركب أحد المراكب إن وجد، ويدخــل عمق الفرات، ليذهــب بعيدًا عن كل شــيء، أو يصطاد بعضــ الأسماك إن استطاع، ليأخذهــا إلى عياله كرمى لذكرى رستــم. كان يتمنى لو ينقضي عمره بسرعــة، ويرى تحقُّقَ ذلك الأمر الذي أخبره به علي.

من جهة أخرى، فإن أهل الكوفة قد انفضّوا من حول الحسن بــن علي سبط الرسول، وتخلّوا عنه بــكل سهولة، وتركوه وحيدًا حتــى أجبر على الصلح مع معاوية، إلى أن وصل الأمر بعد ذلك أن يدســ معاويــة السمّ له، ويقتله من غــير أن ينطق أحد منهم بكلمــة. أما الابن الآخر لعلي فكان في المدينة، وقد انقطعت عنه الأخبــار لمدة طويلة؛ إلا في أيام الحج حيث كان يذهب إلى مكة، ويلقاه هناك للحظات قليلــة، فيشكو إليه همّه وحزنه. لقد أثقل الهم والحزن قلب ميثم، حتى صار هرمًا...

لم يكن ميثم يطيق الجلوس في الدكان، لذلك، كان يطلب من ولــده صالح أن يجلس مكانه، ثــم ينطلق وهو يخط أرض السوق بقدميــه، ويذهــب خــارج المدينــة. فالطبيعة وماء نهــر الفرات وحدهما يمنحانه الهدوء والسكينة...

ذات يوم، بينما كان يسير بهدوء في طريق ضيقة جانب النهر، يتأمل صفحة الماء، وإذ به يرى جار ماجدة. عندما التفت إليه الرجل المسنّ أشرقت عيناه وسرّ لرؤيته، وقاد قاربه إلى ساحل النهر. لم يكن الرجل قد اصطاد سوى عدد قليل من السمك.

- ماذا تفعل هنا أيها الولد الفارسي؟

كان الرجل يناديه بهذا الاسم عندما كان ميثم في بيت ماجدة. لم يكن يناديه باسمه «سالم».

رفع ميثم رأسه وأجابه قائلًا: «ما أخبار أمي؟»

- تقصد ماجدة؟ المسكينة أصبحت عجوزًا هرمة. لقد انطفأ النور في عينيها. أما أنت فماذا تفعل هنا؟

- عيناي على الأيام؛ متى ستصل إلى خاتمتها.

- الأيام أم أنت؟

- عندما لا أكون لا توجد أيام.

- تعال اركب معي في هذا القارب حتى ندور في البحر الواسع، فأنا أعلم أي أيام صعبة مرت عليك!

دفع الرجل العجوز بمركبه إلى ساحل الفرات، وأوغله في القصب، حتى اخترق رأسه وسط القصبات، ووصل قريبًا حيث يقف ميثم. تقدم ميثم وأمسك بحافة القارب الخشبي، وصعد إليه، فيما القارب يتمايل يمينًا وشمالًا.

كان المجذاف يشقّ النهر، فينزلق القارب على صفحة الماء، ويبتعد عن الساحل. وكانت طبقات الماء تلتف فوق بعضها بعضًا

وتتداخل، فتدفع المركب إلى الأمام، شاقًا طريقه وسط النهر الواسع.

نظر ميثم إلى السماء، فشاهد سحابة سوداء داكنة قادمة نحوهما. ثم رفع الرجل العجوز مجذافه، وأخرجه من الماء تاركًا قاربه يتهادى ببطء.

- حسنًا أيها الولد الفارسي، حدثني.

تبسم ميثم من غير أن ينطق بكلمة.

- إن الأحاديث التي يطلقونها حولك قد أحزنتني، وجعلتني أتألم كثيرًا.

رفع ميثم كتفيه، معلنًا أنه ليس مهتمًّا بأقاويل الناس. كانت نظراته تلاحق تلك السحابة الداكنة.

- نرى أمثال هذه السحابة كل يوم. إن عملي هو صيد السمك، وأعلم أن في كل يوم...

- لكن الأمر هذه المرة مختلف.

كان يهب نسيم لطيف، ويزداد شدةً مع الوقت.

- أنا رجل البحر أم أنت؟ لا تغضب، فأنا لا أعرف التمور وأنواعها جيدًا مثلك. كذلك يجب أن تثق بي أيضًا، حتى...

- لكن الطوفان قادم.

- طوفان؟!

ضحك الرجل العجوز حتى بدا فمه الكبير خاليًا من الأسنان. لم يكن في فمه سوى ثلاثة أنياب سود.

- يجب أن نعود. هناك أخبار عجيبة ومذهلة في الطريق.

- ليس ضروريًا أن تتنبأ مرة أخرى!

أخذ ميثم المجذاف من المسنّ، وقال له: «يجب أن نعود إلى الساحل فورًا».

- لكن منذ لحظات تركنا الساحل.

- هناك طوفان قادم، ومعه أخبار سارّة.

تناول الرجل العجوز المجذاف الآخر، وغمسه في لجة الماء وهو متعجب. ثم نظر إلى السماء الداكنة التي كانت تدلهم كل لحظة أكثر فأكثر. أحس أنها مختلفة عن كل يوم.

- لعلك تقول الصواب، ولعل أفعالك عجيبة أيضًا مثل أقوالك.

ما إن وصل المركب إلى الساحل، حتى ضربت موجة في نهر الفرات، فقذفت المركب حتى منتصف القصبات، وكاد أن ينقلب.

- عجبًا لهذه الريح. من أين ظهرت؟

- إنها تحمل معها خبر الموت.

- الموت! أغثنا يا الله.

- لا تقلق! إنه خبر من طريق بعيدة، كنت أنتظره منذ زمن.

- من تنتظر؟

- أقسم بالله إن هذه العلامات التي حدّث بها مولاي علي. إنه خبر قادم من الشام.

– ما الذي جرى؟

– ذلك الخبيث الماكر أصبح تحت التراب.

ساعد ميثم الرجل حتى سحبا المركب إلى اليابسة. في تلك اللحظة هبت ريح سوداء شديدة، فماجت قصبات الناي وتداخلت فيما بينها. أما ميثم والرجل العجوز فقد امتنعا خلف المركب ولاذا به. كانت الريح تحمل معها كل شيء؛ الأشواك والأغصان وأعواد القصب اليابسة، وتأخذها في كل اتجاه، حتى أنها أخذت معها صوت الرجل.

– من الذي قُتل؟

– لم يقتل. لقد سلب عزرائيل روحه؛ إنه معاوية بن أبي سفيان.

ما هذا الكلام؟ إن معاوية في الشام، ونحن هنا قرب الفرات...

– أقسم بالله أن مولاي عليًا لم يقل كلمة واحدة كذبًا حتى الآن. إن علامات هذه الريح هي نفسها التي تحدث عنها سيدي أمير المؤمنين. لا تعجب يا أبا خالد، فعن قريب سوف يصل رسول من الشام ومعه الخبر.

كان أبو خالد مختبئًا تحت حافة المركب، ممسكًا بها بإحكام. عندما سمع ذلك، تمتم بشفتيه قائلًا: «اللهم ارحمنا هذه المرة».



- أسرع يا أبا صالح! الآن يصل الجنود.

كانت شيرين تستمع إلى كلام زوجها باضطراب، والدموع تسيل على خديها، وطفلها الصغير عمران يصرخ ولا يقر له قرار.

وضع ميثم كيس الدنانير على حافة كوة الجدار، وتوجه إلى طفله الصغير. حمله وقبله، وراح يمسح دموعه بأطراف أصابعه العريضة، محاولاً إسكاته وتهدئته؛ لكن الطفل ظل يصرخ ويبكي دون توقف. في هذه الأثناء، كان صالح يقف عند عتبة الباب وفي يده خنجر.

- لماذا الخنجر يا بُنيّ؟

- أنا أيضًا سآتي معك.

- لا تقلق، فلن يحصل مكروه. من الأفضل أن تبقى، فأنت رجل البيت.

ارتفع صوت في الخارج يناديه باضطراب؛ إنه صوت ابن كميل، كان ينتظر قرب النخلة: «أقسمت عليك أن تسرع».

ظهرت بسمة لطيفة على شفتي شعيب. كان واقفًا بجانب النافذة، بالقرب من صالح.

- أبي؟

اقـترب ميثم مـن ولده صالـح. كان الأخـوان صالح وشعيب يشبهـان أحدهمـا الآخـر إلى حد كبير، على الرغـم من تباعد سنّهمـا. الفارق بينهمـا أن أنف شعيب كان أكـبر قليلًا، ويشبه أنـف جده الديلمي. بعد أن هدأ الطفل «عمران» قليلًا في حضن أبيه، أعطاه لزوجته، والتفـت إلى صالح وقال: «بماذا تعتقد أن مجيئـك سيفيدني؟». ثـم تناول كيس الدنانـير وأعطاه لزوجته شيريـن، وقال: «فيه من الدنانير الحلال مـا يكفي حتى تنفرج الأمـور». قال لها تلك الجملة، ثم وضـع قدمه عند عتبة الباب. غير أن صوت شيرين الحزين أجبره على التوقّف.

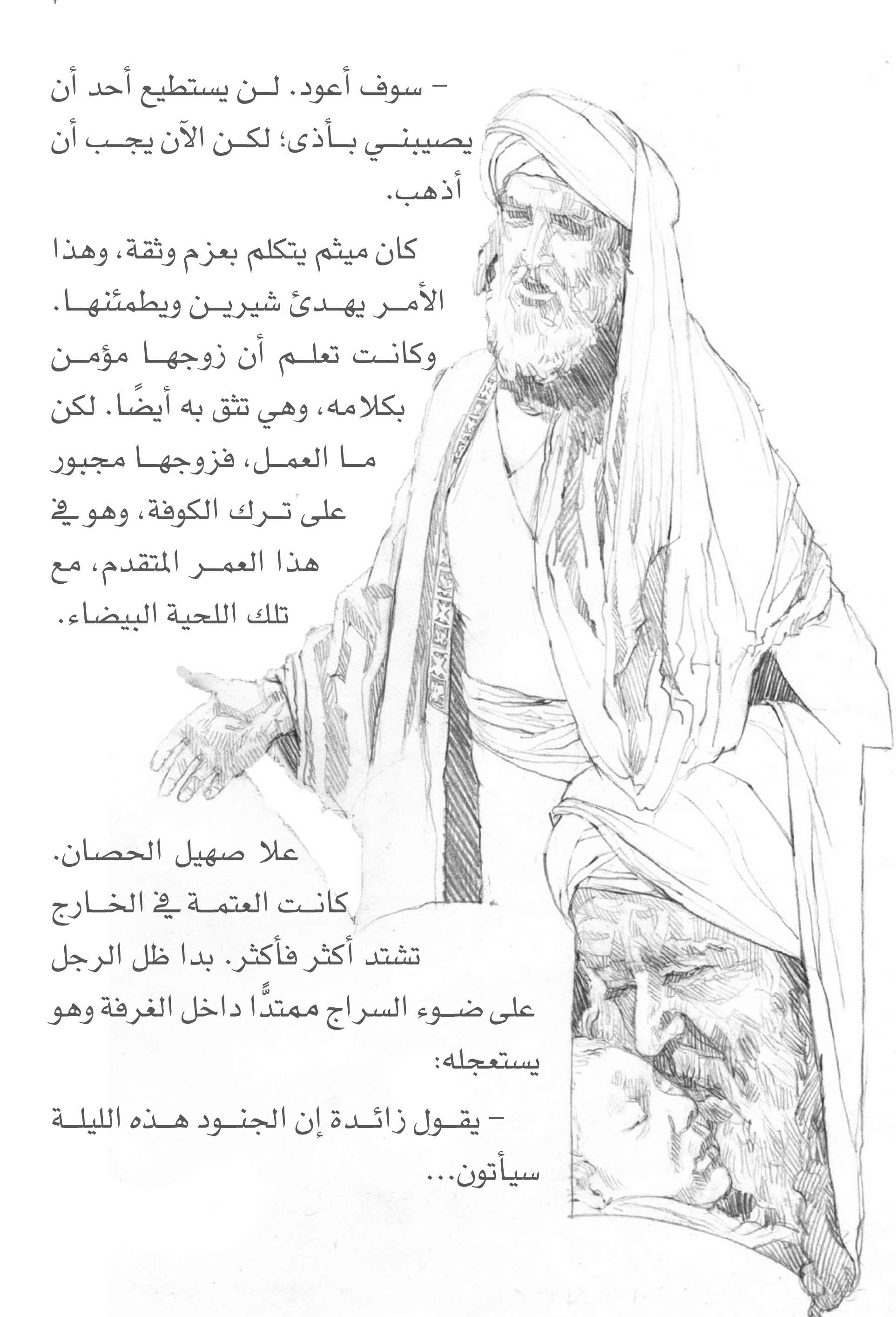
- إلى من ستكلنا؟

تبسم ميثم قائلًا: «اللّه»!

كانت شيريـن تبكي بصمت، ودموعها تنهمـر على بشرة يد عمران البيضـاء الناعمة. تابع ميثم حديثـه بلطف: «لا تقلقي، فـكل شيء سيكون على ما يرام. اشكـري اللّه أن بجانبك ثلاثة رجال أشداء. أما موتي فلم يحن بعد».

ارتفـع صوت الرجل في الخارج مـرة أخرى؛ صوت مضطرب يحثّه على التعجيل.

تنـاول ميثم قربة ماء كانت بالقرب من الباب، ثم التفت إلى شيرين لآخر مرة، وقال: «سوف تمضي هذه الأيام الصعبة، فلا تقلقـي». كان يقرأ في عينَيّ زوجتـه الطافحتين بالدموع: «وكيف لا أقلق؟».



- سوف أعود. لـن يستطيع أحد أن يصيبنـي بـأذى؛ لكـن الآن يجـب أن أذهب.

كان ميثم يتكلم بعزم وثقة، وهذا الأمـر يهـدئ شيريـن ويطمئنهـا. وكانـت تعلـم أن زوجهـا مؤمـن بكلامه، وهي تثق به أيضًا. لكن مـا العمـل، فزوجهـا مجبور على تـرك الكوفة، وهو في هذا العمـر المتقدم، مع تلك اللحية البيضاء.

علا صهيل الحصان. كانـت العتمـة في الخـارج تشتد أكثر فأكثر. بدا ظل الرجل على ضـوء السراج ممتدًّا داخل الغرفة وهو يستعجله:

- يقـول زائـدة إن الجنـود هـذه الليلـة سيأتون...

- كم تكثر من الكلام يا رجل! لن تسقط ورقة من شجرة إلا بإذنه وإرادته.

حمل ميثم طفله لآخر مرة، قبّله، ثم توجه إلى صالح. أخذ الخنجر من يده، وغمسه كالمسمار في شق الجدار، ثم وضع يده على كتف ولده صالح وهزّه، وضمّه إلى صدره، وقال: «أمك قلقة. اعتن بها جيدًا، لن يحدث أي مكروه. إن شاء الله سوف أعود». بعد ذلك توجه إلى شعيب، ركع قباله، أمسك أنفه العريض، وضغط عليه قليلًا، وقال: «كيف حال رستمي؟» ثم ضمه إلى صدره بقوة وحنان، وهو يقول: «أنت وصالح رجلا هذه الدار، فاستمع إلى كلام أمك». كان شعيب مذهولًا، فلم ينطق بكلمة واحدة؛ فقط هز برأسه الكبير. تبسم ميثم وقبله على وجنته، ثم نهض وتحرك نحو الخارج. في الخارج وقف هنيهة، وقال: «لا تذهب إلى الدكان لفترة يا صالح! لقد رتبت كل شيء».

كانت هذه آخر كلماته.

وضع قدميه في العتمة ومشى مبتعدًا، وهو يتناول خرقة من القماش كانت على كتفيه، وضعها لثامًا على وجهه، ثم مضى خارج الدار. لم يبتعد كثيرًا حتى سمع صوت بكاء شيرين. ارتجف قلبه لبكائها؛ لكنه ما رجع. قبض على يديه، وسار خلف ابن كميل الذي كان يتقدم في سواد الليل منغمسًا في عتمته.

رفع الحصان رأسه وصهل محمحمًا. كان ابن كميل قد سبقه وأخذ الحصان إلى الجهة الأخرى من الجسر ليسقيه الماء. رجع ابن كميل قليلًا إلى الوراء، ورمى ببصره الزقاق، فلم

يـرَ أثرًا للجنود. لقد أصبحت أوضـاع الكوفة أصعب بكثير منذ أن جـاء خبر رفض الحسين بيعـة يزيد. فأكثر رجال الشيعة قد زُجّوا في السجون، حتى أنهم كانوا يؤخذون على التهمة والظنة، فكان يخشى على كل من كانت له ذات يوم صلة بعلي وأصحابه، فيضطـر إلى ترك داره والهرب إلى خـارج الكوفة، أو الالتحاق بقبيلته في أقاصي الصحراء البعيدة.

وضـع ميثم رجله في الركاب، واعتلى ظهـر جواده، ثم تناول الرسـن من الرجل. صهـل الحصان صهلة خفيفـة، وانطلق به نحو الجسر الخشبي.

- أنتظرك بعد صلاة الصبح في تلك الجهة من النخيلة.

انطلـق الرجل مسرعًـا. كان ميثم يسمع صـوت قدميه وهو يبتعد راكضًا.

انعطف الحصان بطريقه ودخل زقاقًا كان خلف داره تمامًا. يجب أن يدور حول المدينـة، ويلتف بجانب النهر الكبير، ويصل إلى بساتـين النخيل عند مفترق طرق القادسية. أثناء الطريق، بينمـا كان يمـرّ في حي قبيلـة مراد، سمـع أصوات وقـع أقدام الجنـود. كانت القناديل قد صبغـت الجدران بلون الحناء. أخذ حصانـه إلى زاوية إحدى الخرابـات، وراح يداعب شعر عُرفه؛ بينما الحيـوان يدق الأرض بحوافره وهـو مضطرب. نزل ميثم عـن ظهر جواده، أمسـك بفمه، وأخذ يمسح علـى أنفه ورأسه؛ والحصان يحمحم ويصهل صهيلاً خفيفًا.

مضت لحظات وميثم ينظر إلى ضوء خافت كان نوره يتضاءل

رويــدًا رويدًا. عندما مضى الجنود، ركب حصانه وسار بخلاف مسيرهــم. كان الزقــاق يعبــق برائحــة بقايا الزيــت والصوف والقصب المحترق في المشاعل.

لم يــزل الليل في أولــه؛ لكن أكثر الناس كانــوا قد خلدوا إلى النــوم، فــلا أصوات تصدر عن النوافذ. لا صــوت لأب، ولا بكاء لطفل. لكن على الرغم من ذلك، لو أنصتّ جيدًا لسمعت صوت اجــترار الإبل من خلــف جدران الحظائــر المرتفعة، ناهيك عن نباح الكلاب الشاردة التي كانت تسمع بين الحين والآخر، وتزيد مــن رهبة العتمــة ووهمها. ولعل بنات آوى هــي التي كانت تعوي بحرقة هكذا. كل صوت في تلك الليلة كان حادًّا ومؤذيًا؛ فلو كان رستم حيًّا لقال: لعل أحدهم قد مات، أو لعل كبيرًا من كبار أهل الكوفة سيدفن غدًا. أحاديث يمكن أن تكون صحيحة. وهو يعلم بأن رستم يميل قليــلًا إلى الأساطير، ويحاول أن يستخرج شيئًا من أي حادثة خيالية.

كان القمــر ينحّي قطع السحاب جانبًــا، وينشر نوره الأبيض علــى الجدران الطينية. أما شجــرات النخيل التي تطاولت على الحيطــان، فقد قدّت بظلالهــا الطريق نصفــين، فبدا الطريق تمامًا كالسلّم. فلــم يكن يدري ميثم أيصعد منه مع حصانه أم ينــزل. كان شارد الذهن. لعلها أيضًا كانــت درجات عمره التي عبر أكثر من نصفها، والآن سيقف عند آخرها؛ فعمره الآن قارب الخمسين، أمضى منه أكثر من ثلاثين سنة ونيفًا في هذه المدينة؛ منــذ أن كانت الخيام منصوبــة في هذه البراري الحمراء، وكان

العــرب متخالطين ومتداخلين، لا يفصــل بين حياتهم سوى تلك الخيام المنسوجة مــن الصوف ووبر الإبل، إلى أن بنوا العرائش والسقائــف من القصب، ثم أجبرتهم النــار على بناء بيوت من الطــين، بوضع اللبنات بعضها فــوق بعض، لتصبــح أكواخًا، أو بيوتًا متواضعة. لقد تغيرت الكوفة كثيرًا في هذه السنوات؛ حتى أخــذت الأبنيــة المرتفعة والــدور المؤلفة من طبقــات عدة مكان كل ذلك الخــراب. لقد أصبحت الجــدران مجصصة، وتزينت الأبواب بالنقوش والرسوم؛ نقوش فارسية انتقلت عبر الحروب بالسلب والنهب، أو بأيدي صُنّاع ونجارين أعاجم. كل ذلك جعل مــن الكوفة مدينة عظيمــة، مدينة أكثر عمرانًــا وجمالًا؛ لكنها فقــدت بساطتها ورونقها الهادئ. مع ذلــك، كان ميثم يظن أنه ما زال ذلك الفتى الذي جُلب إلى ميدان كناسة، في ذلك الفجر القارســ، مقيد اليديــن. كان يستطيع أن يبــدل حياته، ويعيش حيــاة رغيدة هانئة؛ لكنه لم يفعل. فالآن يرى حياته تشبه تمامًا هذا السلّم الذي صنعته شجرات النخيل بظلالها. كان يشعر أن شطــرًا من حياته فقط له وزن وقيمة. إنهــا السنوات الأربع وما زاد عليهــا من الشهور، تلك المــدة التي قضاها أمير المؤمنين في الكوفــة. كان يشعر أن حياته شبيهة بميــزان قد خلت كفّتاه من الجهتين، وهو يقف في الوسط عند مركز الثقل. كانت اللحظات مــع علي لا تنسى أبــدًا. اغرورقت عيناه بالدمــوع، ورسم غشاء دمعــه هالة علــى وجه القمر، بينما هو ينظــر إليه. في أول مرة، عندمــا رأى أحدهمــا الآخر، اهتزّ وجوده دفعــةً واحدة. ما زال

يشعر بتلك الرعشة التي هزت كيانه بالقرب من جدار جعدة:

من الجيد أنك رحلت ولم تر هذا اليوم!

اختنق ميثم بعبرته. كثيرًا ما كان يشتكي عليّ من أهل الكوفة. لكن ميثمًا لم يكن يعتقد أن الغدر يصل بهم إلى هذا الحد، فيتركوا ابنه وحيدًا، ويسلموه إلى خنجر عدوه.

جرّ حصانه وخرج من المدينة. خارج الكوفة كانت الأكواخ قد بنيت بين مزارع القصب، حيث يعيش عرب وعجم في تلك الخرابات والأكواخ البسيطة. كانت حاشية الكوفة قذرة وخربة بمقدار ما كانت عليه المدينة نفسها من العظمة والأبهة والجمال؛ فحاشية الكوفة كانت عبارة عن عرائش من القصب، بالإضافة إلى الخيم والأكواخ المنتشرة في كل مكان، والمتداخلة في بعضها بعضًا. لقد انحدروا إلى الكوفة من كل جهة وصوب، خصوصًا العجم الذين قدموا من تيسفون واكباتان، ومن مناطق أخرى بعيدة، من أجل لقمة العيش. لقد سمع أيضًا أن بعض الناس جاؤوا من خلف الأنهار المليئة بالماء، ولا يمكنه تذكر اسمها بدقة. كانت الخيام والعرائش تبدو أكثر خرابًا تحت ضوء القمر. رفع ميثم رأسه نحو السماء. كان حجاب رمادي باهت من السحاب يجر نفسه ليغطي وجه القمر. منذ أن انطلق ميثم وهو يشعر أن القمر يلاحقه. تأوه، ثم همس في نفسه «علي! علي!».

فجأة تذكر ميثم شيئًا، فأخذ برسن حصانه والتفّ عائدًا، وسلك بجانب نهرٍ حُفر مؤخرًا. كانت شجرات النخيل في الجهة الأخرى من النهرِ تبدو شامخة، وأوراقها الخضراء النضرة

تتمايل مع هبوب النسيم، كأنها تدعوه إليها. عندما أصبح قريبًا منها، ترجّل عن جواده، وربطه بإحدى الشجرات، ثم تقدم بهدوء. ما زال بستان النخيل يعبق بطيب عطر علي. فجأة انهمرت دموعه وراح يبكي بصمت. نظر حوله، قبل أشهر عدة من تلك الضربة التي تلقاها علي على رأسه، جاءا معًا إلى هنا في جوف الليل. تقدم أكثر، وقف عند نخلة عظيمة الجذع، مسح بيده عليها. كان هنا. جلس على ركبتيه، وسوّى الأرض بكف يده. لم يكن للخط أثر؛ لكنه يشعر بمكانه بيده. لم تكن تلك الليلة مقمرة، بخلاف هذه الليلة؛ لكن القمر كان منيرًا إلى الحد الذي استطاع معه أن يرى الخدوش في الأرض، حين تناول أمير المؤمنين عودًا ورسم له خطًا. بداية لم يفهم معنى هذا الفعل. لقد تذكر أن حافة الخط الذي شقّ الأرض، كان لها ظل تحت نور القمر الباهت. قال له علي:

- لا تتعدَّ هذا الخط!

تعجب ميثم حينها. في كل مرة كانا يأتيان إلى بساتين النخيل، سواء وحدهما، أو مع كميل وأصحابه الآخرين، كانا يبقيان معًا حتى النهاية؛ لكن هذه المرة ذهب علي وتركه وحيدًا. ما الذنب الذي فعله يا ترى؟ كان يودّ كما في كل مرة [مشاهدة] علي يمشي في المقدمة وهو يمشي خلفه، ويستمع إلى نجواه وحديثه.

تلك الليلة لا يمكن أن تفارق ذاكرته. بقي فيها وحده، وذهب علي، وابتعد حتى اختفى في العتمة بين شجرات النخيل. في البداية اعتقد أن عليًا ذهب ليتوضأ. لكن كان كلما انتظره

لا يعـود. حـدث ذلك في الفـترة التي شـاع فيهـا أن معاوية قد استخدم أجراء وعملاء لقتل علي. لذلك، قلق ميثم عليه كثيرًا. اتكأ على النخلة التي شاخت بعد أن كانت فتية؛ كان يجلس فترة مـن الزمن ويقـف أخرى؛ لكن لا خبر عن علـي. كأن الزمن قد توقف ولم يعد يتحرك. لم يكن يسمع شيئًا سوى نواح مبهم يأتي مـع الريح. وقف يصلي، ثم راح يدور حول النخلة وينصت جيدًا علّـه يسمع شيئًـا، بعد ذلك، تقدم قليلًا نحـو الأمام؛ لكنه رجع وعـاد إلى مكانـه. حينها، غلبه القلق على أمـير المؤمنين من أن يصيبـه مكروه. فلو أصـاب مولاه عليًّا مكروه هـذه الليلة، وهما وحدهمـا، فلن يسامـح نفسه أبدًا. لم يكـن يستطيع حتى تخيّل الأمـر، أو مجرد التفكير به. فالكثيرون يعلمون أن أمير المؤمنين كان يخرج من داره ليلًا؛ إما لقضاء حوائج الناس، وأخذ الطعام إلى الفقـراء والمساكين، أو للذهـاب إلى مكان لا يعلمه أحد. فلو أدرك جواسيس معاوية ذلك فإنهم... ارتجف بدنه.

لا يـزال يذكـر جيـدًا. في تلك اللحظـة، اختفى وجـه القمر خلف السحـاب، وسمع صيـاح طير كأنه النـواح. تمسك بجذع النخلـة بقوة. كان ينتظر في العتمة والخـوف يأخذ منه مأخذًا؛ ينتظـر عله يسمع صوتًا، أو يرى علامة، أو (يسمع) صياحًا - لا سمـح الله- أو أي شـيء يبـدد قلقه وخوفـه. كان يسمع خفقان قلبـه فقط. في تلك اللحظات أدرك أن لا شيء أرهب من سكوت منتصـف الليل. كلما مرّ الوقت اشتـدّ قلقه وكبر. في النهاية لم يعد قادرًا على التحمل والصبر، فوضع قدمه خلف ذلك الخط،

وهو يشعر بالذنب. كان شعورًا سيئًا، لكنه مضى. أراد أن يرجع، غير أنه كان مشدودًا إلى الأمام. مع ذلك لم ير أثرًا لأمير المؤمنين، فزاد قلقه وتضاعف خوفه. كان يتخيل أن خلف كل نخلة يدًا تحمل خنجرًا، لكن كلا. كان السكون فقط، ونشيج صوت ماء الفرات الذي يأتي من البعيد. فصوت تلاطم ماء الفرات لا يُدرك في النهار؛ لكنه في الليل يُسمع بوضوح. كان يقترب من الفرات أكثر فأكثر في تلك البساتين التي لا تنتهي. في ظل ذلك السكون راح يركض بكل اتجاه، وأوراق النخيل تلطم وجهه ورأسه. لكنه لم يتوقف. أراد أن يطلق العنان لصراخه، لكن لا. كانت أنفاسه تخفق في صدره بجنون. في النهاية رأى عليًا في زاوية من أطراف بستان النخيل؛ رآه جثة هامدة مبتلًّا بدموعه، واضعًا رأسه في حفرة، يشكو همه وينوح ويتألم، ويبث أحزانه فيها. لم يصدق ما رآه؛ خليفة المسلمين يشكو همه وحزنه في حفرة من الأرض. كان يئن ويشكو من أهل الكوفة، ويطلب من الله أن يأخذه إليه. أحس ميثم بأن الدماء تجمدت في عروقه، ولم يعد قادرًا على التقدم خطوة واحدة، فأنين علي في تلك الليلة كان صاعقةً نزلت على رأسه. كان علي يقول أشياء تزلزله وتهزه من الأعماق. أحس بالخواء في قدميه، وكأنّهما قد شلّتا، فلم يعد قادرًا على الرجوع. لكنه لم يكن يعلم السبب؛ أهو ما سمعه من علي، أو لعدم إطاعة أمره، بعدم تجاوز الخط الذي رسمه له. أراد أن يرجع، فناداه علي بصوت جعله يرتعد، لكن أمير المؤمنين رفع رأسه ونظر في وجهه، ففهم ميثم من تلك

النظرة أنه كان يجب أن يبقى في مكانه.

- سامحني! لقد كنت قلقًا على حياتك، ولا سيما أن الشائعات...

نهض أمير المؤمنين وتوجه نحوه. أمسك بذراعه، ومضيا إلى الخط الذي رسمه علي. قال له إن لحيته سوف تخضّب من دم رأسه؛ لكن في مكان غير هذا المكان. ثم نظر إليه نظرة مليئة بالحزن، تمامًا كتلك النظرة حين التقت عيونهما لأول مرة...

رفع ميثم رأسه عن التراب. كان يبكي بكاءً شديدًا؛ حتى اختلط التراب بدموع عينيه، والتصق على خديه. «لكن متى ذلك يا مولاي؟».

أحس في تلك اللحظة أن عليًا بقربه، حتى أنه شعر بصوته؛ لكنه رفع رأسه فلم ير سوى وجه القمر مرتفعًا فوق نخلة باسقة. وقف يصلي مع نسيم الهواء العليل، تمامًا خلف ذلك الخط الذي رسمه عليّه. لقد اندثر الخط لكنه بقي منقوشًا في قلبه.

كان الليل ينقضي، وصياح ديك مبهم يأتي من بعيد. لم تمض لحظات حتى وصل صوت الأذان محمولاً على أجنحة الريح. أتمّ ميثم صلاته وأسرع إلى حصانه. يجب أن يصل إلى المكان الموعود قبل طلوع الشمس، لكن حصانه الأبيض حين رأى فرسًا حمراء، حرك رأسه وصهل صهلة، وانطلق مسرعًا خارج بساتين النخيل.

أعلم أن الطريق الطويلة قد أتعبتك أيضًا. تحمل قليلًا، فعندما نصل إلى المدينة سيكون لديك قسط وافٍ من الوقت لتستعيد همتك.

هــزّ الحصــان عرفه الأشقــر الطويل، وراح يضــرب الأرض بحوافــره، فتبسم ميثم، وقال: «من الجيــد أن نفهم لغة بعضنا بعضًــا. يمكنك أن تستريح ريثما أذهــب لرؤية سيدي ومولاي». ثنــى الحصان أذنيه الصغيرتين مثل غمد الخنجر، وصهل مرة ثانية، وراح يعدو خلف الفرس الكميت متوجهًا نحو المدينة.

كان ميثم يتأمل الجبال السوداء؛ كأنها جدران شاهقة تفصل بساتين النخيل عن الأرض القاحلة والبراري الجرداء، وتستقبل المدينــة بأحضانهــا فتعانقها. بُعيد السهــوب بقليل، يمتد جُرفٌ صخري عميــق وطويل. كان ميثم يعلم أنه يمتد إلى مسجد قبا. كان قســم منه مليئًــا بالمهملات والحجارة والأتربــة. لقد ذكّره الجُرف بالخندق الذي كان يمتــد خلف أسوار مدينتهم. خندق حُفــر خلف الأسوار مباشرة. لكن الخندق الذي يقع بالقرب من بساتــين نخيلهم كان مليئًا بالماء، بخــلاف هذا الجرف. عندما كانــوا يذهبون إلى البساتــين، كان والده يطلب منه أن لا يقترب من الخندق، لأنه لو وقع فيه فلن يخرج منه حيًا.

توجه ميثم إلى مكان من الجرف، كان قد ملئ بالتراب، حتى يتمكن الفرســان من العبور بسهولة إلى الجهــة الأخرى. تبسم ميثم وقال في نفسه: «أثر سلمان».

حمحــم الفرس عاليًا، وعبر الخندق. لكــن عيني ميثم كانتا متوجهتــين إلى جبــل أســود نُحت صخــره مثل الشرفــات. كان الجبل يلمع تحت أشعة الشمس كالمرآة. تقدم قليلًا، حيث المكان الذي صرعَ فيه أميرُ المؤمنين فارسَ العرب وبطلهم. لقد أخبروه

عن علامة الموقع. كان يراه (يتخيله) شابًا شجاعًا يتقدم وبيده ذو الفقار، وفي الجهة الأخرى فارس ضخم الجثة يزأر ويصيح. لقد أخبره علي بكل شيء. هزّ ميثم رأسه، ثم توجه إلى نخلة يلعب تحت ظلها عدد من الأولاد. في تلك الجهة، تقع مدينة كان قد بناها في مخيلته بناء على ذكريات قد سمعها. لقد زارها في موسم الحج مرات ومرات، لكنه بقي يحب ما بناه في مخيلته أكثر. في الناحية الأخرى امرأة كانت مشغولة بحلب ناقتها. كان اللبن يشخب من ضرع الناقة بقوة، وينسكب في إناء خشبي ويتناثر فيه، بينما بدت أطراف الإناء تميل إلى السواد من أثر اللبن الذي كان يبللها.

- من تريد يا عم؟ سألته المرأة وهي مستمرّة في عملها.

لحس ميثم شفتيه الجافتين، وأخرج من صدره نفسًا حارًا، ثم تقدم ولد إلى الأمام.

- لست أعلم. لقد أصبحت عجوزًا، أو لعلي جئت من طريق أخرى. لقد نسيت طريق المسجد.

- أي مسجد؟ هناك مسجد خلف هذا النخيل.

وقفت المرأة وهي تحمل إناء اللبن. تقدمت قليلًا، وقالت: «من المؤكد أنك جئت من بعيد. تقبل الله منك زيارة بيته. من تريد؟».. لم تمنحه المرأة فرصة ليقول شيئًا، بل نادت ابنتها: «عاتكة اجلبي لي كأسًا». ثم طلبت منه أن ينزل ويستريح قليلًا.

- أنا على عجلة من أمري

- قلت من تريد؟

خرجت من الخيمة بنت جعداء، وفي يدها كأس من الفخار قد كسر جانب من حافتها. أخذتها المرأة وغمستها في اللبن الأبيض.

- حسين بن علي.

رفعت المرأة رأسها، وضمت حاجبيها الكثيفين، وهزت برأسها، ثم مدت يدها لتناوله الكأس، وقالت: «أرى الكثيرين يأتون إلى حفيد رسول الله هذه الأيام».

انحنى ميثم وتناول الكأس، وشرب لبنها. كان دافئًا؛ لكنه طيب ومستساغ. ذكرته نظرة المرأة بماجدة.

- جزاكِ الله خيرًا عن عبد سقيته وأطعمته.

هزت المرأة رأسها، وأخذت الكأس من يده، وملأتها مرة ثانية، ثم ناولته إياها، وقالت:

- لا أعتقد أنه في المدينة.

رفع ميثم فمه عن الكأس.

- أو لعله يكون موجودًا؛ لكن في العادة يذهب في مثل هذا الوقت من السنة إلى ينبع.

- ينبع؟!

- نعم، نخيل أبيه.

تجمّد اللبن في حلق ميثم، وتحركت عقدة حنجرته من مكانها. لقد تغير طعم اللبن في حلقه. ناولها الإناء، وقال: «في مكة قالوا إنه في المدينة».

- لقــد قالوا الصواب، فداره قرب مسجد النبيّ؛ لكنه في كل عــام يذهب مع أهل بيته إلى ينبــع لجني محصول التمر، أي إن طريقه من هذه الجهة. أنا أعلم ذلك، وإلا فمن أين لي أن أعلم ماذا يجري في المدينة؟ ابن رسول الله دائم التفضل علينا، وكلما رجــع ومــرّ من هنا، ينعم علينــا، ولا يحرمنا مــن نصيبنا. لكن تناهــى إلى أسماعي بعض الأخبار؛ لعلّه هــذه السنة لم يذهب. وإن ذهب فسيعود بسرعة. لا أدري. لعله يوم أمس أو قبله، رأيت جمعًا يمرّون من هنا. لعلّه كان مع أهل بيته. لقد كان الوقت عند السحر، وأنا امرأة شحيحة النظر. أو لعلي أكون مخطئة؛ لأن في هذه الأيام تحدث أشياء، ويتناقلون أشياء، فلا أدري ماذا أقول. لعلّــه ليس في داره؛ لأنه فصل قطــاف محصول التمر، والجميع يريدون جني تعب سنتهم...

تنحنح ميثم. شعر أنه لم يفهم جيدًا ما قالته المرأة. لم يسمع كلامهــا جيدًا إلى حد مــا. لقد جاء من مكة وحيــدًا، وهو يفكر كيــف سيلتقي بابن أمير المؤمنــين إذا رآه وجهًا لوجه، فالحسين يذكّره بعلي. تأوه ميثم بشدة.

- قلق أنت؟

- لا.

- لست عربيًا؟

- عبد الله.

راحــت المرأة تصب اللبن في قربة جلبتها ابنتها من الداخل. بعد ذلك، رفعت رأسهــا تريد أن تقول شيئًا؛ لكن ميثمًا قاطعها

قائلًا: «جزاكِ اللّه خيرًا».

– الوقت قريب الظهر. يمكنك أن تستريح قليلًا، وترفع عنك عناء السفر.

رفع ميثم يده، ونادى على الفتاة. ثم انحنى وأخرج من العدل بعضًا من التمر، وضعه في حجر البنت، وقال: «تمر الكوفة طيب مع قلته». ثم تبسم وضرب بزمام حصانه ومضى.

ظلّت عينا المرأة تلاحقان الرجل الغريب، حتى توارى خلف شجرات النخيل العالية الممتلئة بالتمر الأحمر القاني. همس ميثم قائلًا: «إن شاء اللّه يكون موجودًا». كانت أمنيته الوحيدة أن يلقى الحسين بعد كل ذلك العناء. ثم تبسم وتمتم قائلًا: «سيكون كل ما فيه رضا اللّه».

كان الحصان يسير بهدوء، ويضرب الأرض بقوائمه، فيكسر صوتُ وقع حوافره سكوت أزقة المدينة. إنها مدينة رسول اللّه. كانت الكوفة أكثر حركة وضجيجًا. كان ميثم يعلم أنه يلفت نظر الناس هنا؛ خصوصًا مع سحنته التي كانت تدل بوضوح على أنه ليس عربيا. كل شيء في الكوفة مختلف؛ الضجيج، وألوان الناس، وأجناسهم المختلفة، وكذلك هواؤها الحار الرطب. فالكوفة مدينة الأعراق والألوان البشرية المختلفة، حتى لباس الناس؛ فبعضهم يرتدي اللباس الأبيض الطويل، مثل غالبية أهل المدينة، لكن كثيرين فيها يرتدون اللباس الملون القصير. أما في المدينة، فحتى سيماء الناس وملامحهم متشابهة إلى حد ما. في الطريق سأل امرأة سوداء عن دار الحسين بن علي.

كانت الجارية تحمل قربة على كتفها. رفعت الجارية رأسها، فبانت أسنانها البيضاء الناصعة في فمها الغليظ، وظهر بينهما تضاد كبير، وبدت للرائي أنها دائمة التبسم. لم تقل الجارية شيئًا. أشارت فقط بيدها نحو المسجد، ثم انعطفت ودخلت في زقاق آخر. ترجل ميثم عن ظهر جواده، وضع الرسن على كتفه، ومال بطريقه. كان يمشي بهدوء، ويتأمل كل شيء بعينيه الحادتين؛ الرجال الذين كانوا يرصدونه بصمت، والأطفال الذين كانوا أنصاف عراة. كانت رؤوسهم المبللة تدل على أنهم خرجوا من الماء حديثًا. لم ينطق ميثم بسؤال. كان شارد الفكر؛ ماذا يفعل إذا لم يجد الحسين في داره... ثم مسح على رأس حصانه ولاطفه، فصهل الحصان محمحمًا.

كم أنت مضطرب أيها الجواد!

أخذ ميثم بزمام جواده، وجرّه إلى ظل نخلة، رفع السرج من على ظهره، وربطه بجذع الشجرة. كان جلد الحيوان يختلج ويرتجف، لذلك لاطفه ميثم مرة أخرى، فمد الحصان لسانه الطويل، وراح يلعق يد صاحبه، كأن الأمر أعجبه.

– سوف أعود ريثما يجف عرقك.

وضع السرج داخل العدل، وحمله بيده، ثم توجه نحو باب قد فُصل عن الزقاق بستار. وقف ميثم معتدل القامة وراء باب يسده الستار الغليظ، وسأل رجلًا كان يتقدم منه: أهذه دار الحسين بن علي؟

رمقــه الرجل بنظراته، وراح يتأمله من رأسه إلى قدميه، ثم هز رأسه بكل غرور.

- السلام على أهل البيت، وأبناء رسول اللّه!

لم يلق ميثم جوابًا. رفع صوته وسلم مرة أخرى. بعد لحظات سمع صوت وقع أقدام. تقدم شخص خلف الستار ببطء وهدوء. كان ظلّه يُرى من وراء الستار. بدا منحني القامة شيئًا ما.

- السلام عليك يا عبد اللّه!

- لقــد قدمت لزيــارة سيدي أبي عبــد اللّه. أهذه داره إن لم أكن مخطئًا؟

انــزاح الستار جانبًا، فرأى ميثم أمامــه امرأة عجوزًا تطلب إليه الدخول. مكث ميثم قليلًا يفكر؛ لعله أخطأ الدار.

- تفضل يا حبيب اللّه!

كان العــدل يثقــل يــد ميثم، فألقــاه بجانب الجــدار، ومشى خطوات عدة داخل الدار.

- لا يوجد أحد. تفضل يا أخي!

- جئت من سفر بعيد للقاء سيدي الحسين.

- جزاك اللّه خير الجزاء. من أين أتيت؟

- كانــت طريقــي طويلة. مــن الكوفة. لكني قدمــت الآن من زيارة بيت اللّه، من مكة.

- أشخاص كثيرون يأتون من الكوفة هذه الأيام.

تأوهــت المرأة العجوز بحرارة وتابعت: « وأي كوفة!» ثم مشت

حتـى وصلت إلى ظل الجدار وهي تـردد: «الكوفة... الكوفة...» بعـد ذلك، اقتربت من جلد معلق وقالـت: «قلت إنك قدمت من سفر طويل. اجلس لتشرب شيئًا باردًا».

نظـر ميثم في الأطراف. لا شيء يـدل على وجودهم؛ فالدار خاليـة، والسكون يعم المكان. لا وجـود لصوت أطفال، ولا صوت لأحد آخر في هذا الوقت من النهار. كانت الدار واسعة، والشعور بخلوهـا وسكونهـا كان أكـبر. ليس هناك سـوى بضع دجاجات وديكين أحمرين، كانت تبحث في التراب تحت ظل شجرة النخيل عـن بعض الديدان. انتظر ميثم علّه يسمع صوت أحد الأطفال، غـير أن المنـزل كان خاليًـا أكثر ممـا يظن. خرجـت المرأة من إحدى الغرف وبيدها فراء من الجلد، نشرته تحت ظل الجدار، وقالت: «لماذا لا تزال واقفًا؟ ألم تأت إلى دار سيدك ومولاك؟

– لكنه...

– إنه ليس هنا، لكن داره مفتوحة للجميع.

أصبح ميثم حائرًا ومترددًا.

– لكن أنا...

– لقـد جئت إلى المـكان الصحيح. إنه منـزل ولدي الحسين بن علي.

تابعـت المـرأة حديثها بحزن: «رحم الله عليًّـا لقد عاش هنا أيضًـا. كما أنه كان منزل رسول الله. كانت أكثر أوقات الرسول هنا. ما زلت أشعر بطيب رائحته إلى الآن».

أحسّ ميثم برجفة في جسده. لكن من تكون هذه المرأة العجوز؟ لقد سمع أن ابنة الرسول قد رحلت عن الدنيا وهي في سن الشباب. ولكن من تكون هذه الأخرى؟ بينما هو شارد التفكير، وإذ بصوت المرأة يسمع من داخل الغرفة. خرجت وهي تحمل إناء. كان يرتجف في يدها.

- لا تتكبدي العناء.

- الضيف حبيب اللّه يا ولدي!

توجه ميثم إلى ظل الجدار، وجلس من غير أن يخلع حذاءه. لكن المرأة أصرت أن يجلس على الفراء ويستريح.

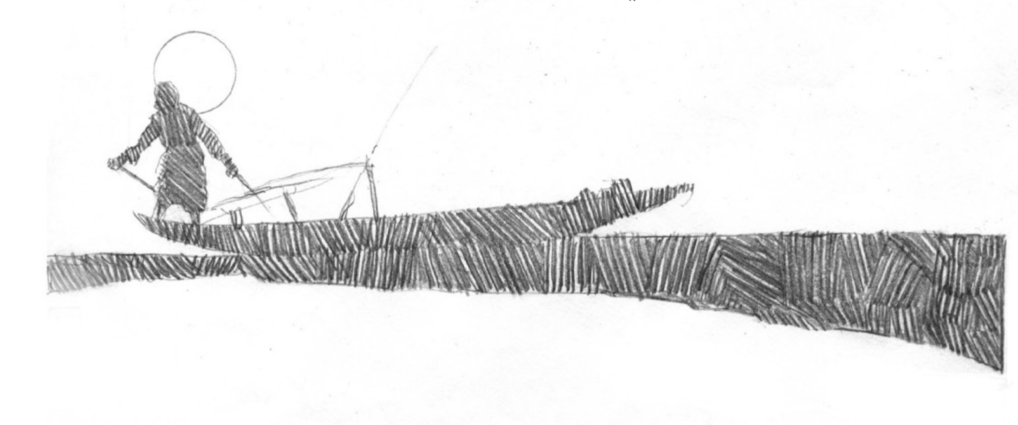
- فراء مبارك لقد جلس عليه رجال كبار.

مد ميثم يده وتلمّس جانبًا من فراء الجلد، ولم يجلس عليه.

- هنا أكثر راحة

كانت صورة وجهه المتعب ترى في الماء داخل الإناء.

- لكن أين سيدي أبو عبد اللّه الحسين؟



رفعت المرأة العجوز رأسهـا، فظهرت على وجهها المتقدم في العمر تجاعيد خطها الزمن. مع ذلك بدا وجهها عطوفًا ومفعمًا بالرحمة.

– أكثر الرجـال الذين يأتون للقاء ابن رسول الله هذه الأيام من العرب. أما أنت...

أشرقـت عينـا ميثـم. وضع الإنـاء جانبًا، وقـال: «ميثم بن يحيى. عجمي. لقد اشتاقت روحي لرؤية ابن رسول الله».

رفـع ميثم بصره، ونظر إلى أعلى الجدار المقابل. كانت تقف فوقه حمامتان. وكانت الأنثى منهما تطلق العنان لهديلها.

– ذهبوا منذ أيام عدة لجني محصول التمر!

– إلى أين؟

– بعيـدًا من المدينة. إنه قريـب البحر. أنا خادمة بيت ولدي الحسين.

ما إن أكملت العجوز جملتها حتى صدح صوت امرأة في الدار:

– ها أم سلمة! لقد جئت لآخذ رحى فاطمة.

دخلـت امرأة شابة إلى الدار؛ لكنها مـا إن رأت رجلًا غريبًا حتى رجعت إلى الرواق.

– إنها في تلك الزاوية، تحت ظل النخلة يا ابنتي!

لم تمضـ لحظات حتى دخل فتى. ألقـى السلام ومضى إلى

ظلّ النخلة. حمل حجر الرحى، وخرج من الدار مسرعًا.

- لم تقل ماذا تريد من ولدي الحسين بن علي؟

كان ميثم مذهولًا ينظر إلى تلك المرأة العجوز. لقد سمع بهذا الاسم كثيرًا؛ لكنه لأول مرة يرى أم سلمة. نهض من مكانه، وألقى عليها التحية، مرة ثانية، بكل احترام، واعتذر إليها لعدم معرفته بها. تبسّمت أم سلمة وقالت: «قلتَ إنّ اسمك هو ميثم؟» كأنها تذكرت شيئًا. همست باسمه، ثم تابعت: «من المؤكد أنك رجل طيب حتى يوصي رسول اللّه بك ابن عمه علي بن أبي طالب. كنتُ كلما سمعت باسمك تذكرت سلمان. كان رسول اللّه يجلك، وكنت أحيانًا أسمع منه أشياء، حتى اعتقدت أنك تختلف عن الآخرين كثيرًا».

لم يكن ميثم قد سمع حديث أم سلمة، ولم يكن رسول اللّه قد رآه. كان ينظر إلى الحمامتين كيف تتنقلان فوق الجدار من طرف إلى طرف بخفة، ثم تعودان، وهما تشجوان.

- وعلي كان يحبك أيضًا. لقد أصبحت عجوزًا ولا أتذكر كل شيء؛ لكني ما زلت أذكر أن سلمان جاء يومًا إلى داري ورسول اللّه عندي، فذكر رسول اللّه اسمك على لسانه. وعندما جاء علي وجلس مع رسول اللّه أوصاه بك. لم أنس ضحكة سلمان ذلك اليوم. غير أن الرسول قال إن اسمك شيء آخر.

نظر ميثم إلى قعر الإناء، وكان فيه بقية من الماء. تناوله وشرب ما بقي فيه. أحس أنه ألذ وأطيب من ذي قبل. ثم نظر

مجددًا إلى أم سلمة. كانت تقول: إنّ الحسين ولدها، وهي تحب أهل بيته أكثر مما تحب أهلها...

إنهـا الشخص الذي سمع باسمـه في الكوفة لمرة واحدة على لسان ابن سيده ومولاه.

وضع ميثم الإناء بجانب القربة، ثم نهض قائلًا:

– أطال اللّه بعمرك وأدامك يا أمي!

– إذا لم يكن لديك الليلة مكان في المدينة، فإن دار ابن رسول اللّه مفتوحة للجميع.

– ليتني استطعت رؤيته.

هـزت أم سلمة برأسها، ولم تقل شيئًـا. نظر ميثم إليها مرة أخـرى. كان ظـل النخلة ممتدًّا علـى ذراع يدهـا المستندة إلى جـذع الشجرة، وهي واقفة منحنية الظهر. أحسّ بشعور غريب. كأن المـرأة كانت تعلم عنه أشياء كثيرة، أرادت أن تقولها. ارتفع صـوت الأذان. أراد ميثـم أن يسألها شيئًـا؛ لكنه لم ينبس ببنت شفـة. ثم توجه مباشرة نحو بـاب الدار، وقال: «سرج الحصان وزاد سفـري خلف هذا الستـار. سوف أعود بعـد صلاة الظهر لآخذهما».

لم ينتظر ليسمع جواب أم سلمة. وضع قدمه في شمس الزقاق ومضى.

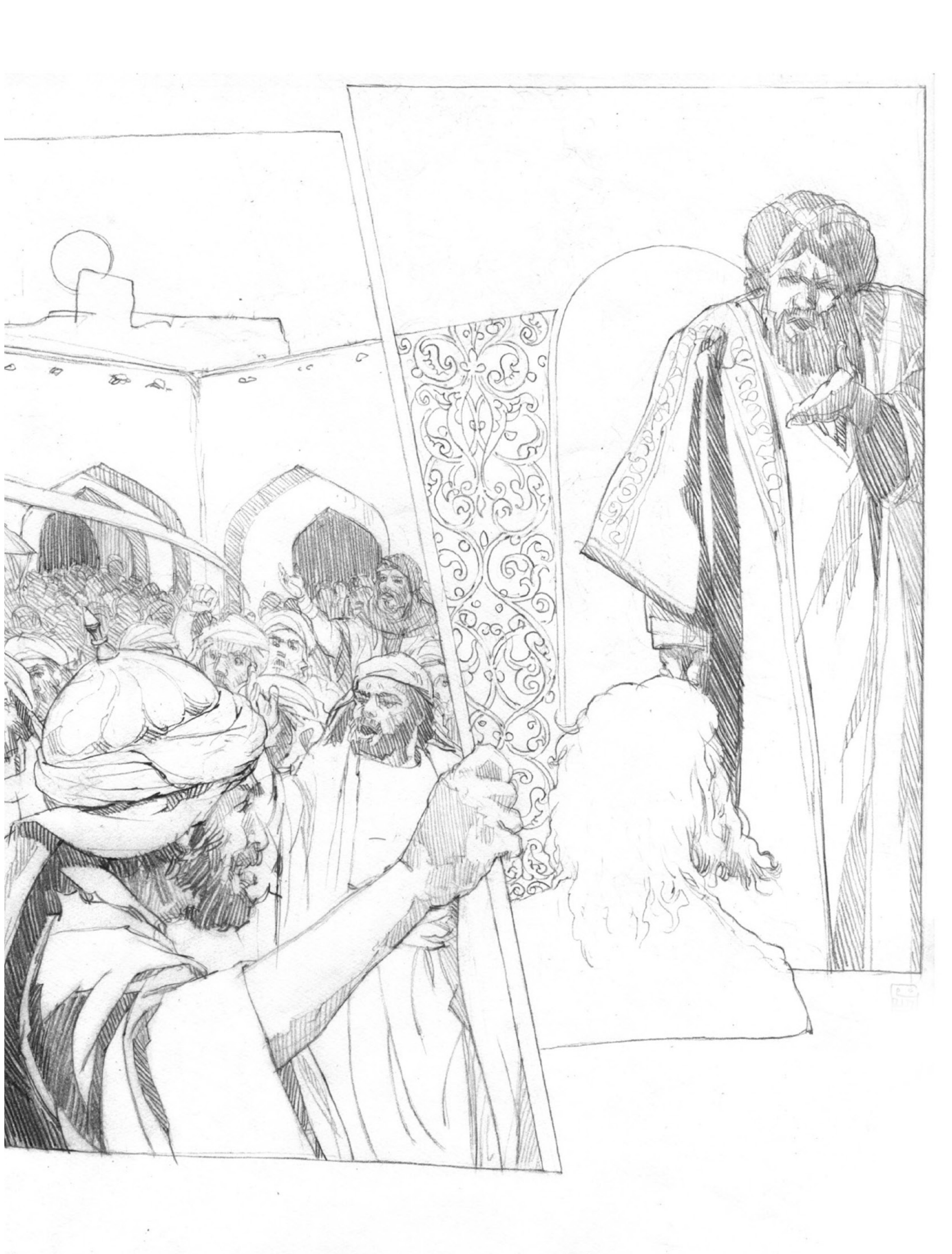


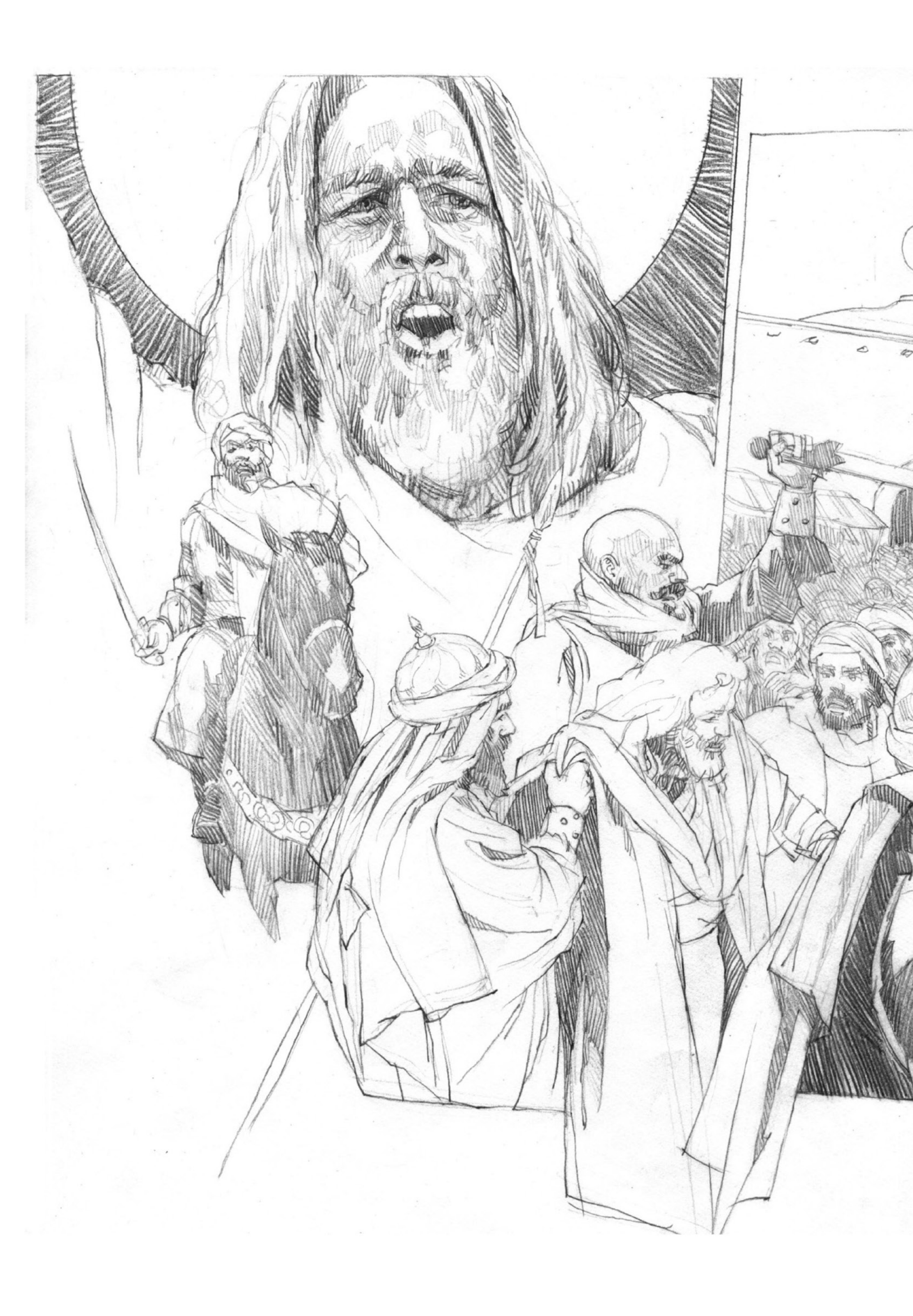
- كل يوم يغيرون على السوق بذريعة ما، ويسطون علينا.
- لم يعد الوضع قابلًا للتحمل.
- نحن أردنا هذا البلاء، وها هو قد حل بنا.
- الآن ليس وقت هذا الحديث. يجب أن نفكر في حل ما. ماذا تقول يا أبا صالح؟ أنت كبيرنا ورئيس تجار الكوفة.

كان ميثم يجلس في زاوية الغرفة، وهو مطرق برأسه إلى الأرض، وغارق في تفكيره.

- يجب أن لا يخرج أبو صالح إلى الضوء؛ فجنود ابن زياد يبحثون عنه في كل مكان.
- أجل يجب أن يبقى ميثم متخفيًا حتى نرى ما سيحدث؛ فالأوضاع لن تبقى على هذه الحال.

قام رجل من مكانه، وقد ظهر عليه الاستياء والقلق، واحمرّ صدغاه من شدة الغضب. أبدل مكان جلوسه، ثم قال: «أنا لم أعد قادرًا على التحمل». بعد ذلك أشار إلى حلقه، وتابع: «لقد وصلت أنفاسي إلى هنا أيها الأخوة! ثم إن جنود عبيد الله لا يحتاجون إلى ذريعة. لقد وصلت الأمور مع هذه الأوضاع، إلى حدّ سادت الأحقاد والخلافات القديمة، وكل إنسان لديه عداوة





مع شخص آخر، أصبح يرى أن الوقت قد حان لينتقم منه».

تنحنح ميثم وراح ينظر إلى التجار. كان قد وصل لتوّه إلى الكوفة، وهو لا يزال تعبًا من عناء السفر. مع ذلك، لم يذهب إلى بيته، بل جاء برفقة أحد أصحابه، ونزل في منزله، فتجمع الناس، ولما سمع التجار بأن كبيرهم قد رجع اجتمعوا ليفكروا في حل.

- غدًا صباحًا - بمشيئة الله- سأتكلم في السوق. يجب أن يسمع الجميع.

اضطرب المجلس، حدثت ضجة.

- ما هذا الكلام يا أبا صالح؟! لا أحد يعلم بقدومك إلى الكوفة.

تبسم ميثم، وبدا وجهه على ضوء الشمع كأن له هالة.

- هذا الفعل خطير؛ إنه خطر على الجميع.

- الكوفة بيتي، وهؤلاء جميعًا أخوتي. لن يحدث إلا ما أخبرني به سيدي أمير المؤمنين.

- لكن من الأفضل أن تصبر، حتى يستتب الأمر، فجنود ابن زياد كانوا في أثرك بعدما خرجت من الكوفة.

- أنا أرى من الأفضل أن لا تظهر هذه الفترة. لقد سمعت أن المبغضين والحاقدين قد وَشَوا بك عند ابن زياد، وأوغروا صدره ضدك. فأنت لسان أهل الكوفة وتجارها، ولا تُنسى تلك المرة حين ذهبت إلى قصر الحاكم، وتكلمت بالحق، ودافعت

عـن حقوقنا، وألجمت ابن زيـاد وأجبرته على السكوت والحكم لصالحنـا؛ لكن الجميـع شاهدوا أمـواج الضغينـة والحقد في عينيه. هذا الشـاب أكثر حقدًا من أبيه، وأكثر اشتهاء للسلطة. ولقـد رأينا كيف علق المشانق، وحكم على الناس بالموت من غير جرم اقترفوه.

قطب ميثم جبينه. كان يهز برأسه ويستمع إلى كلام سليمان.

- هناك الكثير من هذا الكلام... ولكن ما الخبر في الحجاز يا ميثم؟ هل رأيت مولانا الحسين أم لا؟

تـأوه ميثم بأسف وحرقـة. لقد ذهب لرؤيـة سيده الحسين، وسـار من مكة على أمل أن يلقـاه في المدينة، ثم عاد مرة أخرى إلى مكـة، ومكـث فيها مدة، لعـل الحسين ينهي عملـه. ثم سار مـرة أخرى إلى المدينة لرؤيته، لكنهم قالوا له إن الحسين توجه إلى مكـة. بعد ذلـك تناهت إلى أسماعه أخبـار الكوفة ورسائل أهلهـا إلى الحسـين، وسمـع خبر رسـول الحسين بـن علي إلى الكوفـة، فأسرع عائـدًا إليها؛ لكنه وجد المدينـة غارقة بالدماء والفوضى. لقد ظهـر المنتقمون والحاقدون القدامى من جديد، وأطلـوا برؤوسهم الفاسدة. في وسـط كل هذه الفوضى، انبعثت الأحقاد والضغائن الخفية، فأخـذت معها كثيرًا من الناس إلى حفر المـوت، ووقع كثيرون في قبضة السجـان، واختفوا في عتمة السجـون، وعُلّق بعضهم علـى المشانق في الأزقـة والطرقات... عندمـا دخـل ميثـم الكوفـة، وجد تلـك المدينـة الغافلـة مليئة بالجراحـات؛ فرسول الحسين كان قد قتـل، بينما العدد الأكبر

من الرجال، خصوصًا الكبار والأشراف، أمثال المختار الثقفي، قد سيقوا إلى السجن، ولم يُعلم ما إذا كانوا أحياء أو أمواتًا.

– في هكذا أحوال، لا أعتقد أن المقام مقام سكوت. إن مصير كل إنسان لن يكون إلا ما قدّر له الله. مثلما قلت لكم. أخبروا جميع التجار أن يحضروا غدًا، فإن في صدري أسرارًا جمة، وعلى الجميع أن يسمعوها. يجب أن يسمع الجميع ما قاله سيدي أمير المؤمنين عن هذا الحاكم الطاغية. يجب أن أذكّر مرة أخرى أولئك الذين نسوا ما قال أمير المؤمنين منذ سنوات خلت.

ثم زفر زفرة حزينة أخرجت حرقة صدره مع أنفاسه، وقال: «آه آه... كم هي مؤلمة هذه السنوات القليلة، وكم هو موجع هذا التبدل الكبير». ثم نهض وتابع كلامه: «لقد صدئت مدينة الكوفة، ويجب على أحدهم أن يزيل صدأها».

كان الجميع يعلمون أن ميثمًا قليل الكلام، لكنه إذا تكلم فإن حديثه يهز الجميع ويزلزل أبدانهم؛ لذلك اختاروه كبيرًا عليهم، ودعوه بعريفهم ليدافع عن حقوقهم أمام الحكام والأمراء. لكن هذه المرة أراد ميثم أن يقول شيئًا يجعل الجميع في حال من القلق والاضطراب.

– لقد تغير الزمن يا أبا صالح! ولا آذان صاغية، هذا السيف هو الذي يتكلم.

– لسان الحق أمضى من السيف يا سليمان! السكوت من ذهب؛ لكن حين يجب الكلام، فعندها يصبح واجبًا ليمنح الحياة قيمة ومعنى. إن صدري مثقل بالأسرار، وحتى الآن لم

أطلع أحدًا عليها. ليتني كنت أملك جرأة عليّ، فألجأ ليلًا إلى البراري والصحاري والجبال، وبساتين النخيل، وأحفر هناك حفرة، أشكو فيها بثي وحزن قلبي.

كان ميثم يتكلم بشجاعة وصلابة، وينظر إلى الآخرين من وراء غشاء دموعه، وقد أطرقوا إلى الأرض، وأجهشوا بالبكاء. فاسم علي قلب كيانه مرة أخرى، وجعله مضطربًا، ولم يكن قادرًا على إخفاء بكائه.

عندما أتم كلامه، قال بهدوء: «غدًا سأتكلم بحديث سيبقى في الذاكرة، ولن ينسى أبدًا». ثم جلس مكانه.

كان الوقت منتصف الليل، فأخذ الناس ينسلّون من الدار ويتفرقون في العتمة واحدًا واحدًا، ويختفون في زوايا الأزقة والطرقات. كانوا جميعًا قلقين من الغد. خرجوا وأراد ميثم أن يخرج هو الآخر؛ لكن صاحبه قال له: «من الأفضل أن تمضي هذه الليلة هنا يا صديقي! فأنا مع هذه الجماعة لا أثق حتى بعينيَّ. ما يدريك لعل أحدهم يذهب إلى دار الإمارة من أجل كيس من الدراهم».

– هذا أفضل دليل على وجوب ذهابي من هنا.

– إلى أين؟ أنا أملك دارًا أخرى، فإن أردت...

– أنا أيضًا أملك دارًا أخرى، لكن في حي بني أسد.

– تقصد دار ماجدة العجوز؟ المرأة وحيدة ولم تعد تبصر بعينيها. إنها مجرد حفنة من العظام والجلد.

- ألا تعتقد أنه المكان الوحيد الذي يمكن أن أكون فيه بأمان؟

تبسم الرجل من فطنة ميثم، ثم ودّعه إلى باب الدار.

- لا تنس عند الفجر خذ وسائلي إلى داري، وأخبر أهل بيتي بقدومي. ثم أشار إلى العدِل وقال له: «لقد جلبت بعض الهدايا لأبنائي، يجب أن توصلها إليهم. حقًا! قل لولدي صالح أن يأتي إلى الدكان قبل شروق الشمس.

وقف الرجلان في العتمة.

- لكن دار ماجدة قريبة من دار ابن حريث رئيس شرطة الكوفة.

- هذا الأمر لا يجعل أحدًا يشك بي، ثم إن الله هو الحامي والحافظ لعباده.

بعدما أنهى كلامه، ضمّه صاحبه إلى صدره وعانقه، وسار ميثم في العتمة يخط الأرض بخطوات هادئة. هل يجب أن يوقظ ماجدة من نومها، أو عليه أن يذهب إلى مكان آخر؟ إن قلبه لا يطاوعه أن يُقلق امرأة عجوزًا في منتصف الليل، مع علمه أن ماجدة تشعر برائحته، وهي الآن مستيقظة. بقي حائرًا في أمره، ماذا يفعل؟ وإلى أين يذهب؟ وقف في منتصف الطريق. عاد وسلك الطريق المؤدية إلى حي بني أسد. دار حول الحي وتوجه إلى ميدان الكناسة. كان يعلم أن المكان خطر، ويحتمل أن يكون مليئًا بالجنود. وقف في زاوية مظلمة. كانت أصوات بعض الجنود تأتي من جهة دار ابن حريث؛ حيث كان عدد منهم يقفون أمام منزله. كان ظل النخلة، تحت نور القمر، ممتدًا إلى

الجهـة الأخـرى من الميدان. قـال في نفسه: «عمـا قريب سوف أكون قرينك». ثم تلمّس الجدار بيده، وتابع طريقه.

في الجانب الآخر من المستنقع حُفر مؤخرًا نهر جديد. إلا أن المستنقع لم يعد له من أثر. كان الماء العذب يلمع في النهر، تحت ضوء القمر، مثل البلور. تقدم ميثم أكثر حتى وصل إلى منعطف مـن النهـر. كان المنعطف يقع خلـف أعواد القصـب المتشقة. هنـاك، خلع قميصـه، ونزل إلى الماء البارد. نـوى الاغتسال ثم غمـر رأسه في المـاء. عندما سكن بدنه، انسلّ مـن الماء بهدوء، وتوجّـه إلى الخارج. لكن ما إن وضع قدمـه على الساحل، حتى قفزت ضفادع عدة في الماء مصدرة صوتًا يشبه البقبقة.

– أنا لا أريد منكِ شيئًا.

خيم السكوت مرة أخـرى، وساد الصمت. كان الهواء البارد والمنعشـ يزيل عن بدنه تعـب الطريق. تنـاول قميصه البسيط ووضعـه على جسده. لقـد عاهد ميثم نفسه، بعـد شهادة علي، أن يكـون مثله بسيط الملبس، فلا يضـع على جسده غير اللباس الخشن الزهيد الثمن... ثم راح يذكر عليًا على لسانه...

كان الليل ساكنًا وهادئًا. مرة أخرى، بعد سنوات، تتكرر تلك الليـالي الجميلـة التي تأسـر القلوب؛ لكن هذه المـرة كان ميثم وحيـدًا، كانت أشجار النخيل الباسقـة تبدو من بعيد كالجدار. إنهـا أشجـار النخيل نفسها التـي كان أمير المؤمنـين وأصحابه يلجـؤون إليها. ذكريات جعلت الدمـوع تملأ عينيه. كان النسيم يهبّ فيرتعش جسده، بينما هو شارد يفكر... سيدي ومولاي! إن

صـدري قد مُلئ حزنًـا، وفاض أسىً، إلى متـى الصبر؟ لم أعد أملك طاقة على الانتظار. فمتى يحين الوقت؟

ثـم مضى نحـو أشجار النخيل؛ إلى المـكان نفسه الذي رسم فيه علي خطًا، وطلب إليه أن لا يعبره، وأن لا يخطو خلفه خطوة واحـدة، ولكنه تجاوزه ذلك اليوم. أما هذه المرة فقد وقف ميثم خلف الخط، وقف للصلاة.



- أيها الحمقى! ما بكم جمدتم كالحجارة، بينما هذا العلج الخبيث، في السوق، يشعل النار بسلالة بني أمية، ويبثّ سمّ الحقد بكلامه؟ أسرعوا حتى لا يفرّ مرة أخرى.

كان الجنود يركضون والسيوف بأيديهم تلتوي وتستقيم، ورؤوس الرماح الحادة المتوقدة تعلو ثم تنخفض. كانت عيونهم محجوبة خلف أقنعة من الجلد. خرجوا من الباب الكبير مسرعين، وتوجهوا نحو [طريق] السوق. مرّوا من أمام باب مسجد الكوفة المعروف بباب الثعبان، وذهبوا مباشرة إلى السوق.

التفت عمرو إلى ابن المغيرة وقال: «لست أدري متى رجع هذا الجنّي إلى الكوفة؛ فجميع الطرقات كانت تحت أعيننا».

- لا بد أنه دخل المدينة ليلًا على غير هيئته. لئن وصل كلامه إلى أسماع ابن زياد...

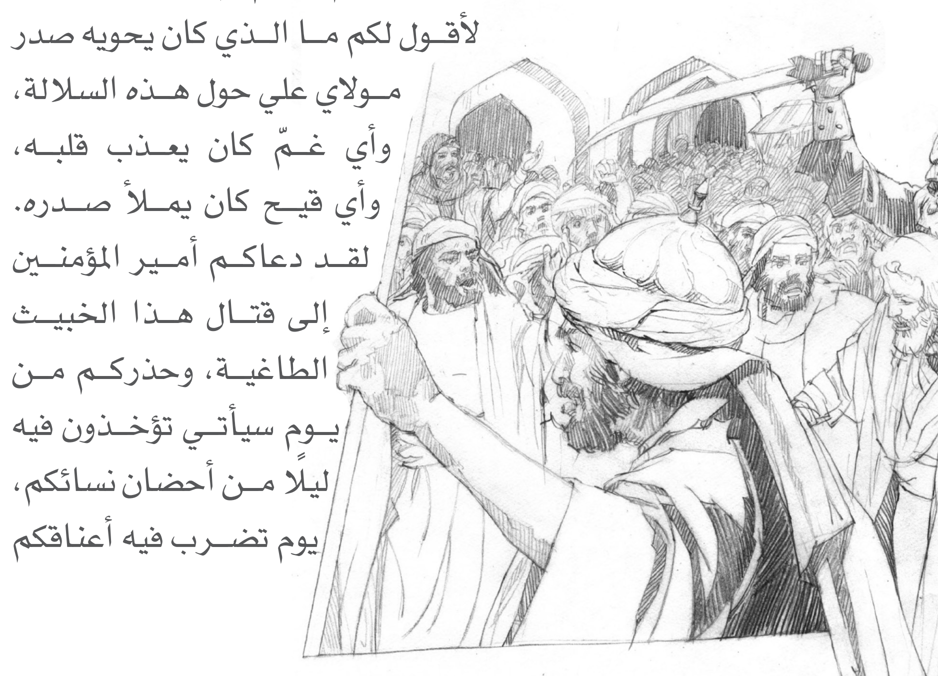
قطع عمرو كلامه قائلًا: «لقد وصل الأمر بهؤلاء العجم إلى أن يتجرؤوا ويضرموا نار الفوضى في المدينة.

- حتمًا سيفعلون ذلك. فعندما يصاحب خليفة المسلمين رجلًا من غير العرب، فإن هؤلاء العجم سوف يصبحون متغطرسين ووقحين أيضًا.

- لقد مات علي وتغير الزمن.

في أول السوق جلس رجل مسنّ أمام محل بيع الأحذية الذي يملكه. ما إن رأى الجنود قادمين، حتى هرع إلى الداخل، واختبأ في زاوية مظلمة من دكانه. كان الجنود يعبرون السوق بسرعة، وجيادهم تصهل صهيلاً عاليًا، وترفس بحوافرها الحشود الذين سدوا طريق السوق. لقد تجمع عدد كبير من الناس، حتى امتد جمعهم إلى ما بعد سوق السيوف والدروع. كان ميثم يتكلم بالجمع، ولم يكن صوته يسمع بوضوح؛ لكن الجميع كانوا يريدون رؤيته. لقد فرّ من الكوفة لشهور عدة، وها هو الآن قد عاد يدعو التجار والناس إلى التمرد. لم يكن جسمه النحيل يُرى؛ لكن صوته كان عاليًا ومدويًا.

- أيها الناس تعالوا حتى أكلمكم بكلام لم تسمعوه من قبل؛ لأقول لكم ما الذي كان يحويه صدر مولاي علي حول هذه السلالة، وأي غمّ كان يعذب قلبه، وأي قيح كان يملأ صدره. لقد دعاكم أمير المؤمنين إلى قتال هذا الخبيث الطاغية، وحذركم من يوم سيأتي تؤخذون فيه ليلًا من أحضان نسائكم، يوم تضرب فيه أعناقكم



بشفرات السيوف الحادة. فلو أنكم لم تسدّوا آذانكم في ذلك اليوم، ولم تركنوا إلى زوايا بيوتكم المظلمة، لما وصلتم إلى ما وصلتم إليه، وما كنتم اليوم بائسين تعساء، ينظر إليكم أعداؤكم بعيون ترى أن نسل أهل الكوفة يجب أن يمحى من الوجود.

كان صوت ميثم يرتفع كل لحظة ويعلو أكثر فأكثر.

– ما زلت أذكر جيدًا كلام أمير المؤمنين، حين كان يجلس على هذا الكرسي، وفي هذا السوق. أيها التجار إن كنت كاذبًا فارجموني بالحجارة. ألم يكن صهر النبيّ يدعونا إلى تعاليم الله وأحكامه؟ ألم يقل إنّنا جميعنا عباد الله، ولا فرق بين عربي وعجمي، ولا بين أبيض وأسود؟ ألم يكن يعطي الجميع من بيت المال بالعدل والمساواة، وكان يشير إلى خادمه ويقول: لا فرق بيني وبينه؟ أيها الأعاجم! يا أصحاب البشرة السوداء والحمراء! يا من يدعونكم بالحُمُر المُسمّنة التي لا فائدة ترجى منها سوى حمل الأثقال. الآن بعد أن فارقنا علي أصبحتم تدركون كلامه أفضل. أيها العبيد السود والأجراء المعذبون! ألم يحرركم علي وينظر إليكم بعين الإنسان؟ لكن عندما مرّغ في التراب أنوف أولئك الساعين إلى الراحة والدّعة، أصحاب البطون الكبيرة، وذكّرهم بجهالتهم، عندها لم يستطيعوا التحمل. في النهاية وضعوا أيديهم بيد عدوه، وخلّوه وحيدًا، وأدموا قلبه حتى صار يتمنى الموت. أقسم بالله أني سمعت عليًا في جوف الليل يطلب من الله أن يأخذه إلى جواره، وأن يولّي عليكم حاكمًا على شاكلتكم كما تستحقون. أقسم بالله إن في انتظاركم أيامًا أسوأ

مـن هذه. لماذا وقفتم ساكتين، وأصبحتـم كالحجارة الصماء؟ كل من يأتي يتفّ في وجوهكم ويزدريكم أسوأ ازدراء.

لم ينتـه كلام ميثـم بعـد. كان الجنود يصيحـون ويحاولون تفريـق الجموع بالسياط؛ لكن السوق ظلّ مزدحمًا بالناس، فلم يكونوا قادرين على التقدم بسهولة.

- مـاذا حـل بكـم بعـد عشريـن عامًا، حتـى نسيتـم سيرة أقـرب الناس إلى رسول اللّه؟ مـاذا دهاكم يا أهل الكوفة؟ أيها المسلمـون لمـاذا أنتـم ساكتون؟ ألا تذكـرون عندما كنـا جميعًا نصطف خلفه للصلاة في مسجد الكوفة؟ أما الآن فصار للعرب مسجدهم الخاص، بينما العجـم اتخذوا من الخرابة مسجدًا. أوليسـ جميعنا نسجـد للّه؟ لماذا يجب أن يكـون مسجد العرب ممنوعًا على العجم؟ لماذا يجب أن نسير على أقدامنا، بينما هم محمولون على الدواب والمراكب؟ لماذا عطّلت أحكام اللّه وكتابه، وارتفعت حجارة الجاهلية مرة أخرى على المنابر؟ ما أتعسنا من قـوم! لقد اشترينا جهنم بدنيـا غيرنا. جميعكم تذكرون حديث ابـن أبي سفيان، حين صعد منبر مسجـد الكوفة يومًا. في ذلك اليـوم نقض عهده وميثاقه، وقال: «واللّه إني ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصومـوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، إنكـم لتفعلون ذلك، وإنما قاتلتكـم لأتأمر عليكـم، وقد أعطاني اللّه ذلـك وأنتم كارهون» لكـن واحسرتاه!... إن الحسين ابن الخليفـة الشهيد في طريقه الآن إلى الكوفـة، وأنتـم تـرون بأعينكم كيف يضعـون السيوف علـى أوردة أعناقكـم، ويجبرون نساءكم علـى أعمال السخرة،

ويضيقــون عليكــم في كل الأحــوال، ويجــرّون كبار أهــل الكوفة وشيوخها إلى السجون، مقيديــن بالسلاسل والأصفاد... أجل، لأن دنيا هؤلاء الذين لا دين لهم أصبحت في خطر.

كان ضجيــج النـاســ وصياحهــم يعلــو، وكلام ميثــم الحــادّ يجذبهم، حتى أن أحدًا لم يكن يلتفت إلى الجنود.

– هــا قــد ابتلينا بــكل سهولة بمــا كان يحذر منــه علي. لقد سقطنــا في البئر بأيدينا؛ بطلبنا الراحة والعافية. وهذا ولد أبي سفيــان، وابن زيــاد، سوف يرويا سيفَيهما من دمــاء أكابر أهل الكوفــة وشيوخها، وليس من دماء الســود، ولن يعتقلا فقط كل محــب لأمــير المؤمنين، بل كل من يعتقد أنــه يملك فكرًا مخالفًا لــه. إن هذا الأمــوي اللئيم قد أحــل دماءكــم، وعدّكم من غير المسلمين، فأين هذا الحكم في كتاب اللّه؟ لماذا أنتم ساكتون؟

كانت كلمات ميثم تخرج كالسهام من قوس صدره.

– أقســم باللّه إن هذه الكلمات هي آخــر حديث إليكم، وعن قريــب سوف تروني معلقًا على شاهقة المــوت، وقد ألجموا فمي حتــى لا أكلمكم. أيها التجار! يا بائعــي التمور والأسماك! يا من تخالطون المساكين وترون بؤس الفقراء، إنكم ترون الظلم الذي يقــع على نساء أهل الكوفة وأبنائهــا. أي حياة هذه؟ لقد عطلوا أحكام اللّه، فلا دنياكم هادئة ولا عيشكم مطمئن. فهل بقي بعد ذلك شيء أسوغ للإنسان من الموت، فيطلبه من اللّه؟

– ابتعدوا! ارحلوا من أمام دكان هذا الخبيث المجنون.

أخذ الجنود يتقدمون بصعوبــة، ويضربون الناس بالسياط،

ويهددونهـم بالسيـوف والرماح حتـى يتفرقـوا. وكانت الخيول تصهل، وتدوس على أقدامهم، فتدمـي أرجلهم، وتبعدهم من أمامها. صاح ابن حريث وطلب من الجنود أن يريقوا دم كل من يعترض طريقهم. كان حصانه يطأ الناس بقوائمه، ويتقدم إلى الأمام ببطء.

- أيها التمار الخبيث! ما إن وصلت حتى اعتليت المنبر!

دخـل بضعـة جنـود إلى دكان ميثم، وراحـوا يبعثرون سلال التمر، ويفرغونها علـى الأرض. ثم أمسكوا به وسحبوه من على الكرسي إلى الأسفل.

- ليس عندي كلام أقوله سوى الحق.

- إنه المتمرد الذي يجمع حوله المشردين والبطالين.

- ميثم! إنه كبير تجار الكوفة.

- أنت الآخر! اصمت أيها المتمرد.

خـاف الرجل وتغير لونه، ثم تراجع إلى الخلف، واختفى بين الجموع.

- قيدوا يدي أحمر الوجه هذا، ليتضح من الذي يحافظ على أموال الناس وأرواحهم.

- قيدوا يديّ؛ لكنكم لن تستطيعوا تقييد فمي.

- سوف أحطّم أسنانك أيها المزاحم الثرثار!

أحـاط الجنـود بميثـم مـن كل جانـب، ولم يسمحـوا لأحد بالاقتراب منه. بعد ذلك جروه وسط زحام الناس وصياحهم.

- وأنتـم أيضًا، تؤجرون آذانكـم لكل ناعق. ابتعدوا من هنا،

وإلا سوف أقول لابن زياد إنكم...

حين رأى ابن حريث أن الضجيج لا يهدأ، أخذ برسن حصانه واستدار نحو الناس، وقال: «ابن الأعجمي هذا قد فرّ من العدالة، والآن يجب أن يذعن لأمر الأمير». غير أن الناس لحقوا بهم إلى دار الإمارة. فلما رأى ابن حريث أمرهم، سلّ سيفه وطلب من جنوده أن يسدوا الطريق عليهم بالحراب.

كان باب القصر الكبير مفتوحًا. دخل الجنود ومعهم ميثم. لكن ما إن عبر ميثم الدهليز حتى ضربه جندي بمقبض سيفه في خاصرته، وقال له: «الآن لا يمكنك أن تصدح بالخطابة هنا». أحس ميثم بألم شديد في خاصرته، لكنه لم يلتفت ليتعرف إلى الجندي. وقف هنيهة، فدفعه الجندي إلى الأمام، حتى صاروا داخل باحة دار الإمارة تحت أشعة الشمس المحرقة، ثم أكملوا وعبروا بجانب عدد من الخيول، كانت مربوطة بنخلة في ظل جدار الإصطبل، بينما تقف ناقة حمراء تجتر تحت أشعة الشمس، تمد عنقها غير آبهة بالشمس الحارقة. كانت تنظر إليهم بعينيها الواسعتين وهم يصعدون درج دار الإمارة. هدرت الناقة فجأة، فالتفت ميثم إلى الخلف، ووقع نظره على بضعة عمال كانوا يطلون الجدار بالجص الأبيض. عرف منهم مسلمًا الجصاص. كان مسلم واقفًا، فانحنى وتناول قبضة من الجص، وما إن توجهوا بميثم نحو الطمار؛ أي قبة القصر، حتى مسح الرجل الجص، وملأ به بقعة سوداء في الجدار.

كان ابن زياد غارقًا في سريره، ملتحفًا برداء حريري أخضر،

متدليًــا من على كتفيــه، وهو ينظر إلى خاتمه الــذي نقش عليه رسم أسد بين شجرتين. لم يرفع ابن زياد رأسه، علمًا بأنه رآهم من النافذة وهم يجلبون ميثمًا. دخل ابن حريث على الأمير وهو ممسك به، قائلا: «هذا هو الكذاب صاحب الكذابين». لم ينطق ميثــم بكلمة. انسلّ ابن زياد من على تختــه إلى الأرض. اقترب من ميثم. عبس، وقــال: «أنا أعرف هذا الخبيث. أليس هذا هو صاحــب اللســان الطويل الذي جــاء إلينا مع تجــار الكوفة ذات مرة، وكلمنا بصلافة وقلة أدب؟».

هز ابن حريث رأسه، وأراد أن يتكلم؛ لكن ابن زياد رفع يده، وقــال: «ليس عربيًا أيضًا»، ثم اقــترب من ميثم أكثر وهو يقول: «لقد أصبح لسانك طويلًا إلى حدّ أنك صرت أينما جلست تقول مــا تشاء بجسارة، تعتقــد أنّ ليس لنا عيون. أنا أيضًا، كما يقول الله في كتابــه، أعلــم ماذا يــدور في رؤوسكم من أفــكار، وأعلم ماذا تهمسون لنسائكم. ثــم ضحك وأكمل حديثه: «أنتم العلوج الحمقــى تعتقدون أني لا أفهم. أنــا أذكر صياحك ودفاعك عن تجــار الفاكهة... ألم تسمع بــأن الجلد سيقع في يد الدباغ يومًا؟ اعتقــد أن هذا المثــل مثلكــم. في الأصل لماذا يكــون أعجمي هو الناطق باسم التجار؟».

– سيدي! هذا الرجل رئيس التجار، وعريف سوق الكوفة منذ زمن...

– هــذا البُحتر أحمر الوجــه! أليس هناك من رجل آخر حتى يأتي ابن الأعاجم ليتكلّم؟

– تبسّم ميثم ولم يقل كلمة واحدة.

– اضحك، فيوم بكائك آت.

– ليس في كلامك ما يضحك. أنا أضحك على ما وصلت إليه.

– عجبًا! لقد فتح ببغاء علي فمه.

تقدم ابن زياد وراح يضرب وجه ميثم بخيزرانة كانت في يده، وهو يقول: «من علمك هذه الترهات حتى تنادي بها في الأزقة والأسواق؟».

لم ينبس ميثم ببنت شفة. تقدم ابن زياد أكثر. وضع الخيزرانة تحت ذقن ميثم ورفعه عاليًا، وقال: «هل تعلم أي خصلة يمتاز بها الببغاء؟». ثم التفت إلى الناس الواقفين بصمت قائلًا: «الببغاء يصيح ويردد ما يسمع فقط، سواء كان فحشًا أو موعظة». ثم عاد والتفت إلى ميثم بغضب. نهره وقال: «ماذا علّمك علي حتى أصبحت حديث الناس إلى هذا الحد؟». عندما رأى أن ميثمًا لا يتكلم، تقدم إليه وأمسكه بذقنه بكل قوة، وهو يقول: «أما أنا فسوف أفتح منقارك هذا، وأخرج ما زرعه علي في عقلك. لعلك الآن لن تفتح فاهك، لكن عندما يحين الوقت ستنطق بكل كلمة تعلمتها». بعد ذلك، عاد إلى سريره وهو يمشي مترنحًا. وضع رجله على حافته السفلى، وراح ينظر إلى مقدّم حذائه الأحمر، ويقول بحقد: «الآن يجب أن تفتح منقارك وتنعق. لماذا أطبقت فمك أيها الجبان؟»، ثم تابع لكن باستهزاء: «أيها الببغاء الفصيح! اعلم أني قد استخرجتُ

الـكلام من حناجـر أصلب وأشدّ، فكيف بمنقـارك الذي يخرج منـه كلام فـارغ ومنمق؛ كلام جـزاؤه الموت الأحمـر؟ لولا أنك هربت تلك الليلة، لكنت مزقت حنجرتك بيدي هذه».

- ما كنت لتستطيع أبدًا، فالوقت لم يكن قد حان.

- أنا الذي أحدّد وقت موتك، ولستَ أنت.

تبسـم ميثـم مـرة أخـرى، وأراد أن يجيبـه؛ لكن ابـن زياد عـاد إليه بغتـة، وكاد رداؤه الأخضر أن يقع مـن على كتفيه إلى الأرض، لكنه عدلـه، وقال: «إذًا لقد علمك علـي أشياء أخرى. ألا تعلـم أني قمـتُ بأفعال لا تعدّ ولا تحصى، ولا تخطر على بال أحـد؟ لقد ظـن ابن عروة أن قبيلته لن تتخلـى عنه، لكني قتلته ورميت برأسه إليهـم. ومن المؤكد أنك سمعت كيف اختبأ رجال الكوفـة ولاذوا في أحضـان نسائهم من شـدة الخوف. ثم جئت برسـول الحسين ورميته من أعلى هـذا القصر إلى الأرض، مع وجود آلاف الأنصار، ولم يكن أحد ليتصور ذلك. واعتقلت ذلك المتمرد الثقفي، وأودعته السجن أيضًا، وعن قريب سوف أعلقه على حبـل المشنقة. أما ذلك المتمرد الكبـير المتوجه إلى الكوفة الآن...».

تبسم ميثم مرة أخرى.

- إذا كان في كلامـي ما يثير الضحك، فقل لي حتى يضحك الآخرون أيضًا.

ظل ميثم ساكتًا ولم يتكلم. لم يكن ابن زياد قادرًا على تحمّل فعـل ميثم، فقال له وهو يضحك: «هـل تعلم لماذا أمرت الجميع

بالحضور إلى القصر؟ لأن أمامنا احتفالًا كبيرًا». ثم أخذ نفسًا عميقًا، وتوكأ على وسادة مطرزة بخيوط من الذهب، وراح يرمق ميثمًا بطرفه، وهو يفكر: «يجب أن ينفذ خطته بإهانة الرجل الذي يحبه ميثم حتى يجبره على الكلام».

– سمعت أن علاقة خفية كانت تربطك بالكاذب الكبير.

– إن فمي لم ينطق بالكذب أبدًا، مثلما كان الشهيد العظيم والصادق الكبير.

ضحك ابن زياد حتى علت قهقهته. لقد وفّق أخيرًا.

– في النهاية فتحت منقارك، وتحدثت عن ذلك الكذاب الذي شقّ عصا المسلمين، وأوقع الخلاف بينهم. حسنًا، حدثني عن علي. سمعت أنك تفعل أفعال المجانين، وتقول عن الناس أشياء عجيبة، لا يصدّقها حتى العجائز من النساء.

– سيدي الأمير! بالإضافة إلى ذلك، فإنه كان يزاحم الناس ويضايقهم. فأنا مثلًا. كان يفرش الأرض أمام داري على الدوام، ويلازم المكان، إلى تلك الليلة التي فرّ فيها.

– وأي سوء أكثر من أن تكون رئيس شرطة الكوفة، وتدع هذا التمّار يفعل ما يشاء من الخطايا؟ لقد أفسد علينا السوق، وجعله هرجًا ومرجًا، فليس قليلًا أن..

– سيدي! أعني أن هناك شجرة نخيل قد تحولت إلى بلاء، وسلبت راحتنا يا أمير! إذ كان يأتي إليها في جوف الليل، ويقف تحتها للصلاة.

– أوَيعرف الصلاة هذا المهذار، عابد النار؟!

– إنه كاذب كبير.

– أنا لا أقول إلا الحق.

– لأجل هذا تحسب أن الكوفة جنة عدن بالنسبة إليك، فتفعل كل ما تريد.

– أي كوفة! لم يبق هناك من كوفة، ولا أرى أثرًا لأهلها.

– إذًا أين كنت تنعق؟

– الكوفة غدت مقبرة غارقة في صمت الموت.

– بناءً عليه، فإن هذه المقبرة ليست بحاجة إلى ببغاء. أليس كذلك؟

هز ميثم رأسه بتأسف، وقال بهدوء: «كانت هذه البلاد في يوم من الأيام روضة غناء، وكان الجميع يعيش في ظل نعيمها حياة هانئة. ولكن... «.

– ألا تريد أن تقول إن ذلك الزمان كان زمن خلافة علي؟

– بل كان الأمر كذلك. لقد بنى علي جنة، وكان يعمل فيها بأحكام الله؛ الجنة التي لا فرق فيها بين أسود وأبيض وأحمر. كان الجميع متساوين، والحياة فيها...

– هذا يكفي أيها العجمي! لا تكن بليغًا حلو اللسان إلى هذا الحد.

أرخى ابن زياد رداءه حتى فاض على طرف سريره، فكان ثوبه الحريري النفيس يتحرك تحت الرداء على أثر هبوب النسيم. ثم خفض صوته، وقال: «انظر يا هذا! أقول لك إني

سوف أعفو عنك الآن؛ ولكن بشرط...».

كان ميثم يقف متكئًا على رجله اليسرى، فحاول أن يعدِل وقفته. كان مجبرًا على جعل أكثر ثقله على النصف الآخر من بدنه، بسبب الألم الذي كان يشعر به من ضربة ذلك الجندي.

– إذا شتمت عليًّا الآن، هنا أمام جميع كبار أهل الكوفة، وأقررت أن كل ما قاله لك كان كذبًا، فإني أعفو عنك، وأخلي سبيلك من غير قيد أو شرط.

– أنت؟! أنا أعلم أنك عن قريب سوف تأمر بقطع يديّ ورجليّ، وسوف تقطع لساني، وتلجم فمي.

– أنا أفعل ذلك؟ لا أصدق أني قاسي القلب إلى هذا الحد.

– لقد بشرني بذلك سيدي ومولاي علي.

– لا أعلم ماذا أعطاك علي حتى تحب الموت إلى هذا الحد.

ابتعد ابن زياد عن النافذة، وقال: «إذًا، لقد أخبرك ذلك الكاذب كيف ستموت. لكن هل تقبل أن ما قاله علي كان كذبًا، إن أخليتُ سبيلك الآن؟». ثم مكث قليلًا، وأشار إلى الباب، قائلًا: «يمكنك الذهاب». لم يحرك ميثم ساكنًا. استدار ابن زياد نحو الجدار، ونظر إلى خنجر كان معلقًا عليه، وقال: «العفو عنك مع كل ما قلته يعدّ حماقة. لكن والله لأكذبنك ولأكذبنّ مولاك؛ سوف أقتلك قتلة، وأعذبك عذابًا أفضح فيه مولاك الكاذب».

– أما علمت أن مولاي عليًّا قد تربى في حجر رسول الله، ولا يقول الكذب قط، ولا ينطق بالعبث أبدًا، وأني لم أر منه إلا الحق؟ ثم التفت ميثم إلى الرجال الواقفين وقال: «هؤلاء

يشهدون أي رجل كان علي».

- هؤلاء جميعهم يقولون إنّه كان كاذبًا.

الجميع يعرفون أن كل ما قاله علي كان حقًا.

- لم أكن أعلم أن ببغاء علي يستطيع أن يتكلم بهذه الحلاوة والفصاحة. لكني سوف أدمر روضته.

- الببغاء يحيا عندما تكون هناك روضة، أما عندما لا تكون، فمن الأفضل أن لا يكون ببغاء أيضًا.

عندما رأى ابن زياد جواب ميثم الحاضر، استشاط غضبًا. اقترب منه وأمسك بلحيته البيضاء وشدّه منها، ثم نظر في عينيه، وقال: «علي قال هذا أيضًا...». أراد ابن زياد أن يأمر لتوه بقطع رأس ميثم وفي المكان نفسه، وإذا بصوت الجرس الخاص يرتفع.

- رسول من الشام يا أمير!

تقدم الرجل الملثم من ابن زياد. التفت عبيد الله إلى ابن حريث، وقال:» ارم هذا العجمي في السجن بجانب ذلك الخبيث الثقفي. سوف أقدَم على فعل أجعل الجميع يشهدون أن أحاديث هذا العلج كاذبة».

كان الرسول يرتدي لباسًا أحمر. التفت إلى ثوب ميثم الخشن والملطخ بالدم. لقد جفت قطرات الدماء على وجهه ولباسه. تقدم ابن حريث، وأمسك ميثمًا، ثم جره إلى الخارج، وأبعده عن نظرات ذلك الرسول.



بعـد ساعات قليلة يلجمـون فمي. أما أنـت فسوف تنجو من هذه الطامورة، وتخرج منها، وسوف تقتص من قاتل ابن رسول اللّه.

نهضـ المختار من مكانه دفعة واحـدة. كان الألم يشتد عليه، بعد أن أصيب بجرح في صدغه.

– وهل قُتل الحسين؟!

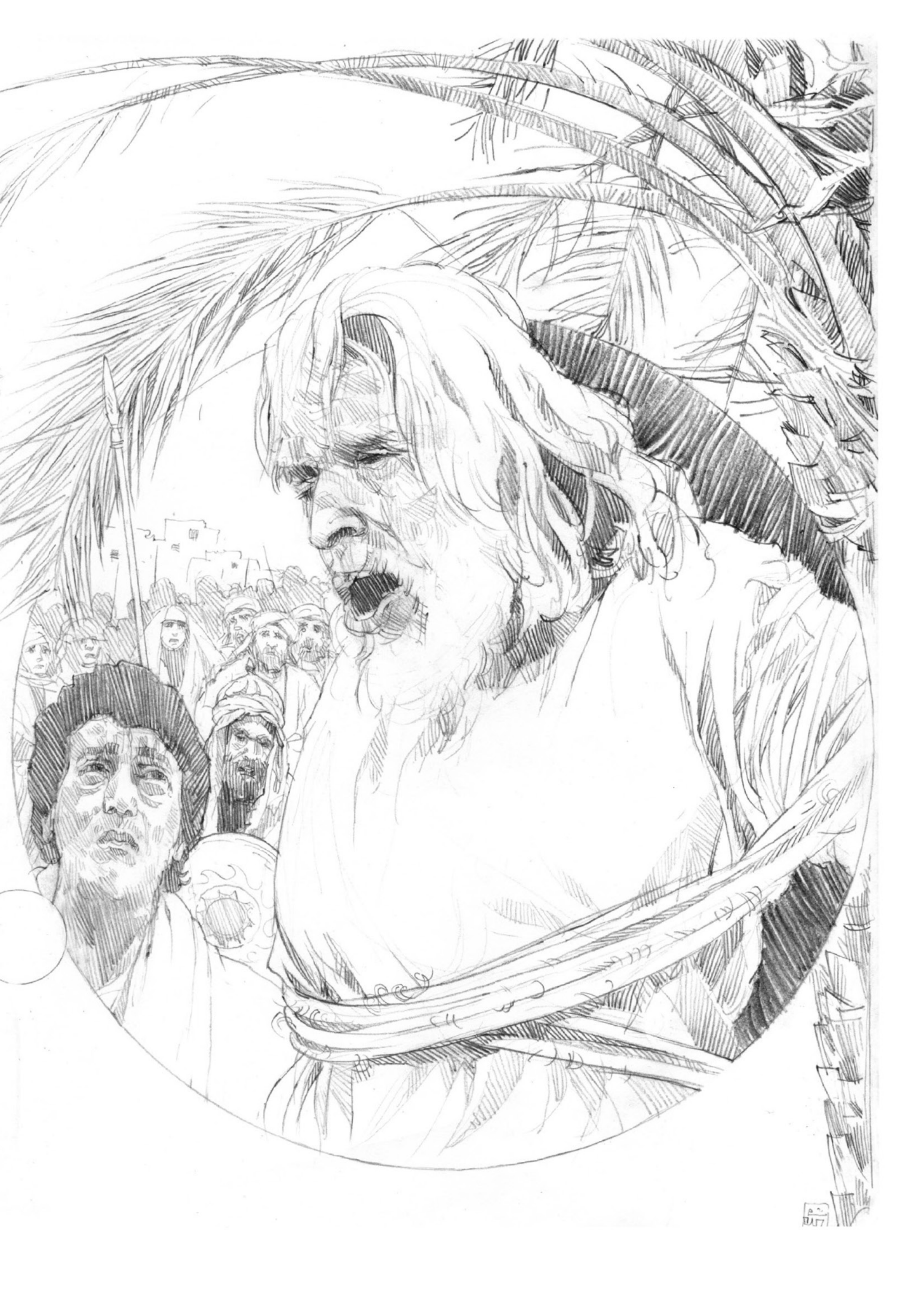
– لا، ولكن عن قريب سوف تصطبغ السماء بلون الدماء.

نظـر المختـار إلى ميثـم بتعجب، وقـد تجهّم وجهـه، وانشقّ الجـرح والـدم الغليظ المتجمّـد فوق جرحه المفتـوح عند طرف عينــه، فسال الدم والقيح على خدّه. لم يكن قادرًا على الحركة. وضع رأسه على الجدار، وراح يضرب الجدار بقبضتَيّ يديه.

علـت أصـوات السلاسـل في السجـن. عاد ميثـم ونظر إلى المختـار بلطف، وقـال: «حان موعد الفراق يـا أخا العرب! اعتنِ بإخوانك الأعاجم، ففي لحظات الشدة سيكونون أنصار الحق».

– جزاك اللّه خير الجزاء يا أبا صالح! ليتني أقدر على الكلام.

تعانـق الرجلان عناق وداع، ثم ربّـت ميثم على كتف المختار العريضة مرات عدة، وتوجّه نحو الحارس الذي كان يستعجله.





كان الدهليـز شبه مظلم، وعلى جانبيـه توزعت غرف مليئة بالسجناء الذين كانوا يُعتقلون لأدنى عذر. كان بعضهم مطروحًا علـى الأرض، فيما بعضهـم الآخر تمسّك بأعمـدة من الحديد والخشـب، وعيونهم تومض على ضوء شعلـة حمراء منبعثة من القنديل.

- أيهـا الجندي! أقسـم أني لست من أهل الكوفـة. أنا رجل مسكـين كنت عابر سبيل، فوقعت في قبضة الجلادين، ألا يوجد أحد يوصل صرختي إلى الأمير؟

توجـه الحارسـ إلى الرجل الكهل المتكلـم، ووكزه بالرمح في أصابـع يديه النحيلـة، وصاح به قائـلًا: «اخرسـ أيها الخبيث المتمرد!».

ضـج الرجل من شـدة الألم، وراح يتأوه. المسكين! لا ذنب له. لم يكن مسلمًا أصلًا. إنه رجل مسيحي قدم من أحد الأديرة إلى الكوفـة لشراء بعض الحاجات للرهبـان، فاعتقل في المدينة من غير ذنب اقترفه؛ لكن أحدًا لم يكترث لكلامه.

مرّ ميثم من أمامه برفقة الحارس؛ لكن الرجل المسيحي كان ينظـر إليـه، وكأن بسمة ارتسمت على شفتيـه. أراد أن يصرخ، فزجـره الحارس، وصاح بالجميع أن يبتعدوا ويذهبوا إلى زاوية السجن المظلمة.

كان الدهليـز طويـلًا. صعدوا درجات عدة حتـى وصلوا إلى البـاب الكبـير. عندما فتح البـاب، سطع نـور الشمس المحرقة داخـل الدهليز، فأغمض ميثم عينيه. كان نـور الشمس شديدًا

إلى درجة لم يعد ميثم يرى أمامه للحظات. حان اليوم الموعود. لقد دنت ساعة بكائك.

رجع ميثم باتجاه الجندي ونظر إليه، فلم يحتمل الجندي نظرات ميثم الهادئة.

– أي يوم جميل هذا من أجل اللقاء!.

– لكن الأمير لن يسر لرؤيتك كثيرًا، فأنت..

قطع الجندي كلامه ولم يكمل حديثه، ثم تقدم ودفع ميثمًا إلى الأمام. وجاء جندي آخر وقيد يديه بحبل من ليف النخيل.

– وهل من داع إلى حبل؟

– إنه القانون.

– ليت القانون يسمح بأن أطير بيدين مفتوحتين.

– إلى أين؟ إلى قعر جنهم؟

– لم أقصد الجنة؛ بل أن أحلق مع الريح بين الأرض والسماء.

– أرى أنك صرت شاعرًا أيها العجمي المجنون!

– ألا ترى أنه يوم جميل من أجل الطيران؟

– قلنا إنّ السجن قد يرد إليك عقلك؛ لكن يظهر أن الجنون يسري في شرايينك. على كل حال لا تقلق، فأنا أعتقد أن الأمير سيعفو عنك.

تبسم ميثم ونظر إلى الشمس. بدت حولها هالة أحاطت بها كالطوق. لعلّها كانت علامة المطر، أو لعل عيني ميثم قد فقدتا

عادتهما على رؤية الضوء، وما تريانه ليس سوى غبار يغطي قرص الشمس.

اقترب حارس آخر. نظر إلى ميثم، وقال له: «تحرك. إن زمن الأعاجم قد ولّى». فعرفه ميثم. لكن وجه الحارس لم يكن يرى من كثافة شعره الذي يشبه وبر الإبل، فيما تدلت من فتحة أنفه شعرات عدة ملتوية، أشبه ما تكون بجذور النبات اليابس. كان الحارس يتمنطق خنجرًا جميل الغمد مزخرفًا.

- إنه خنجر مبارك!

- ما أجمل إغماده في خاصرة مجنون كاذب.

- لا تتعجل. الأمر ليس ببعيد.

قهقه الجندي، وقال: «لكن الأعاجم لا يقتلون بخنجر». ثم شدّ حبل الليف دفعة واحدة، فتعثر ميثم، إذ ضعفت عظام ساقيه، ولم يعد فيها تلك القوة؛ لكنه لم يقع على الأرض، انحنى قليلًا، ثم نهض لتوّه.

- ما ظنّك؟ بمَ تفكّر؟ نحن نقودك إلى الأمير، أو...

- بل تأخذني إلى رفيقتي.

ضحك الجندي مرة أخرى.

- كم أصبحتَ بليغًا وطيبًا أيها العلج!

التفت الجندي الآخر إلى صاحبه وسأله: «منذ متى أصبح ابن زياد صديقًا للأعاجم يا خولي؟»

- لعله رأى ذلك في منامه.

- المسكين! لقد أمضى مدة في السجن. من أين له أن يعلم ما الذي يحدث في الخارج؟

- لكن هذا التمار متنبئٌ جيد، ومن المؤكد أنه يعلم ما يدور في رأسك.

- إذًا احترس على خنجرك يا خولي.

- هذا الخنجر ملك لهم. إنه غنيمة من خزانة المدائن.

- لا تقل إن هذه النقوش والزخارف الفارسية قد ذكرته ببلاده الأم.

- لقد جذب هذا الخنجر نظره يا خولي، أرأيت أن أول كلامه كان عن خنجرك؟

- أنا حاضر أن أبيعه لهذا العجمي.

- أتقول الصدق؟

- طبعًا. لكن بثمن روحه.

ضحك الجندي باستهزاء، وشد حبل الليف. ثم التفوا من خلف خرابة، ودخلوا في زقاق يتصل بمفترق طريقين. عند منعطف الطريق، كانت ثلاث دكاكين قد فتحت مؤخرًا. سمع ميثم صوت الرجال وهم يتحدثون أمام دكاكينهم.

- أليس هذا ميثم؟

- بلى، فملابسه تقول إنه هو.

- يقولون إنه قطع عهدًا أن يتخذ لنفسه لباسًا بسيطًا، كما كان يفعل الخليفة السابق.

- هل تقصد أن عليًا كان يتخذ لباسًا خشنًا وبسيطًا؟

تأوه ميثم بحرقة. كان يسمع حديث الرجال.

- يقولون إنّ حذاءه كان مرقعًا.

نظـر ميثـم إلى حذائه المصنـوع من جلد الإبـل، كان بحالة يرثى لهـا. عجبًا للناس لأي شيء يهتمـون. ليته كان يستطع أن يحـدث الناس عن علي. ثـم انعطفوا نحو الزقـاق التالي الذي ينتهي إلى دار الإمارة.

- من المؤكد أن الأمير قد هيأ شرابًا طيبًا يا خولي!

- لكن موعدنا في مكان آخر.

أرخـى خولي حبل الليف، ورجـع إلى ميثم غضبانَ، وقال له: «أوتملي على الأمير ما يفعله أيضًا؟» ثم ضربه على ظهره.

لم يتقدموا خطوات عدة حتى وصل فارس.

- لا تأخذوا هذا العجمي إلى الأمير.

- هل تعني أن نعيد هذا العلج إلى السجن بعد كل هذا الطريق؟

- لا. إن ابن حريث ينتظركم أمام داره.

رجع خولي إلى صديقـه الذي كان يلعق شعر لحيته الطويلة. بدا الجندي قلقًا إلى حدّ ما. عندما ذهب الفارس، التفت خولي إلى ميثـم، قائلًا: «لا تقلْ إنك توقعت هـذا أيضًا؛ بأن الأمير لم يرد أن نأخذك إلى دار الإمارة!».

تبسم ميثم فقط، ولم يجب.

- آه من ضحكاتك هذه، لقد حيرت الجميع.

وضـع خولي يـده على مقبض خنجره المزخـرف بالنقوش، وقـال: «ما زلت تنظر إلى خنجـري؟» ثم دفعه برأس حربته إلى الأمام، وأمره أن ينعطف خلف جدار المسجد. تقدموا من الجهة الجنوبيـة لجدار دار الإمارة، واقتربوا من ميدان الكناسة الذي كان قريبًـا مـن السجن. لقد ساروا كل تلـك المسافة بلا فائدة. لعـل ابن حريث كان يريد أن يعيده إلى السجن مرة أخرى. لكن مـا إن عبروا منعطف الزقاق حتـى سمعوا صوت صهيل حصان وهـو يقترب. إنه صوت حصان قائـد الشرطة. بدا ابن حريث، وهـو يعتلي صهوة جـواده الأدهم، أضخمَ وأقـوى مما كان عليه وهـو مترجل على قدميـه. اقترب الرجل حتى وصـل إلى ميثم، وقال لـه: «الآن فهمت سـر علاقتك بشجرة النخيـل التي أمام داري. وأنا الأحمق، عندما كنتَ تقول لي أريد أن أصبح جارك، كنـتُ أظن أنـك تريد شراء بيت ابن مسعـود، بعد أن ترك داره ورجع إلى المدينـة، أو لعلّ تجارتك قد درّت عليك دنانير كثيرة، فمـددت عين الطمع إلى دار ابن حكيم الفارهة، تريد شراءها». ثـم نزل عن جواده، وحل الوثاق من يدي ميثم، وقال: «انظر أي بلاء أنزلته بهذه الشجرة المسكينة. لقد استحالت الأرض تحتها إلى حفرة، لكثرة ما كسحت أطرافها».

– هل يمكن أن تعطيني قربة ماء؟

كان خولي يستمع إلى حديث ميثم وابن حريث بتعجب.

– ليست بحاجة إلى الماء، فعن قريب سوف ترتوي.

هز ميثم رأسه، بأن ذلك سيحصل. ثم نظر إلى النخلة وقال

بصوت هادئ: «كانت صديقة جيدة؟»

- يعني الآن ليست كذلك؟

- أنا لستُ صديقًا وفيًا.

ثم تابع قائلًا:

- أريد ماء كي أتوضأ وأصلي ركعتين مرة أخرى تحت ظل صديقتي.

- صلاة، صلاة، صلاة، أيها الرجل الوخيم! هذه الشجرة ليست بحاجة إلى صلاتك؛ أيها المزعج.

عندما شاهد ابن حريث وشوشات الناس وهمساتهم، رفع صدره، وقال: «لا ضير في ذلك، صلّ ما شئت، فالنهار طويل ويوجد متسع من الوقت حتى الغروب». ثم التفت نحو داره وصاح:

- ميمونة! هاتي قربة الماء.

فتحت جارية سوداء باب الدار، وأطلت برأسها، فلمعت عيناها البيضاوان من خلال الباب. أقفلت الجارية الباب، وغابت للحظة، ثم عادت وقربة الماء في يدها، وناولتها سيدها. أخذ ابن حريث القربة، حل رباطها وقال: «صحيح أنك كنت تخيفني أثناء الليل؛ لكنك لم تكن رجلًا سيئًا إلى حد كبير. أعتقد أن المشكلة بيننا كانت هذه الشجرة، والآن بدأت أدرك سرّها رويدًا رويدًا».

أخذ ميثم قربة الماء. توضأ وراح يقلب بصره في الأطراف.

لقد اجتمع حوله خلق كثير؛ تجار الكوفة وآخرون لم يعرفهم. رأى ولده صالحًا أيضًا في الحاضرين، وقد أصبح رجلًا. كانت لحيته الناعمة تدثر خديه. وقف ميثم للصلاة من دون أن يكلم أحدًا. بدا في لباسه الخشن البسيط المتدلّي إلى ركبتيه أشبه بزاهد متعبد منه إلى تاجر.

حين أتم صلاته، قال: «أيمكنني التحدث إلى ولدي؟».

– قل ما شئت بسرعة؛ لكن بصوت مرتفع.

– هذه أسرار عائلية.

– إذا كان الأمر لا يتعلق بالأمير، فليس من مشكلة.

أشار ميثم إلى ولده، فتقدم صالح وراح يشق الصفوف، وعيناه تلمعان بالدموع. اقترب بهدوء. بدا بلباسه الأبيض الطويل مديد القامة أكثر من ذي قبل. أمسك ميثم يدي ولده الناعمتين، فرمى صالح بنفسه على صدر أبيه وعانقه، محاولًا أن يمسك نفسه عن البكاء، لكنه لم يقدر على ذلك، فانفجرت عيناه بالدموع.

– الرجل لا يبكي يا ولدي! فهذه الطريق سيعبرها الجميع عاجلًا أم آجلًا. اسمعني جيدًا يا بنيّ.

خفض ميثم صوته وقال: «احتفظ جيدًا بذلك الكتاب الذي استودعتك إياه، فإن فيه كلام مولانا أمير المؤمنين. أوصيك بأن تحفظه أكثر مما تحفظ روحك، واستودعه عند أهله». ثم مكث قليلًا، وربت على كتف ولده، ونظر في عينيه وقال: «عزيزي

صالـح! إني استودعت أمك وأخويك عند الله أولًا ثم عندك. إن عمـران ما زال صغـيرًا، وهو بحاجة أكـثر إلى المحبة والحنان، فكن له أبًا وأخًا. أما شعيب فيمكنه أن يكون ساعديك، فهو فتًى فطـن وقوي، ويستطيع أن يجد طريقه، لكنه بحاجة إلى رعاية». ثـم أمسك بذراعَي صالح وقال: «تذكر دائمًا أمك العجوز». بعد ذلك أراد أن يرجع، لكن همهمات الناس وأحاديثهم بدأت تعلو:

– هذا الرجل الفارسي مجنون حتى يزج بنفسه بين خلافات العرب.

– إنــه رجل طيــب، لكن حالــه تبدّلت مرة واحــدة بعد موت الخليفة.

– إنه يحب عليًا حبًا جمًا.

– لكني سمعت أن عليًا كان يحبه أيضًا.

– اسكتوا جميعًا ولا تتكلموا.

حين صــاح ابن حريث سكتت الأصوات، وهدأ الناس، فتوجه ميثم إلى شجرة النخيل، وبدأ يمسح بيده على جذعها.

قال ابن حريث: «لعلك تعرف جيدًا أن أمر الأمير كان مباغتًا، لذلك، لم يكن من فرصة لنهيئ لك مشنقة أفضل من هذه النخلة، لأجل ذلك فكرت بأن لا حل سوى أن أجلبك إلى قرب صديقتك». ثـم طلب من الجنـود أن يعلقوا الحبل من أعلـى شجرة النخيل، ويرسلـوه إلى الأسفل. نظر ميثم إلى النخلة بلطف وقال: «لم تكن صديقتي جارة سوء لك. هل كانت كذلك؟».

– دع عنك هذه الخزعبلات.

ما إن ارتفع صوت الطبل، حتى هاج الناس واضطربوا. تقدم ابن حريث وارتقى مصطبة أمام داره. كان الهواء حارًا، والدرع الـذي يرتديه يثقل جسده. تـوكأ على سيفـه، وراح يكلم الناس بتكبر وغرور. طلب منهم أن يهدؤوا، ثم بدأ يقرأ بغضب.

– هـذا حكـم الأمير عبيد الله بـن زياد لتأديـب هذا الرجل العجمـي المتمرد، الـذي أضرم في السوق نـار الفتنة والهيجان، وراح يجري على لسانه أحاديث العبث والجنون.

كان يفتح الطومار[1] الذي بين يديه ويقرأ.

– أمـا بعد، فـإن سالمًا عبد قبيلـة بني أسـد المعروف بميثم التمـار، سـوف يُعلّق علـى حبل المشنقـة بجرم إهانـة الخليفة، وخيانـة الأمير، والتحدث بالترهات في الأسـواق، وسوف تُقطع يداه ورجلاه، ليكون عبرة لغـيره من المتمردين والمخالفين. لقد صـدر هذا الحكـم بحق هذا الرجـل العجمي لأنـه كاذب، وقد فُضـح أمره، وظهر كذبه الذي كان ينسبـه إلى علي. فهو يعتقد بأن لسانه سـوف يقطع، ويلجم فمه كما يلجم الحصان، ويكون قـبره في وسط المـاء. وكان يعتقـد أنه سيكون يومًـا بين الأرض والسماء. اليوم سوف يعلق على جذع هذه النخلة اليابسة، ليعلم الجميع ما الذي كان يعتقده الخليفة السابق، وأنّ أصحابه ليسوا سوى حفنة من الكذابين. كان من الممكن أن يعاقب هذا الخبيث بعقوبـة أشـد وأدهى؛ لكن بمـا أن أمره قد افتضـح، وبان كذبه

1- مقادير من الورق أو وثيقة مشدودة.

للعلن، لذلك يُكتفى بهذا.

ما إن أنهى ابن حريث كلامه، حتى ارتفع صياح الناس. كانت السيوف تلمع تحت أشعة الشمس. مد ميثم يده ومسح جذع النخلة لآخر مرة. أما خولي الذي كان خائفًا من أن يسلبه ميثم خنجره، فتراجع خطوة إلى الخلف، ثم دفع بميثم إلى الحفرة التي تحت شجرة النخيل.

- ذلك المسكين الأسير بين أيديكم، لماذا...

- صه! من كان المتحدث؟

خاف الرجل الأسود الذي كان يرتدي بُرجدًا[1] أحمر، وتراجع إلى الخلف واختبأ خلف عدد من الرجال.

تقدم الجنود وسط ضجيج الناس وصيحاتهم، ثم أقدموا على قطع يدَي ميثم ورجليه، وصلبوه على جذع النخلة، بأمر ابن حريث، ورفعوه عاليًا حتى يراه الناس.

كان ميثم يرى الميدان بأكمله من أعلى الشجرة. لقد فاض الميدان بالناس الذين كانوا يفدون من كل حدب وصوب، فكان عددهم يزداد كل لحظة. لقد عرف الكثيرين منهم. حتى أفراد قبيلة بني أسد الذين عاش بينهم عمرًا قد حضروا أيضًا. كان ميثم يقلب بصره بحثًا عن ماجدة. لم يكن يراها بين الناس. شخص ببصره وراح ينظر يمينًا وشمالًا، فأبصر امرأة حانية الظهر تقف في الجهة الأخرى من الميدان، وقد أسندت يديها

1- كساء مخطط غليظ.

إلى الجـدار. لم يكن يراها جيدًا؛ لكـن إحساسه كان يقول إنها ماجدة. لقد ظنّ ذلك.

– أرأيتِ، لقد عجّلت قبلكِ إلى لقاء سيدي، مع أنكِ بلغتِ من العمر قريب مئة عام.

في هـذه اللحظات، شاهد رجلًا يقـترب من ماجدة، ويهمس لهـا بحديث. فجأة رآهـا سقطت على الأرض، ثـم تحلّق حولها عـدد من النـاسـ. لكن أكـثر الحاضرين من أهـل الكوفة كانوا يأتـون لرؤيـة ميثم. تبسم ميثم قائلًا: «لعلنـا سنرحل سويًا من هذا العالم».

صاح ابن حريث ودوى صوته في الميدان:

– هذا جزاء كل متمرد وموالٍ لعلي يبعث بالرسائل إلى الحسين.

كانـت الدمـاء تنبعـث من يـدي ميثـم ورجليـه، وتتجمع في الحفـرة التي كانت تحـت الشجرة، بينما أنفاسـه تضطرب في صـدره بشدة. كان يلفظها بصعوبـة. استجمع ما بقي في جسده مـن رمق حيـاة، وفتح شفتيه، وقـال: «أيها النـاس! مـن أراد أن يسمع حديثي فليقترب. حديث لم تسمعوه من قبل. اسمعوا. لقد كنت عبدًا لا اسم لي، حتى جاء علي وأعاد إليّ اسمي، وأحياني من جديد، فوجدت ضالتي. يا رجال الكوفة وشبابها! إن كباركم لا زالـوا يذكرون يوم جاء ذاك الرجل ودخـل الكوفة راكبًا على بغلته، بلباسه الخشن البسيط، وفي يده جراب فيه بعض أقراص مـن الخبز اليابس. حينها دعانـا إلى الزهد والورع وتقوى الله، وقـال: «أتيتكـم بجلبابـي وثوبي هذا فـإن خرجـت بغيرها فأنا

خائـن». ولقد مكث بيننـا أربع سنوات وكان ينظـر إلى الجميع علـى أنهـم عبـاد اللّه، لا فرق بـين عربـي وأعجمـي، ولا أسود وأبيض. ثم أعطانا جميعًا من بيت المال بالعدل والسوية. فإن لم يقولـوا لكم ذلك فاسمعوا آخر كلماتي. لقد قال عن دار الإمارة إنها دار الخبـال، ولم يرض النزول فيها. لقد أحيانا علي وأحيا نفوسنـا. أيهـا العبيد والسود! يـا من جئتم تفتحـون أبصاركم للنظر إلى عبد مصلوب على جذع شجرة يابسة. إن عليًا لم يكن يـرى فرقًا بينكم وبـين أولئك العرب أصحـاب البطون؛ بل كان يـرى أن أقربكم عنـد اللّه أتقاكم، وأفضلكـم أورعكم وأقربكم إلى اللّه. لقـد جاء هـؤلاء بالكذب والنفـاق، وجلسوا على المنبر بغـير حق، ثم يشتمون ذلك الرجل العظيم. أيها النـاس! اقتربوا حتى تسمعوا. اسمعوا كيف تسلط معاوية على رقاب النـاس بغير حـق. تعالوا لأخبركم عـن الجرائم التـي سيرتكبها والجنايات التي سيفعلها ابنه يزيد، وهذا الأمير الذي نصّب عليكم حاكمًا، هو ابن من، وكيف يعيش!».

كان حديـث ميثم يقلق ابن حريث، فلـم يدر ماذا يفعل. لقد أمره عبيـد اللّه بن زياد بقطع يديه ورجليـه فقط، لذلك أسرع إلى دار الإمارة.

كانت أنفاسـ ميثم تخفق في صدره بشدة، وتصعد من حلقه بصعوبة، وكلامه يخـرج من فمه متقطعًا، وكان يقول في نفسه: «هل يستحـق هذا الرجل العظيم الشتـم واللعن؟ ألم يكن يريد لعباد اللّه الحق والعدل؟».

علت همهمات الرجال وارتفع صياحهم. كان المتأخرون منهم يندفعون إلى الأمام بشدة، يريدون أن يتقدموا شوقًا لسماع حديث ميثم. لم يكن أحد ليتجاسر على الحديث بهذه الجرأة والشجاعة طوال مدة حكم ابن زياد في الكوفة.

- أف لكم يا أهل الكوفة! حين وجب عليكم الخروج من بيوتكم، اختبأتم في أحضان نسائكم. وكسرتم شفرات سيوفكم حين وجب عليكم سلّها من أغمدتها. الآن وقد ابتليتم بزمن ابن أمية هذا، يتسلّط عليكم ويجركم إلى السجون جرًا، أو يقودكم إلى الموت تحت عذابات السياط الظالمة. ألا تسمعون الصراخ والضجيج في جوف الليالي المظلمة، أو أنكم ذهبتم في سبات شتاء عميق كالدببة؟ ألا تعلمون أن ابن رسول الله في طريقه إلى الكوفة؟ لماذا أنتم واقفون؟ لماذا جلستم في منازلكم لا تحركون ساكنًا؟ هل تنتظرون فاجعة أخرى؟

عاد ابن حريث يهرول ويلهث، صاح من بعيد: «ماذا تنتظرون؟ اقطعوا لسانه من الحلقوم».

- أقسم بالله إنها البشارة التي بشرني بها سيدي ومولاي أمير المؤمنين، وكذبها هؤلاء.

- ألجموه كما يلجم الحصان حتى لا يتفوه بالترهات.

حاول جندي أن يخرج لسان ميثم فلم يستطع. كان ميثم يتحدث إلى الناس بما تبقى لديه من طاقة على الكلام. التفت ابن حريث وصاح بخولي: «لماذا تقف ساكتًا؟ ماذا تنتظر؟». سل خولي خنجره من غمده، وطعن ميثمًا في خاصرته قائلًا: «لأجل

هذا لبست مثل ذاك المخادع ثوبًا خشنًا وقصيرًا لا قيمة له».

انبعـث الدم مـن جوانب الخنجـر المغموس في جسد ميثم، وراح يتدفق على درع خـولي. تأوه ميثم من شدة الألم، وأغمض عينيـه، فبادر جندي إلى قطـع لسانه، ورماه وسط الدماء تحت شجـرة النخيل. بعـد ذلك ألجموه كما يلجـم الحصان، وشدوا اللجام على فمه.

فتح ميثم عينيه وهما في رمقهما الأخير، ورفع رأسه نحو ابن حريث: «أنت لم تكن جارًا طيبًا». استدار عمرو بن حريث وصاح بالنـاس غاضبًا، وطلب منهم أن يتفرقوا. ثم قال: «سيبقى هذا الخبيـث معلقًا، كما حكم الأمـير، حتى يصير جسده يابسًا مثل جـذع هذه النخلـة، وليس كما ادعى أن بدنـه سوف يغرق وسط بحـر من الماء. كذلك يمنع على كل شخص أن يقترب من هذه النخلة». بعد ذلك طلب من الجنود أن يبعدوا الناس من الميدان، فـلا يبقى منهم أحد. لكـن جنديًا حين رآه يحاول أن يقول شيئًا بفمه الملجوم، رجع إليه وطعنه بحربة في خاصرته.



جمـع صالح أغصان النخيل وأوراقهـا اليابسة، وكومها فوق بعضهـا بعضًـا، ثم التفـت إلى صديق أبيه قائـلًا: «أليس الأمر خطيرًا؟».

كان الرجـل ملثمًا، يحدق في بحر مـن العتمة، ويسمع صوت وقع أقـدام الحراس وهم يدورون حول شجـرة النخيل، وصوت سعالهم يسمع بين الحين والآخر.

- ليس لدينا خيار آخر، يجب أن نصبر حتى ينقضي نصف الليل، فتأخذهم الغفوة في الهواء الرطب والحار قريب السحر.

وقـف الرجل والتفـت إلى رفاقه الآخرين - كانـوا ينتظرون قـرب الجدار، يجلسون القرفصـاء وفي يد كل واحد منهم خُرج تـأوه ثم قـال: «كان أبو صالـح صديقًا طيبًا للجميـع، خصوصًا نحن تجـار التمور، ولا يليـق أن تهان جنازته علـى جذع النخلة أكثر من ذلك».

- ثلاثـة أيام مضـت وجسد ميثـم معلق على جـذع النخلة، ليأتـي الناس وينظـروا إليه. لقد اسودت ثيابـه، وغارت وجنتاه في وجهه. كان يبدو أكثر طولًا مع أن رجليه قطعتا من الركبتين.

- ننزلـه! لكـن إلى أيـن نأخـذه؟ فالمدينة كلهـا تحت عيون

حراس ابن زياد وجنوده.

- مهمتنا الأولى أن نعتقه من هذه الشجرة، وننزله إلى الأرض في عتمة الليل.

- لقد قال بنفسه إن مكانه وسط الماء.

ارتفع صوت صياح الديك، وهب نسيم عليل حمل معه رائحة الرطوبة والماء. لم يكن أحد يعرف ماذا يجب أن يفعلوا؛ فهل يتركونه في الفرات فيحمله الماء معه، أو يوارونه في التراب، ويخفون جسده؟ كانت هذه الأفكار تشغل بال الجميع.

- جهزوا خناجركم.

- لا ينبغي لأحد أن يتضرّر، حتى يخرج الجميع سالمين، فلا نقع في أي خطر؛ لأن ابن زياد يبحث عن أدنى ذريعة، خصوصًا في هذه الأوضاع، حيث أصبح مولانا الحسين قريبًا من الكوفة. حاولوا أن تُشغلوا الجنود المتعبين بأي وسيلة.

- نحن نجذبهم في العتمة إلى هذا الاتجاه، وتذهب أنت وصالح وتنزلان الجثمان إلى الأرض.

- مع ذلك فأنا قلق. ماذا سنفعل بعد ذلك؟

- توكل على الله يا جنادة! إذا وُفّقنا في إبعاد جثمانه عن دار ابن حريث، نأخذه إلى طرف المدينة خارج سوق القصابين، وهناك نجد بقعة من أرض الله، بحيث لا يستطيع أحد من الناس معرفة مكانه.

- أليس من الأفضل أن نتركه في ماء الفرات كما قال؟

- الآن ليس وقت هذا الكلام. خذوا القش والحطب واذهبوا لإشعال النار. وكما قلنا، إذا وقفتم في تلك الناحية من الميدان، فإن أحدًا لن يرانا في ظل ألسنة النار.

تقدم رجل منهم يلبس ثيابًا لم تكن مألوفة عند أهل الكوفة، وحمل حزمة من الحطب، يرافقه رجل آخر يضع خرجًا على كتفه، ثم انطلقا مع رفاقهما إلى جهة الشمال عند نهاية الميدان. لم تمض لحظات قليلة حتى ارتفعت ألسنة النار، فعلا صياح في الظلام.

- من هناك؟

لم يجب أحد. كان صوت وقع أقدام الحراس يعلو أكثر فأكثر، وهم يقتربون من النار. عندما لمع ضوء النار على دروعهم، تكلم سليمان قائلًا:

- هذا نحن يا أخي؛ جماعة من بدو الصحراء. قدمنا إلى المدينة لشراء بعض الحاجات. لم يكن لدينا مأوى أو منزل في هذا الليل، فكنا نستريح قليلًا؛ لكن البرد عضنا فأشعلنا نارًا. أنتم ماذا تفعلون هنا؟

نظر الجندي إلى الرجال بارتياب وهم يرتدون ألبسة بنية اللون. كانوا يلبسون ثياب سكان الأديرة في أطراف الكوفة، فبدت هيئتهم توحي بأنهم ليسوا من أهل الكوفة.

- من أين قدمتم؟

- من خلف النهر الكبير! تعالوا استأنسوا بدفء النار.

كان ظل الجندي ينعكس على الجدار. تقدم قليلًا. عندما

سمع إطراء الرجل له، ودعوته إياه إلى شرب كأس قدمها إليه، نظر في العتمة، وصاح: «يا أبا بكر! تعال. فنحن لسنا وحدنا هذه الليلة».

خرج الجندي الآخر من قلب العتمة. بدا ضخم الجثة. تثاءب، وقال: «لست أدري لماذا أصبحت الليالي طويلة إلى هذا الحد».

سوف يحل الفجر قريبًا يا أخي! تعال. استرح قليلًا قرب النار، واشرب بعضًا من هذا اللبن.

نظر الجندي إلى صديقه الذي كان يجلس القرفصاء في الجهة الأخرى من النار، وهو منشغل بتناول الطعام، بينما ظلال ألسنة النار تتلوى على وجهه.

- تعال إلى هنا؛ إلى جانب صديقك. لكن قل لي ما الخبر في الكوفة حتى تكونان في منتصف الليل...

- لا شيء. نحن نحرس ميتًا حتى لا يصيب أذاه...

- ومتى رأيت ميتًا يصيب الناس بأذاه؟

- إذًا لماذا نخاف من الموتى؟

سكت الجندي، وتناول قبضة من التمر، ثم رفع رأسه.

وما يدريني!

- لكن لماذا يجب أن تحرسوا ميتًا؟

- لأن الأمير يريد أن يكذب أقواله.

- وماذا قال حتى يريد الأمير تكذيبه؟ فالميت لا يتكلم. إن الرسول قد رحل من الدنيا منذ سنوات، ولا أحد يمكنه أن يخبر عن الغيب إلا هو وبعض المقربين.

- لكن أحاديث هذا الفارسي الخبيث قد حيرت الجميع.

- أوَكان رسولًا؟

- لا. كان مقربًا من الخليفة السابق. إنه عجمي يتكلم بكلام عجيب، لم يسمع به أحد من قبل حتى الآن.

- أقسم بالله أن أكثر حديثه كان صحيحًا.

- ولذلك أنتم تحرسونه؟

تناول الجندي البدين كأس اللبن وشربه، ثم راح يحدق في العتمة.

- من هناك؟ اسمع خشخشة.

- إن قلة النوم جعلتك تتوهم أشياء يا أبا بكر. من يجرؤ في جوف هذا الليل على الاقتراب من دار رئيس شرطة الكوفة؟

في الجهة الأخرى من النار، جلس بائع تمر على ركبتيه، وهو يحدق في العتمة. فجأة لمح صالحًا وهو يركض باتجاه النخلة. كان الرجل يجلس على مسافة من النار، بحيث يمكنه سماع

وقع أقدام رفيقيه الآخريـن، وهما يركضان خلف صالح باتجاه شجرة النخيل.

– أظنه حيوانًا؛ قطة، أو شيئًا آخر.

– أجـل. فلا أحد يجرؤ في هذه الليـالي على أن يطأ الزقاق، سـوى الـكلاب والحيوانات الشـاردة. وأنتـم أيضًـا، عليكم أن تجدوا مكانًا آخر قبل حلول الصباح لترقدوا فيه. فلو علم الأمير بوجودكم هنا لفعل بكم كما فعل أبوه من قبل.

كان الرجـال قـد جلسـوا بصورة بـدت معها ظهـور الجنود مقابـل الميـدان. بعد لحظات، قـام رجل وذهـب متذرعًا بجلب الحطب، ابتعد قليلًا وراح يراقب صالحًا ورفيقه، وهما يجهدان في إنـزال جثمـان ميثم من الأعلى. بعد قليـل، عاد الرجل ومعه حزمـة من الخطب، ثم ألقاهـا فوق النار المشتعلـة، وتوجه إلى الجندي يسأله بهدف إشغاله.

– لكن ماذا فعل والد الأمير حتى...

لم يدع الجندي البدين الرجل يكمل حديثه فقال: «لقد أخبر الأمير أن والده يوم كان حاكمًا للبصرة، جلبوا إليه رجلًا قرويًا، كانوا قد أمسكـوا به، ولم يكن المسكين يعلم أن الأمير قد أصدر أمـرًا يمنع فيه الدخول إلى المدينة ليلًا. ولما أدخلوه على الأمير، حكم عليه بالموت شنقًا».

– وا ويلاه! أحقًا تقول؟

علت قهقهة الجندي.

– وهل خفت؟

التفت الرجل الملثم إلى رفاقه قائلًا: «أقسمت عليكم بالله أن تفكروا في حياتكم وأرواحكم؛ فأنا أرتعب من شدة الخوف، لا سيما مع وجود هذا الميت المعلق على المشنقة في هذا الميدان».

– أنا أخاف من الموتى فكيف إذا وصل الأمر إلى...

شعر الجنديان بالقوة والعظمة، فتقدما قليلًا إلى الأمام. قال الجندي الذي يبدو نحيل الجسم وطويل القامة: «لكن بالطبع يمكنكم أن تنقذوا أنفسكم بقليل من الذهب».

– تالله! إنا لمساكين.

– على كل حال، إذا أردتم الاحتفاظ بأرواحكم فعليكم فعل شيء ما. أليس كذلك يا أبا بكر؟

– ماذا تقول يا رجل؟ يكفي أنهم أخرجونا من الوحدة في جوف هذا الليل. ثم إن الرجل العربي لا يعامل ضيفه بهذا الشكل. نحن نطيع الأوامر ليس إلا. أنا أكاد أموت من النعاس.

ثم راح الجندي يتثاءب.

فجأة، أحسّ الرجل الذي كان يراقب الميدان، أن صالحًا ورفيقيه يعبران بجانب جدار منزل ابن حكيم ويبتعدان. قال متوجهًا بالسؤال إلى الجنديين:

– أساسًا أنتما لماذا تحرسان رجلًا ميتًا؟

– لأجل شيء لا معنى له. أليس كذلك يا قاسم؟

– نعم. بسبب الضغينة التي يكنونها له.

- وأي ضغينة؟

- لـو كنت مـن أهل الكوفـة لفهمت كلامـي. إن الأمير وابن حريـث يظنانه كاذبًا؛ لكـن كلام هذا العجمـي كان في النهاية صحيحًـا وصادقًا. يقول سوف أصلـب وأعلق على جذع النخلة، فيقولون له سوف نقطع رأسك. هذا الأمر يغضب أي رجل كان.

- في النهاية قد قتل الرجل، فلماذا الحراسة؟

- لقد أخبر أن قبره سيكون في بحر من الماء. لكن الأمير أمر بأن نحرسه حتى يتعفن جسده ويتلاشى.

في هذه الأثنـاء، كان يُسمع صوت خفيف لوقع أقدام الرجال الذين يحملون جثمان ميثـم. لكن الجندي البدين كان منشغلاً بالحديث عن ميثم، وأنه كان يغيظ الأمير.

- إذًا فهي مسألة هيبة.

تقدم بائع تمر آخـر، كان حتى اللحظة ساكتًا. قرّب خرجه، وقـال: «لقـد شغلنـا أنفسنـا بالحديث عـن أشيـاء لا تخصنا، ونسينا أن نشرب من هذا الشراب السائغ». ثم أخرج قربة وملأ الكؤوس، وقـال: «هذا الشراب اللذيذ يصنـع المعجزات في مثل هذا الليل الذي مال إلى الفجر».

- خصوصًا إذا كان بجانب النار جذع نخلة.

قطـع الجندي البدين كلام الرجل، ومد يـده من فوق النار، حتـى يملأ الرجل كأسه. كانت اللحظات تمر ببطء، بينما النار تتراقصـ في أعين الجنديـين، وألسنتهـا تتلوى يمينًـا وشمالًا.

أمـا الرجال فكانوا يتناولون أطراف الحديـث، ريثما يظهر أثر الشـراب علـى الحارسـين. لم يكـن لديهم أي خبر عـن صالح ورفيقيه. لقد مر وقت طويل منذ أن غادروا الميدان؛ لكن لم يكن لديهم الجرأة على فعل شيء.

- لماذا يبدو لهب النار هكذا؟

تثاءب الحارس الآخر، وقال: «أني أقع داخل النار».

لقد خدعتم...

لم يكمل الجندي البدين كلامه، حتى وقع بجانب النار وفقد وعيـه. حاول صديقه أن يقاوم؛ لكنه ترنح وسقط في العتمة على الأرض بلا حراك.

- هيا أسرعوا. لا حاجة لأن تأخذوا معكم أي شيء.

كانوا أربعـة رجال، اختفوا في عتمة حي بني أسد. عبروا من خـلال شجرات النخيـل، وتوجهوا إلى ناحية سـوق القصابين. كان صوت بكاء صالح يسمع من الجهة الأخرى لشجر النخيل.

هـذا ليسـ وقت البكاء يا ولـدي! يجب أن نُخـرج والدك من المدينة.

- إلى أين؟ عما قريب سيغلق الجنود أزقّة الكوفة كلّها.

ارتفـع الصياح الثاني للديك، ثم بـدأت أصوت الديكة تسمع مـن هنا وهنـاك. كان جسـد ميثم القصير ملقـى على حصير تحت شجرة نخيل، والرجال حائرين لا يدرون ماذا يفعلون به.

- ماذا نفعل الآن؟

– نفعل مثلما طلب، نأخذه ونتركه في الماء.

– ما هذا الكلام! يجب أن نواريه في التراب.

– الآن ليس وقت هذا الكلام. يجب أن نبتعد من هنا حد المستطاع.

أخذ الرجال بأطراف الحصير الذي ضم بين جوانبه جثمان ميثم النحيل والقصير، وساروا في العتمة. كان الظلام يعانق الليل، وهلال القمر الرفيع حادًّا كحرف الخنجر، ينبعث منه ضياء خافت. كانت النجوم فقط تلمع بفتور على قميص ميثم الذي يبس على جسده وتلطخ بالدماء.

ستة رجال حيارى، كانوا يعبرون بجانب الجدران، ويقفون للحظات حتى يرجع سابعهم الذي كان يتقدم عليهم مستطلعًا الطريق، ثم ينطلقون مجددًا.

– فلنحمله إلى مقبرة الكوفة....

– سيعرفون قبره من التراب الجديد.

– فلنأخذه إلى داره وندفنه هناك.

– هذه فكرة ليست سديدة على الإطلاق.

كان الرجال السبعة يقفون تارة ويتحركون تارة أخرى، وكل واحد منهم يقول شيئًا.

– اصبروا للحظة.

توقف الجميع على صوت سليمان:

– ألم يقل بنفسه إنه سيرقد بسلام في بحر من الماء؟

– كلا. لا يجب أن نرميه في الفرات، فهذا يعد إهانة...

– لم أقصد ذلك، بل قصدت أن هناك بركة ماء في حي قبيلة مراد.

– ماذا تعني؟

– يوجد في وسط البركة مرتفع قد ستر بالقصب والشوك والحشائش. أقسم بأن أحدًا لن يعلم بمكانه.

أسرع الرجال الخطى. كان سليمان يقصّ عليهم كيف كان يختبئ بين تلك الحشائش عندما كان صغيرًا، ولم يكن أحد ليعثر عليه. تقدم عدد من الرجال، وتفرقوا في الأطراف، وبقي صالح ومعه ثلاثة رجال ينتظرون إشارة سليمان. فجأة، دوى صوت وقوقة في العتمة. إنه سليمان يصدر الإشارة. تقدم صالح ورفاقه باتجاه البركة مبتعدين عن الجدار. كان ماء البركة باردًا، يغمر أقدامهم حتى الركب. ساروا في الماء، وسار معهم هلال القمر، فكان يظهر مرارًا على صفحات الماء مع كل خطوة

يخطوها الرجال؛ وكأن السماء قد سقطت في البركة. بجانب القمر كانت سحابة رمادية تزاحمه المكان؛ حيث بدا الهلال الرفيع يسبح في الماء تحت تلك السحابة.

عندما وصل صالح ورفاقه، كان سليمان ومن معه قد حفروا حفرة صغيرة. وضعوا جثمان ميثم على أجمة من العشب الجاف. أزالوا أعواد القصب ونحّوها جانبًا، ثم أخذوا خناجرهم وبدؤوا يحفرون الأرض. كانت الجذور متداخلة في باطن التراب الناعم والموحل، ما جعل اقتلاعها صعبًا.

اقترب وقت الفجر. ارتفع الصياح الثالث للديك. سبعة رجال كانوا يحفرون الأرض عميقًا، ويبعدون التراب جانبًا.

– أسرعوا، لقد اقترب موعد الأذان.

– أليس هذا كافيًا؟

– لا. فمن الممكن أن يأتي بعض الأولاد إلى هذه الناحية للعب، ويزيلون التراب.

– يجب أن لا يعلم أحد بالمكان.

وقف الرجل الذي كان في الحفرة معتدلًا، فلم يظهر سوى صدره. مسح صالح بيده على وجنتي أبيه بلطف ومحبة. كان ملازمًا لجسد والده. انحنى وقبل جبينه، ثم رفع رأسه ونظر إلى هلال القمر، حتى لا يرى أباه وهو يوارى في التراب.

– أعطوني ملابسكم أولًا.

أخذ سليمان ألبسة الرجال الملونة، ووضعها فوق الجثمان

وحولـه، ثم أهال فوقها قليلًا من الـتراب الناعم، وقال: «ضعوا التراب الرطب فوقه».

بعد أن امتلأت الحفرة بالتراب، جعل سليمان يسوّي الأرض بكفيه، حتى أنهى عمله. ثم قال: «ناولني هذه الأجمة يا صالح».

أخـذ سليمان أعـواد القصب وأجمات الشـوك والحشائش، وغرسهـا في الـتراب الرطب فوق القـبر، وسـوى أطرافها، ثم التفت إلى الرجال قائلًا: «لن يعلم أحد سوى اللّٰه».

- يجب الانتباه جيدًا، فغدًا ستعج الكوفة بالجنود والعيون.

- أقسموا أن لا تحدثوا أحدًا بسر هذه الليلة.

وضـع الرجال أكفهـم الملطخـة بالطين فوق بعضهـا بعضًا، وأقسموا بحزم أن لا يطلعوا أحدًا على سرّهم. كانت دموع صالح تسيـل على خديه. ارتفع صـوت الأذان... سبعة رجال بين شاب وعجـوز خرجـوا من البركة بهـدوء، ثم تفرقوا وسـار كل واحد منهم في زقاق، وتحوّلوا جميعًا نحو مسجد الكوفة.






المعارف
جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان - بيروت - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb
9 786144 672440